الأخلاق الإسلامية

ودورها فى بناء المجتمع

د. جمال نصار

مكتبة المتنبي
AL MOTANABI BOOK SHOP

د. جمال نصار

الأخلاق الإسلامية

مكتبة المتنبي
AL MOTANABI BOOK SHOP

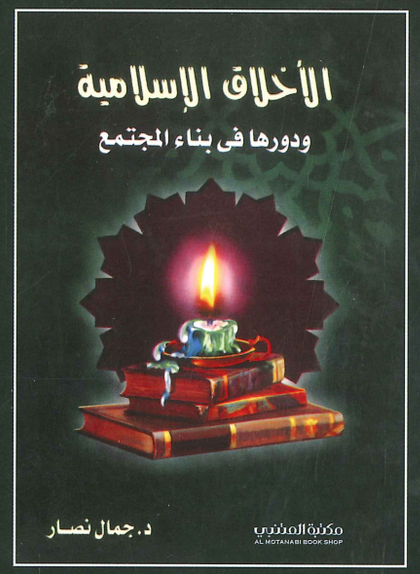

مكتبة المتنبي
AL MOTANABI BOOK SHOP
الدمام - شارع المستشفى المركزي هاتف : ٨٤١١٣٩٥ / ٨٤١٣٠٠٠ فاكس : ٨٤٣٢٧٩٤
ص.ب : ٦١٠ الدمام ٣١٤٢١ المملكة العربية السعودية

212000293
السعر 35.00 ر.س
الموقع 11/20
الأخلاق الاسلامية ودورها في بن

الأخلاق الإسلامية

ودورها فى بناء المجتمع

الدكتـــور

جمـال نصـــار

مكتبة المتنبي

ص. ب. : ٦١٠ الدمام ٣١٤٢١

المملكة العربية السعودية

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٤٦٣٥ / ٢٠٠٩

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده -سبحانه وتعالى- ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادى له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بيَّن الغاية التى من أجلها بعثه الله -تعالى- فقال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

فكأن الرسالة التى خطت مجراها فى تاريخ الحياة، وبذل صاحبها جهدًا كبيرًا فى مد شعاعها وجمع الناس حولها، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم، وإثارة آفاق الكمال أمام أعينهم، حتى يسعوا إليها على بصيرة.

إننا نعيش فى هذا العصر تحديات فكرية متنوعة تجذب الشباب هنا وهناك لتهوى به فى المهالك، وتبعده عن جادة الصواب، وعن معينة الصافى (الكتاب والسنة).

إن ما أصاب بعض المسلمين المثقفين من ثقافة غربية، إنما هو نتيجة لمحاولات إذابة العقيدة الإسلامية فى قلب المسلم، وإحلال أنواع من الفكر العلمانى كبديل للإيمان بالله. إننا نحتاج فى هذا العصر إلى التخلق والاقتداء بالرسول ﷺ وبصحابته والتابعين الذين أخذوا عن الرسول ﷺ، وتخلقوا بأخلاقه وتأدبوا بأدبه.

وفى هذا الكتاب أحاول جاهدًا أن أضع يد القارئ الكريم على فشل الأخلاق عند غير المسلمين وخصائص الأخلاق الإسلامية ومكانتها، وكيف أن الإسلام أولى الأخلاق، واعتنى بها عناية فائقة، ثم نتطرق إلى الحديث عن علاقة الخلق بالسلوك، والوسائل التى تساعد فى بناء وتنمية الأخلاق ثم

نعرج على فلسفة الإسلام فى تشريع العقوبات، والحديث عن الحدود والقصاص، ومن ثم ننتقل إلى بعض الأخلاق العملية من «الأمانة، والصدق، والعدل، والشجاعة، والصبر، والحلم، والوفاء، والتواضع، والحياء، والرحمة، والإحسان، والعفة» نستشرف حديث القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة فى حديثهما عن هذه الأخلاق، مع ضرب نماذج عملية للتحلى بها والسير على منوالها.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين، إنه ولى ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

❀❀❀

تمهيد

للأخلاق أهمية كبيرة فى حياة الناس؛ فهى التى تحدد السلوك الذى يجب على الإنسان اتباعه دون غيره، فالإنسان لا يعيش منفردًا، وعليه أن يختلط بالناس، وأن يسير وفق نظام أخلاقى ينبع من أيدلوجية معينة، هذا إن كان يريد أن يحيا فردًا فى مجتمع متماسك.

وتجدر الإشارة إلى أن المجتمعات والحضارات قاطبة، وعلى مر العصور قد أولت عناية خاصة بالأخلاق، وينبع ذلك من معرفة الشعوب مدى جدوى الأخلاق فى سير المجتمع وتماسكه. لكنها اختلفت فى منطلق تلك الأخلاق، والركائز التى يجب أن تستند عليها.

خضعت هذه المنطلقات والركائز إلى أنماط المجتمع واتجاهاته؛ فمجموعة المعارف والخبرات فى تلك البيئة المجتمعية، هى التى نشأت فى كنفها الأخلاق. ومع إقرارنا بصحة ذلك إلا أنه لا ينطبق على الأخلاق؛ لأن الأخلاق يجب أن تستند إلى منهج قويم لا يتأثر بالأعراض، ولا تطرأ عليه الحوادث.

وهكذا عرفت الشعوب غير الإسلامية الأخلاق، ووضعوا منهجها وأطرها، ورغم اختلافهم فى منطلقات هذه الأخلاق، إلا أنهم اتفقوا فى النهاية على الفشل.

• مفهوم الأخلاق عند غير المسلمين:

يكاد ينحصر المفهوم الأخلاقى عند غير المسلمين فى السلوك المجتمعى للفرد، فإذا سار الفرد فى سلوكه مع غيره وفق المنهج والمنطلق الذى يسير عليه المجتمع فهو على خلق، بصرف النظر إن كان سلوكه مع نفسه يسير فى

الاتجاه المعاكس أو لا. ولا شك أن من تلك الازدواجية تنهار الأخلاق؛ فسلوك الإنسان تجاه نفسه ينعكس بدوره على الآخرين، فالإنسان لا يكون ملاكًا وشيطانًا فى آن واحد؛ لأنه ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]؛ فإهمال البناء الأخلاقى فى الفرد هو أولى الخطوات نحو الهاوية.

• منطلق الأخلاق عند غير المسلمين:

تختلف منطلقات الأخلاق عند غير المسلمين اختلافًا كبيرًا، يشى بضعف الرؤية، وضيق الأفق لدى تلك الفلسفات، وفيما يلى استعراض ذلك

أولاً: الضمير

يرى أصحاب هذا الاتجاه وعلى رأسهم «جوزيف بطلر» ومن تبعه من الحدسيين أن الضمير الإنسانى هو منبع الأخلاق ومقياسها فهو «القوة الخفية التى تبين طريق الخير للإنسان، كما أنه هو الذى يبين له طريق الشر» وعلى ذلك يكون الضمير هو الخصم والحكم فى السلوك الأخلاقى.

ثانيًا: العقل

يرى أصحاب هذا الاتجاه وعلى رأسهم «كانط» أن العقل هو منبع الأخلاق ومقياسها، فما يحكم العقل بخيريته فخير، وما يحكم بشره فشر

ثالثًا: المجتمع

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن القوانين المجتمعية غير الرسمية «العادات والتقاليد» هى منبع الأخلاق ومقياسها، فما تعارف عليه مجتمع ما أنه خير فخير، أو شر فشر.

رابعًا: المنفعة واللذة

يرى أصحاب هذا الاتجاه وعلى رأسهم «أبيقور» و«بنتام» و«هوبز» و«جواستيورات ميل» أن المنفعة واللذة هى منبع الأخلاق ومقياسها؛ فالسلوك الذى يعقبه منفعة يكون خيرًا، والسلوك الذى يعقبه ضررًا يكون شرًا.

الرد على ذلك:

تتسم هذه الاتجاهات بالزئبقية، والمغالاة، والقصور؛ حيث إن الضمائر والعقول متفاوتة وغير ثابتة، فإلى أى الضمائر نرجع، أو إلى أى العقول نستند؟! ضمير الحاكم وعقله؟! أم ضمير الفيلسوف وعقله!!

كما أن الضمائر والعقول غير ثابتة، فالضمير قد يستيقظ أحيانًا وقد يغفل كثيرًا، والعقل قد يطرأ عليه التغيير الفكرى.

وخلاصة القول إن عدم تحديد أصحاب تلك الاتجاهات ماهية العقل والضمير، واختلاف العقول والضمائر باختلاف الزمان والمكان والثقافة، كل ذلك قد استخرج وثيقة وفاة لتلك الاتجاهات، معلنًا انتهاء تاريخ صلاحيتها مع ظهور المنهج الإسلامى. ورغم إيماننا العميق بدور العقل والضمير فى الأخلاق، إلا أنه لا يمكن أن يكونا وحدهما المنبع والمقياس الأخلاقى.

نفس الحال مع من يقدم العرف الاجتماعى؛ فالعادات والتقاليد تختلف باختلاف الزمان والمكان، بل قد تختلف فى المكان الواحد، مما يحتم علينا أن نختار عادات وتقاليد مجتمع معين لتكون معيارًا للأخلاق، الذى يجر بدوره سؤال مهم، لم هذا المجتمع بالذات؟!

أما أصحاب المنفعة واللذة، فلم يقيموا وزنًا لغير الجانب المادى، مما يهبط بالإنسان إلى الحيوانية المطلقة، فليس ضروريًا أن يتبع السلوك نفع ليكون

أخلاقيًا، فكم من الأخلاق التى تجلب الضرر إلى أصحابها، كالشجاعة والصدق، وإعانة الضعيف، وقول الحق، وكثيرة هى تلك الجرائم التى تجلب اللذة كالسرقة والزنا والظلم. فإذا انقلبت الموازين إلى هذه الدرجة، «فياموت زر إن الحياة ذميمة».

من هنا، فشلت الأخلاق عند غير المسلمين فى بناء مجتمع متماسك ناجح، فأساسها باطل، حتى وإن بدا ناجحًا فى بعض الجوانب المادية، إلا أنه لا يلبث أن ينهار لتآكل بنائه، وتصدع رابطته، وصدق الشاعر إذ يقول:

إذا كنت تبنى وغيرك يهدم ... كيف يتم للبنيان تمامه

تلك الاتجاهات وغيرها جرَّت على المجتمع الفساد والتفكك؛ فكم من الجرائم ارتكبت باسم الضمير، وكم من الشعوب أُبيدت باسم العقل، وكم من عادات كانت سببًا فى هلاك المجتمع، وكم من منفعة كانت سببًا فى إلحاق الضرر بالآخرين، وكم من لذة أعقبت حسرة وندامة.

وبذلك سقطت هذه الاتجاهات غير مأسوف عليها، تقر بفشلها، تتبع بعضها بعضًا إلى الجحيم.

❀❀❀

الباب الأول

مكانة الأخلاق في الإسلام

الفصل الأول: الأخلاق الإسلامية.

الفصل الثانى: الوسائل التى تساعد فى بناء الأخلاق

الفصل الثالث: اهتمام الإسلام بالأخلاق.

الفصل الرابع: خصائص الأخلاق الإسلامية.

الفصل الخامس: الجوانب الأخلاقية التي عالجها الإسلام.

الفصل الأول:

الأخلاق الإسلامية

المعنى اللغوى:

بالعودة إلى المعاجم العربية، وبالبحث عن مادة (خُ لُ ق) نجد أنها «حال للنفس راصخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر من غير حاجة إلى فكر وروية[1]».

يؤكد المعنى على أن الأخلاق كلمة عامة، تتضمن الأخلاق الخيرة والشريرة، ولكن الذى يتبادر إلى الذهن عندما تطلق كلمة الأخلاق بأنها الأخلاق الحسنة.

المعنى الاصطلاحى:

تتعدد تعريفات الأخلاق كثيراً، وأغلبها يتناول طرف من أطرافه فمنهم من يهتم بموضوعه، ومنهم من يهتم بمكانته، ومنهم يهتم بتوصيفه، ولكننا هنا نورد تعريف أبى حامد الغزالى؛ لأنه الأقرب: «هيئة فى النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعًا سميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التى هى المصدر خلقًا سيئًا»[2].

وينبه التعريف على أن ذلك يكون على السجية بغير تكلف، فمن يتكلف الصدق ليس بصادق حتى تكون عادته وطبيعته الصدق.

الجدير بالذكر أنه ورد تعريف لغوى اصطلاحى -إن جاز التعبير- لعلم الأخلاق مفاده: «علم موضوعه: أحكام قيمية تتعلق بالأعمال التى توصف بالحسن أو القبح»[3].

ولا يخفى اهتمام التعريف بموضوع علم الأخلاق.

---

(١) المعجم الوسيط، ١/ ٢٦١.

(٢) إحياء علوم الدين، ٣/ ٥٣.

(٣) المعجم الوسيط، ١/ ٢٦١.

المبحث الأول

أهمية الأخلاق في منظومة الإسلام

أولى الإسلام عناية كبيرة للأخلاق، فهى «تقوم على دراسة الكثير من الظواهر السلوكية، وتحدد الطريق الأمثل الذى ينبغى أن يتخذه الإنسان منهجًا له حتى يكون سلوكًا سويًا»

تعد الأخلاق ذلك السياج القوى والفعال والمتماسك الذى يحمى المجتمع، ويوجه سلوكه، ليبقيه داخل الأطر العامة للمنهج الإسلامى، وفيما يلى نتناول أهمية الأخلاق فى الإسلام .

أولاً: تقويم السلوك الإنسانى:

إن منظومة الأخلاق قادرة على إعادة هيلكة وتشكيل السلوك الإنسانى، فهى تقوم بدراسة سلوك الإنسان، والوقوف على دوافع تصرفاته، ثم تُقَوِّم أو تقنن هذا السلوك بما يتناسب مع المنهج الإسلامى، فهى ليست كعلم النفس الذى يدرس الظواهر السلوكية، ويهتم بتفسيرها فقط. بل يقوم المنهج الإسلامى على التقييم والتقويم؛ تقييم السلوك الإنسانى والوقوف على أبعاده، وتقويم أعوجاجه بما يضمن السير داخل السياج الأخلاقى، ولذلك يجب على الإنسان أن يسعى جاهدًا لتحسين أخلاقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] إذًا فالسلوك الإنسانى قابل للتعديل والتغيير.

كما شدد سبحانه على ضرورة الابتعاد عن الأخلاق الذميمة، وأغلظ فى

عقوبة مقترفيها، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١] وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء ٣٣].

فكان التوجيه القرآني واضحًا في ذلك أشد الوضوح. وقد اعتمد في كثير من الأحيان على أسلوب الثواب والعقاب، وقد امتازت العبارات في ذلك بالجزالة، فكانت ألفاظه سياط تلهب من يحاول الحيد عن المنهج القويم.

كما دعا سبحانه إلى ضرورة التمسك بالأخلاق الفاضلة، ووعد بالإثابة عليها، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩] وقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ [الإسراء: ٣٥].

كما وصف سبحانه أنبيائه الكرام بحسن الخلق؛ تحفيزًا لنا على الاقتداء بهم، فإن كانوا أنبياء والنبوة لا تكتسب، فقد كانوا على خلق ويمكن الاقتداء بهم، قال تعالى يصف إبراهيم -عليه السلام- ﴿إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤] وقال فيه أيضًا: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] وقال فيه كذلك: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، وكذلك وصف إدريس -عليه السلام- قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦]، وقال في إسماعيل -عليه السلام- ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] كل هذه الآيات تقدم الأخلاق على النبوة؛ تنبيهًا بأهميتها، وتشجيعًا على التحلي بها، فإذا كانت من صفات الأنبياء هذه الأخلاق، فكيف لا تكون أيضًا أخلاقنا.

ووصف الله -سبحانه وتعالى- المصطفى ﷺ بعموم الأخلاق فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وأكثر من ذلك، فقد دعا -سبحانه وتعالى- إلى الصبر على الأخلاق الفاضلة، فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨] فالنفس تكره ما يشق عليها من الطاعات والأخلاق، ولذلك فقد حفت الجنة بالمكاره.

كما استخدمت السنة النبوية المطهرة الترغيب والترهيب فى الدعوة إلى التحلى بالأخلاق، فقال رسول الله ﷺ: «**إن من أحبكم إلىّ، وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا**»، كما ضمن ﷺ: بيتًا فى الجنة لمن حسن خلقه، وقال كذلك فى الحديث الذى يرويه النواس بن سمعان: «**البر حسن الخلق**»، وقال يصف هدف رسالته -كما قلنا- «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**».

وعلى الجانب الآخر، حذر المصطفى ﷺ من الأخلاق الذميمة وعقوبتها، فقال: «**دخلت امرأة النار فى هرة حبستها حتى ماتت، لا هى أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض**» فى حين أن من سقى كلبًا غفر الله له، فالأخلاق لا ترتبط بالإنسان فقط، بل امتدت لتشمل الحيوان أيضًا، وذلك قبل وضع قوانين تنظيم التعامل مع الحيوان بزمن بعيد.

وقد يقول قائل: إن من شأن القانون الوضعى تقويم السلوك الإنسانى. ولكن تتميز الأخلاق الإسلامية عن القانون الوضعى بمصدر الإلزام، فهى من الله -سبحانه- العليم ببواطن النفس وآفاتها، الخبير بما يصلحنا ويفسدنا، وليس مصدرًا بشريًا يخضع للأهواء، ويسير وفق المصالح، فمصدر الإلزام هذا غير جدير بالاحترام، كما أنه لا يعرف ولا يحاسب إلا الأعمال الظاهرة، بينما امتدت الأخلاق لتقوم خطوات النفس، ونزعات الباطن.

ثانيًا: بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة:

لا تكتفى الأخلاق بتقويم السلوكيات القبيحة وحسب، بل تعمل على بناء الشخصية الإنسانية بناءً محكمًا، يتسق وقواعد الفطرة، فقد اهتمت الأخلاق

بجميع الجوانب الإنسانية، سواء ما يتعلق منها بالمعاملات مع الآخرين، أوالسلوك النفسى الداخلى.

والأخلاق فى ذلك تنطلق من طبيعة النفس البشرية؛ لتشبع حاجتها، وتفى بمتطلباتها، فمعلوم أن الإنسان ظاهر وباطن، جسد وروح؛ جسد خلقه الله من الطين، وروح هى من نفخ الله، فغذاء الجسد من الأرض، وغذاء الروح من السماء، ففى النفس شوق وطهارة ترتفع بها إلى السماء، وفيها دونية ورغبات تهبط بها إلى الأرض، ولابد من الاهتمام بالجانبين، فطغيان أحدهما على الآخرين ينذر بكارثة؛ فطغيان الجسد على الروح يصعد بالنفس إلى السقوط نحو الهاوية، وتغلب الروح على الجسد، رهبانية غير مرغوبة فى الإسلام، فالأخلاق هى الروح والباطن، وما يتمتع به الإنسان من أخلاق ينعكس بدوره إلى الجسد والظاهر، فيظهر فى سلوكيات تشى بباطن الإنسان، ودواخل نفسه. وقد شدد - سبحانه وتعالى- على ضرورة صلاح الباطن والروح بما يترجم إلى سلوكيات حسنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وأعلن ﷺ القانون الإلهى فى التعامل مع الناس فقال: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١).

هل رأيت قانونًا ينظر تلك النظرة المثلى إلى الشخصية الإنسانية؟!

إن الإنسان لا يستقيم لغيره، طالما لا يرى فيه ما يدعوه إلى ذلك؛ ويتمرد على القوانين لعلمه أنها غير مجدية، ولا تنفذ بصورة سليمة، كما أنها تعطل الكثير من المصالح.

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والأخلاق، ٤/ ١٩٨٧.

أما إذا آمن بسمو القانون، وتيقن من نفسه أنه المصلحة الكاملة، والنفع المطلق، والتطبيق السليم، فإنه ينصاع إليه، ليسلم مقواده مطمئنًا راضيًا إلى تلك الإرادة التى تدبر بحكمة، وتتصرف برحمة.

ثالثًا: ارتباطها بالشريعة والعقيدة:

أوردنا سالفًا فشل الاتجاهات التى جعلت الضمير والعقل والعرف والمنفعة منبعًا ومقياسًا للأخلاق؛ لأنها غير ثابتة ولا معيارية، لنقول هنا إن ما يميز الأخلاق الإسلامية الثبات والمعيارية؛ لأنها تستند إلى الشريعة الإسلامية السمحة، والمنهج القويم الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، فوعد الله -سبحانه- وتعالى- من استسلم لحكمه، وانقاد لنهجه بالهداية والرحمة والسعادة، فالمنهج كامل متكامل، ولا يتنافى فى ذلك مع الاجتهاد؛ لأن صلاح الشريعة لكل زمان ومكان، يتيح الحرية والاجتهاد فيما يجد من أمور بما يتوافق مع المنهج والقواعد حتى لا تصاب الشريعة بالجمود والقصور.

فاستناد الأخلاق للعقيدة يمنحها سلطة التطبيق والثبات، وعدم تحكم الأهواء، فالعقيدة بلا أخلاق شراع لا حياة فيه، والأخلاق بلا عقيدة قارب تتقاذفه الأمواج لينتهى به المآل على صخرة التحديات.

أما ارتباط الأخلاق بالشريعة ففيه وجوه منها: ارتباط الأخلاق بالعبادات؛ فهدف العبادات أخلاقى فى المقام الأول، وما نفع الله بقيام عبده رجوعه؟! أيزيد ذلك فى ملكه شيئًا؟! كلا والله، فالله غنى عن العاملين، وقد عبر سبحانه عن ذلك بقوله ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، فالعبادات تكسب الإنسان الأخلاق، وتساعده على المحافظة عليها.

فالصلاة تكسب الإنسان البعد عن المعاصى، وتطهير الروح، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وتعمل على تقوية الروابط بين المسلمين، تلك العبادة التى يصطف فيها الناس -غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم ومتعلمهم، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم -صفًا واحدًا فى معركة مصيرية ضد الشيطان والنفس، غايتهم واحدة، ونداؤهم واحد ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

والصوم تلك العبادة السرية، تغرس فى النفس المراقبة، وتذكر الغنى بالفقير، وتطهر الروح من شوائب الجسد، وتعلو بها لتتعلق دائمًا وأبدًا بالسماء، لتصل فى النهاية ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

والزكاة ذلك المطهر الذى يطهر المجتمع من الحقد والحسد، ويدفع الفقير أن يدعو بظهر الغيب للغنى بدوام النعمة، ويذكر الغنى أنه مستخلف فى مال الله، فقد ابتلى الله الفقير بالغنى، ينظر إلى غناه ونعمته، ويتأمل فقره وبؤسه، وابتلى الغنى بالفقير، يحذره الإسراف والغفلة عن المنعم، ويوجب عليه المواساة.

والحج تلك العبادة المحيرة التى تُعَلِّم الاستجابة لأمر الله، واعترافًا بفضله سبحانه، وتعلق النفس دائمًا باليوم الآخر؛ لتوقف طغيان النفس، وغلبة المادة، وإلا ما نفع الإنسان أن يطوف بحجر، ويُقَبِّل حجر، ويسعى بين حجر وحجر، ويقف على حجر، ويرمى حجرًا بحجر، أهو دين تقديس الحجارة والجمادات؟! أيترك الإنسان الحرث والنسل، وينفق من وقته وصحته ليزور أحجارًا؟!

لا... إنما هو امتثال أمر الله، واقتداءً بالمصطفى ﷺ: «**والله إنى لأعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك**»[1] تلك هى الطاعة، وهذا هو الامتثال.

(١) عمر بن الخاطب مخاطبًا الحجر الأسود.

إن دينًا يتصرف أتباعه وفق منهجه دون وجود سلطة قهرية متسلطة، عن طواعية ورضًا، لحرىٌّ به أن يسود؛ لأن فيه نفع الدنيا والآخرة.

ارتباط الأخلاق بالمعاملات:

ترتبط الأخلاق بالمعاملات ارتباطًا وثيقًا، وأعنى هنا المعاملات المجتمعية بين الناس، فهى تلزم المرء بسلوك معين يحقق للنفس رغباتها، ويساعد على استمرار وتماسك المجتمع. ولا يكتفى المنهج بوضع الخطوط العريضة لأنماط السلوك، وإنما يدله على كيفية أداء هذا السلوك؛ وذلك نظرًا لحساسية المعاملات، وخطرها فى الإسلام. على سبيل المثال، الإسلام يدعو إلى صلة الرحم، والتواصل مع الأصدقاء، ولكن لا يكتفى بالحث على السلوك والتوجيه إليه، بل فصل فى كيفيته بأن جعل الاستئذان ثلاثًا ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]، كما أمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر حفاظًا على المجتمع، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] وقال ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، وقد فصل سبحانه فى أوقات الاستئذان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨]، ومن هنا لم يغفل النظام الأخلاقى فى الإسلام صغيرة ولا كبيرة؛ ليضع الحدود بين الناس فى المعاملات، والاستقصاء بنا يطول، والأمثلة عديدة.

وهكذا عبأ المنهج الإسلامى الشريعة والعقيدة، وحشد كل الإمكانات بما يخدم الأخلاق والمجتمع. من هنا قلنا إن المنهج كامل متكامل.

رابعًا: آثارها على الفرد والمجتمع:

للأخلاق أثر ظاهر على سلوك الفرد، وبما يجره من مجتمع؛ فالمجتمع إن هو إلا مجموعة من الأفراد، فإذا تحلى الفرد بالأخلاق الحسنة فاز فى الدنيا

والآخرة؛ فاز فى الدنيا بحياة فى مجتمع صالح متماسك، وفاز فى الآخرة برضوان الله. وإن تخلى فقد تعس عبد الدارين، شقى فى الدنيا بمجتمع فاسد متهالك، خاسر فى الآخرة بما اقترفت يداه، «وعند مس النار يلتمس الفرق».

فإذا كان هناك الفرد المسلم، وُجِدتْ الأسرة المسلمة، وتكون البيت المسلم، وكان المجتمع المسلم، لتكون السعادة فى الدارين، فالفرد إذًا هو نواة المجتمع، وعليه عبء صلاحه أو فساده. وعلى الفرد المسلم ألا يكتفى بصلاح نفسه فقط، بل يهتم بدعوة الآخرين، ومحاولة إصلاحهم والدعاء لهم، ولتخفق راية «انج سعد فقد هلك سعيد»، لترفرف راية ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

وقد شدد القرآن على الوحدة والصلاح الجماعى، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وينادى على عباده ناصحًا لهم: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ويلتقط المصطفى ﷺ ذلك الخيط، ليصف هذا المجتمع بـ«البنيان يشد بعضه بعضًا» وهو بمنزلة «الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

عندها فقط تخامر الأخلاق اللحم والعظم، ويسود المجتمع التآلف والود والإخاء، ليرتقى إلى مدارج التقدم والصعود دينًا ودنيا.

وسوف نفصل ذلك فى مبحث قادم فى ارتباط الأخلاق بالجوانب الحياتية المختلفة.

❀❀❀

المبحث الثانى

علاقة الخلق بالسلوك

كثيراً ما يخلط الناس بين الخلق والسلوك، فيتحدثون عنهما دون مراعاة فرق، وكأنهما مترادفان لمعنى واحد، وقد وقع كثير من المثقفين فى ذلك الخطأ، لذا ومن أجل ذلك فإننا نبدأ بالتفريق.

السلوك: «أعمال المرء الإرادية المتجهة نحو غاية معينة مقصودة»[1] وهذا التعريف يركز ويوضح عدة نقاط:

١- السلوك هو الأعمال الظاهرة الصادرة عن الإنسان.

٢- السلوك يتصل بالأفعال التى تتوفر فيها الإرادة الحرة.

٣- السلوك عمل يسعى لتحقيق هدف.

لذلك فإن كلا من الأمور الباطنية من حقد وحسد أو فرح وبغض، والأفعال التى لم تتوفر فيها الإرادة الحرة كأفعال المجنون والمكره والسكران، والأفعال التى لا هدف من ورائها، كل ذلك لا يعد من قبيل السلوك[2].

الخلق: سبق أن عرفنا الخلق بأنه: هيئة فى النفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية.

ونفهم من هذا التعريف أن الخلق أمر باطن، بعكس السلوك الذى يرتبط بالظاهر.

بمقارنة التعريفين ندرك بما لا يدع مجالاً للشك أن علاقة الخلق بالسلوك هى علاقة بين الدال والمدلول؛ «فإذا كان الخلق حسنًا كان السلوك حسنًا، وإذا

(١) دراسات فى فلسفة الأخلاق، ص١٠٠.

(٢) الأخلاق الإسلامية، حسن السعيد المرسى، ص٣٠، بتصرف.

كان الخلق سيئًا، كان السلوك سيئًا، فالسلوك هو الشيء الملموس والوجه الآخر للخلق.

فإذا كان الخلق أمرًا داخليًا، فإنا نستطيع أن ندركه عن طريق ملاحظة السلوك، هذا فى الظروف العادية. أما إذا وجد مانع ما يمنع من ترجمة الخلق الباطن إلى سلوك ظاهر فلا علاقة. بمعنى إذا كان هناك شخص ما من طبعه وخلقه أكل مال الناس، ولكن لا أحد يودعه مالاً، فلا نقول إنه ذو أمانة؛ لوجود مانع يمنع من ترجمة خلقه الداخلى على الأرض»[1].

تجدر الإشارة إلى أنه يجب علينا أن نضفى على السلوك الظاهرى، والذى يعبر عن باطن الخلق صيغة عقيدية، فيلتزم الإنسان بالآداب والأخلاق القولية والفعلية فى سلوكه؛ فيشرب كما ورد عن رسول الله ﷺ-ثلاثًا، ولا يشرب واقفًا، وليجلس كما كان يجلس ﷺ فى طعامه أو جلسته، ويلتزم بما ورد عنه ﷺ من سلوكيات فى نومه، وفى حله وترحاله ومعاملاته. . . إلخ.

كذلك نبه المصطفى ﷺ على ضرورة مراعاة الآداب الإسلامية حتى مع الخلق التى لا تترجم على الواقع، فأمر بتحسين الظن بالله، ودعا إلى البشاشة «تبسمك فى وجه أخيك صدقة» ونفى أن يكون المؤمن «بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء»[2].

وهكذا تتكامل المنظومة الأخلاقية فى الإسلام؛ بما يوفر لها -إن طبقت- النجاح والسعادة، وصلاح المجتمع. كما أنه يثبت فشل الفلسفات والنظريات الأخلاقية الأخرى، وعدم مناسبتها للطبيعة البشرية، وإغفالها الكثير من حاجات النفس وجوانبها.

❀❀❀

(١) دراسات فى فلسفة الأخلاق، ص١٠٠ وما بعدها، بتصرف

(٢) الأخلاق الإسلامية، حسن السعيد المرسى، ص٣١ وما بعدها، بتصرف.

الفصل الثانى:

الوسائل التى تساعد فى بناء الأخلاق

أوضحنا فيما سبق مدى أهمية الأخلاق وجدواها فى بناء السلوك الإنسانى والمحافظة على تماسك المجتمع.

ولكن هل يمكن أن تكتسب الأخلاق؟ أم أنها فطرية لا دخل لنا فى اكتسابها؟

سؤال ثار ومازال يثير جدلاً واسعًا داخل أوساط النظريات الفلسفية المختلفة، ويمكن رصد ذلك فى ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأخلاق فطرية جُبل الإنسان عليها، ولا دخل له فى اكتسابها، فمن لا يفرق بين الخلق والسلوك يرى «أن الخلق ظاهر وباطن، كما لا يستطيع الإنسان أن يغير الخلق الظاهر، فلا يستطيع أن يغير الباطن، فالقصير لا يستطيع أن يجعل نفسه طويلاً، فكذلك الخلق الباطن لا يستطاع تغييره، فالقبيح باطنًا لا يستطيع أن يجعل نفسه حسنًا»(١).

كما أنه من الصعب قمع الشهوات حتى مع المجاهدة الفعالة.

الاتجاه الثانى:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأخلاق مكتسبة بالتعلم والمجاهدة، ويؤيد ذلك الكثير من النصوص الشرعية التى تحض على التمسك بالأخلاق الحميدة، والتخلى عن الأخلاق القبيحة، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]

(١) دراسات فى فلسفة الأخلاق، ص٢٥ بتصرف.

وقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] فلو لم يكن ذلك مستطاعًا لما دعا الله سبحانه إليه، ولكان ذلك ضرب من المستحيل، وكان الله يأمر بما ليس مستطاعًا.

والكثير من النصوص تدل على أن الخيار بيد الإنسان، قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وقال المصطفى ﷺ: «حسنوا أخلاقكم» وقال أيضًا: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخلل».

مع هذه النصوص لا يستسيغ العقل كون الأخلاق فطرية، وإلا لكان إرسال الرسل عبث، ولما كان هناك هدف من هذه الرسالات، بل إن القرآن قد حكى لنا من رسالة شعيب -عليه السلام- أنها كانت فى أهم ما يميزها الأخلاقية ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ﴾ [هود: ٨٥] وقال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥].

ثم ما الجدوى فى الثواب والعقاب، والجنة والنار، وقد خلق الله الناس بأخلاقهم، فمن جبله الله على الأخلاق الحميدة ففى الجنة، ومن جبله على الأخلاق الذميمة ففى النار، حاشا لله أن يقع ذلك، إن ذلك لا يعدو أن يكون رجمًا بالغيب وخبط عشواء لا يتماشى والدين الحنيف.

الاتجاه الثالث:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأخلاق منها الفطرى والمكتسب، ويؤيد ذلك قول المصطفى ﷺ: لأشج عبد القيس: «إن فيك خلتين يحبهما الله: الحلم والأناة. فقال: رسول الله: أنا أتخلق بهما أم الله جبلنى عليهما؟ قال: بل الله جبلك عليهما، قال: الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يحبهما الله ورسوله»[1].

(١) سنن ابن داود، كتاب الأدب، حديث رقم ٥٢٢٥.

كما ثبت بالتجربة أن الأخلاق تكتسب بالرياضة والمجاهدة.

وإن كنا نميل إلى أصحاب الاتجاه الثانى؛ لكثرة أدلته، مع إيماننا بقوة الاتجاه الثالث. مع التنبيه على أن الجدل ما يزال دائرًا حول القضية.

ومادامت الأخلاق تكتسب بالمجاهدة والرياضة، فكيف يتم ذلك؟ وما هى الطرق والوسائل المثلى لتحقيق ذلك؟

السطور التالية ربما تجيب عن هذه الأسئلة، بما يزيل غموضها، ويوضح مشكلتها.

فيما يلى نعرض لبعض الوسائل[1] التى تساعد على بناء الأخلاق فى المجتمع، مع التنبيه أنه ليس هناك طريقة واحدة يمكن اتباعها لاكتساب الأخلاق، بل يجب أن تتضافر الوسائل، لتكون منظومة من الآليات التى تحقق بدورها الهدف المنشود؛ لأن كل طريقة تهتم بجانب فى ترسيخ الأخلاق فى النفس البشرية.

❀❀❀

(١) هذه الوسائل استفدناها من الدكتور/ حسن الشرقاوى، الأخلاق الإسلامية، ص١١٥ وما بعدها، بتصرف.

المبحث الأول

الوعظ والنصيحة

النصيحة من نصح، ونصحه: «أرشد إلى ما فيه صلاحه»(١).

الوعظ من وعظ، ووعظه: «نصحه وذكره العواقب» و«أمره بالطاعة ووصاه بها»(٢).

فالنصح يتضمن الترغيب والدعوة إلى الصلاح، بينما الوعظ يتضمن الزجر والتخويف من العواقب. لذلك يسعى الناصح الواعظ فى اتجاهين، التركيز على الترغيب والمنافع المحصلة من التزام ذلك الخلق، والترهيب والزجر، والتذكير بالعواقب إن هو تخلى عنه.

وللوعظ والنصح دور كبير فى اكتساب الأخلاق، وكم من مواعظ كانت سببًا فى تغيير مسار حياة إنسان، وكم من نصائح رفعت رجالاً إلى قمة المجد والنجاح، وننبه على ضرورة قيام الأسرة بالنصح والوعظ، يتوازى ذلك مع دور المدرسة؛ فالطالب ينسى كثيرًا، وإذا رأى أكثر من جهة توجهه وتنصحه فإنه ينتصح.

كذلك يجب التركيز على أن الوعظ والنصح لا يقتصر على الصغير دون الكبير، فالإنسان فى حاجة دائمة إلى من يذكره وينصحه، صغيرًا أو كبيرًا، عظيمًا أو حقيرًا. وإيمانًا واعترافًا بقيمة الموعظة والنصح كان الملوك السلاطين وقبلهم الخلفاء يحرصون على طلب النصح والوعظ من الرعية، وأخبار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى ذلك متواترة. بل قام بعض الملوك والسلاطين بتعيين شخصًا للوعظ والنصح له.

(١) المعجم الوسيط ٢/ ٩٦٢.

(٢) المعجم الوسيط، ٢/ ١٠٨٦.

وقد دعى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة إلى ضرورة القيام بالوعظ والنصح، ويدل ذلك على دور الوعظ والنصح فى توجيه السلوك الأخلاقى، قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وقال فى أصحاب السبت الذين تركوا الوعظ، واتسموا بالسلبية، قال تعالى على لسانهم فى عتاب من قام بدور الناصح الواعظ ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤- ١٦٥] فنجى الله الذين تحركوا بلسانهم، وأنكروا بقلوبهم، وعذب الذين اعتدوا، ولم يذكر أولئك السلبيين استهانة بشأنهم، وتحقيرًا لقدرهم.

وسيظل القرآن يصدح بسورة لقمان، وما تمثله من دروس تربوية فى الوعظ والنصح، قال تعالى على لسان لقمان يعظ ابنه: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] وقال: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦] وقال: ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٧- ١٩].

فمن أراد أن يربى ابنه فليقرأ تلك الدروس، وليتعلم هذا الأسلوب، وليعمل وفق هذا المسار، وليلتمس هذا الحب والرفق.

ولم تكن السنة المطهرة بعيدة عن التنبيه على عظم هذا الدور، فقال المصطفى ﷺ: «من دل على خير فله مثل فاعله»[1].

وقال أيضًا: «الدين النصيحة». قلنا لمن يا رسول الله ﷺ؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[2] هذا الكم الهائل من النصوص إنما يشى بعظم دور الوعظ والنصح فى اكتساب الأخلاق وتعلمها.

❀❀❀

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث رقم ١٨٩٣.

(٢) الأخلاق الإسلامية، حسن الشرقاوى، ص١٣٩.

المبحث الثانى

التخلى والتحلى

التخلى: «أن يتخلى الإنسان عن تلكم العادات السيئة التى كانت سببًا فى انحرافه عن الطريق المستقيم».

التحلى: «أن تتحلى النفس البشرية بالأوصاف المحمودة كبديل للأوصاف المذمومة التى اعتادت عليها»(١).

وقد اختلفت النظريات الأخلاقية: أيهما نقدم: التحلى أم التخلى؟

بمعنى: هل يسعى الإنسان لاكتساب أخلاق حميدة أولاً؟ أم يعمل على التخلى عن أخلاقه الذميمة أولاً؟

وفى القرآن والسنة المطهرة الكثير من النصوص التى دعت إلى التحلى والتخلى، مما ينبه على مدى أهميتهما فى تشكيل السلوك، فكثيرًا ما يأمر القرآن الكريم بالتحلى بأخلاق حميدة، والتخلى عن أخرى ذميمة، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] وقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

وفى حثه الدءوب على التخلى عن أخلاق ذميمة، قال: ﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦] وقال: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] وقال: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧]

(١) المصدر نفسه، ص١٣٩.

وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤] وغيرها كثير، وما ذلك إلا لدورها الفعال فى بناء وتنمية السلوك، والقرآن ملىء بمثل هذه التوجيهات، وما ذلك إلا نماذج من سورة الإسراء.

والسنة النبوية المطهرة تشدد على ذلك، وترغب فى التحلى بالأخلاق الفاضلة، والتخلى عن القبيح منها، فقال رسول الله ﷺ: «أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

وقال: «إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا».

وقال المصطفى ﷺ يدعو إلى التخلى: «ليس المؤمن بطعانٍ، ولا لعانٍ، ولا بفاحش، ولا بذىء».

وقال: «والله لا يؤمن (ثلاثًا) قالوا: من يا رسول الله؟ قال: من لا يأمن جاره بوائقه».

وقال: «وإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا».

وغير ذلك كثير، مما يدعو إلى التمسك بالأخلاق الحميدة، والتخلى عن الأخلاق الذميمة.

فمن يقول بالتخلى قبل التحلى يرى أنه: «إذا كان الشاب محبًا للمرأة، متشوقًا لها، وهو عاجز عن الزواج، فعلى المربى أن يأمره بالصوم، وربما لا تسكن شهوته بالصوم، فعليه أن يأمره بفطر ليلة على الماء دون الخبز، وليلة على الخبز دون الماء، ويمنع عنه اللحوم؛ حتى تذل نفسه وتنكسر شهوته، ولا أنفع لهذا الشاب فى علاجه من الجوع»(١).

(١) الأخلاق الإسلامية، حسن الشرقاوى، ص١٤٠.

أمـا من يقول بالـتحلى أولاً فـيـؤكد أن: «الناس تعـيش فى أكـواخ من عقائدهم وأفكارهم، لا تهدموا عليـهم أكواخهم، ولكن ابنوا لهم قصوراً من العقيـدة السمحة، وقتـها سيهدمـون أكواخهم بأيديهم»[1] وأيما يكن الأمر، فنحن متفقون على مدى جدوى هذه الوسيلة فى بناء وتنمية الأخلاق.

أما العادة ومـا جرى عليه العرف الاجـتماعى، فينظر إذا كـان مما يخالف نصوص الكتـاب والسنة فيجب التـخلى عنه، أما إذا توافق مع ما تدعـو إليه الشريعة فهو مما يتحلى به.

❀❀❀

(١) الرسائل، حسن البنا.

المبحث الثالث

الصداقة

للصحبة دور كبير فى اكتساب الأخلاق، ففى زمن كزماننا يقضى المرء جل وقته مع أصدقائه. ولأهمية هذا الدور وخطره فقد شددت الشريعة فى اختيار الصديق؛ لأنه عنوان لصاحبه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال المصطفى ﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

وقال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»(١).

وقد ورد فى الحكم: «قل لى من تصاحب، أقول لك من تكون» فالأصدقاء وجوه متعددة لعملة واحدة، أخلاقهم واحدة، وأهدافهم متقاربة، ومرجعياتهم واحدة، «فالصاحب ساحب» إما إلى نعيم، وإما إلى سقر. ولله در الشاعر حين قال:

إن أخاك الحق للذى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

ورحم الله صالح بن عبد القدوس حين قال:

وإذا الصديق لقيته متملقًا ... فهو العدو وحقه يتجنبُ

....

واحذر مصاحبة اللئيم فإنه ... يعدى كما يعدى الصحيح الأجربُ

فعلى المرء أن يتخير أصدقائه، وأن يعيد النظر فى العلاقات القائمة، فالصديق الحق «من إذا ذكرت الله أعانك، وإذا نسيت ذكرك».

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، حديث رقم ٢٦٢٧.

المبحث الرابع

القدوة والمثل الأعلى

القدوة من أخطر الوسائل فى التربية الأخلاقية، إما سلبًا وإما إيجابًا، وترجع أهمية القدوة إلى وجوب وجودها؛ فالإنسان بطبعه يحب أن يتخذ مثالاً يحتذى خطاه، ويقلد سلوكه، ويحاكى تصرفاته. «ومن هنا يكمن خطر دور الأبوين فى البيت؛ فأول ما يتخذ الطفل قدوة بالبيت، وعلى الأبوين مراعاة ذلك، والتخلق بالأخلاق الإسلامية، وعدم التلفظ بأى لفظ خارج أمام الأبناء، وعليهم أن يشجعوا هذه القدوة فى جوانبها الإيجابية، وتقنين هذه المحاكاة. ثم يأتى دور المدرسة فى اتخاذ القدوة، حيث يلعب المعلم دورًا مهمًا فى تشكيل ميول الطالب وأفكاره، فإن حسنت أخلاقه صار المجتمع صالحًا بزهوره اليانعة، وإلا فقد تسبب فى ضياع جيل بكامله، لذلك فإننى أناشد المدارس بحسن اختيار المعلمين بما يتفق والضوابط الشرعية، فالقدوة هى التربية الخفية التى يظهر أثرها فى السلوك المنعكس من الطالب بناء على قدوته.

ثم يتطلع شابًا إلى تلك الحضارة الغربية المادية، وزخرفها ورقيها، ويحاول أن يتخذ من هناك القدوة، فإذا فعل ذلك فقد صعد أول درجات السقوط إلى الهاوية. فعلى أولياء الأمور والمدارس مراعاة ذلك، والتركيز على أن هذه المجتمعات تعانى أزمة أخلاقية رغم تقدمهم المادى، لذلك فيجب علينا الاستفادة من الجوانب الحضارية والتقنية عندهم مع الحفاظ على أخلاقنا وهويتنا الإسلامية»(١).

ولا تخفى خطورة القدوة فى مجتمعنا العربى؛ فالأسوة قد يتميز فى جوانب، لكنه بلا شك ملىء بجوانب القصور، مما ينذر بكارثة إذا اقتدى به الصغير فى كل أفعاله الحسن منها والقبيح.

(١) الأخلاق الإسلامية، حسن الشرقاوى، ص١١٧ وما بعدها، بتصرف.

لذلك فإننا نقول: «من كان متأسيًا فليتأسى بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة». وما أجمل أن يكون قدوتنا سيد الخلق وحبيب الحق محمد ﷺ، خير مثال يحتذى فى سلوكه وأخلاقه ومعاملاته، فقد كان ﷺ: «قرآنا يمشى بين الناس»، ورغم انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى من زمن ليس بالقليل، إلا أن لدينا صورة كاملة عن تصرفاته، والتى نقلها إلينا، وحرص على دقتها جلة من صحابته الكرام، سواء فى حياته الخاصة أو العامة.

كما أنه ﷺ يتمتع بالشخصية المتكاملة، فقد كان ﷺ رسولاً يوحى إليه، وقائدًا عامًا للجيش الإسلامى، وقاضى الدولة الذى يفصل فى المعاملات والأحكام، وهو أولاً إنسان عادى كأى رجل، أرأيت صورة متكاملة كتلك الصورة؟!

ما من أحد نقلت إلينا صورة كاملة عن حياته، سلوكياته، حتى أخلاقه مثله ﷺ، وما حرص أتباع نبى بنقل صورة نبيهم إلى من بعدهم مثل صحابته الكرام رضوان الله عليهم.

وقد أمر سبحانه بالاقتداء بثلاثة فى القرآن الكريم.

أمر بالاقتداء بإبراهيم -عليه السلام- خليل الرحمن ومن معه فى موالاة من يوالى الله، والبراءة ممن لا يوالى الله، وكون المؤمنين بعضهم أولياء بعض قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦] ولا يخفى أهمية تكرار الحث على الاقتداء بهم، إنها ليست

مجرد دعوة، إنها علامة على الطريق إلى الله تيسر صعوبته، وتمنح الأمل فى رضاه وجنته.

ثم حث سبحانه على الاقتداء برسول الله ﷺ فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

فتمثل أخلاقه ﷺ من أهم الوسائل التى تساعد على تنمية الأخلاق وبنائها لدى المسلمين.

ثم حث الله -سبحانه وتعالى- على الاقتداء بصحابته الكرام -رضوان الله عليهم- أولئك الذين آمنوا به، واتبعوا رضوان الله، وتربوا على يده ﷺ، وتخرجوا فى مدرسة الدعوة والأخلاق، ففتحوا البلاد، وملكوا القلوب، يقول تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

إن تاريخنا الإسلامى أيها الإخوة ملىء بتلك النماذج، فلم ننظر تحت أرجلنا، أو لا ننظر أصلاً قبل اختيار قدوتنا.

ها هى نماذج الأسوة والقدوة، وما أروعها من نماذج، فهل من مقتدٍ؟!

❀❀❀

المبحث الخامس

الثواب والعقاب

إن الإنسان وهو على طريق الله يحتاج إلى ما يدفعه للاستمرار، ويحفزه إلى المداومة، ويشحذ همته للأمام، ويذكره بالجزاء كلما طال عليه الطريق.

وإذا كان الإنسان على طريق الشيطان، فإنه يحتاج إلى ما يزجره ويعود به إلى العقل والفطرة، ويجعله يعيد النظر فى حساباته، وعاقبة طريقه، يعده الجزاء والسعادة إذا هو آب، ويتوعده الهلاك والشقاء إن هو تمادى. ذلك هو الثواب والعقاب، إثابة السوى ومكافأته، وعقاب المعوج وعاقبته.

إن النفس البشرية لتكل من طول الطريق، وتتعب فى تحصيل الطاعات، مما يصيبها بالكلل والسآمة، فيأتى الثواب ليكون الدفعة والطاقة التى تثبت الأقدام، وتشحذ الهمم، وإن فترت تلك النفس، وأصابها القصور، وجب تذكيرها بالعاقبة إن هى لم تفق من غفوتها.

وتحقيق التوزان بين الأمرين يساعد وبشكل كبير على بناء الأخلاق، فلا إفراط فى الثواب والترغيب فتتراخى النفس وتركن إلى الدعة، ولا إفراط فى العقاب فتعيش النفس فى جحيم لا يطاق، وتوقن بالهلاك، وأنه لا فائدة من المحاولة.

ولقد استخدم القرآن تلك الوسيلة كثيراً فى بناء المجتمع الأخلاقى الإسلامى قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]. فجعل الوفاء بالعهد دليل على التقوى، وجعل ثواب ذلك حب الله -سبحانه وتعالى- وقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١] فوعد سبحانه بتكفير السيئات

ودخول الجنة لمن يستقيم على النهج القويم. وقال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [الرعد: ٣٥] فالتذكير بالجنة وما أعده الله فيها، يدفع إلى مواصلة السير حتى لو لم يكن معك أحد. فاسلك طريق الثواب ولا يهولنك قلة السالكين.

وعلى الجانب الآخر، يحذر سبحانه الذين يعرضون عن الطريق، ويتوعدهم إن هم تمادوا بالويل والعذاب والخسران في الدنيا والآخرة. وكثيراً ما قص علينا القرآن قصص أولئك الذين أعرضوا عن المنهج، وخالفوا رسلهم، وما أصابهم من العذاب، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤] فعدد سبحانه المكذبين وكيف كانت عاقبتهم؛ ليسلى عن رسوله ﷺ ما لاقاه من عناد وتكذيب، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] تخويف من الله لأهل مكة من المكذبين أن احذروا أن يصيبكم ما أصاب عاد وثمود لتكذيبهم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤-٧] والقرآن حافل بمثل هذه الآيات، وبيان عاقبة المكذبين وعقابهم من قوم عاد وثمود وأصحاب مدين وقوم لوط وفرعون وهامان وقارون ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨].

فالثواب والعقاب من الوسائل المهمة لبناء وتنمية الأخلاق الفاضلة، والتخلى عن الأخلاق الذميمة.

كما استخدم المصطفى ﷺ هذه الوسيلة فى كثير من مواقفه، ففى أحرج ساعة فى حياته ﷺ فى أُحُد عندما أحدق به المشركون قال: «من يدفعهم عنى وله الجنة..» وقال فى حديث آخر: «أنا زعيم بيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقًا».

وقال أيضًا: «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه»، وقال يرغب فى صلاة الفجر «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» وقال: «من صلى البردين دخل الجنة».

وعلى الجانب الآخر، قال ﷺ محذرًا: العقاب: «واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ» فهو تحذير لأولئك الغافلين أن أفيقوا.

وقال: «من لا يرحم لا يرحم» هكذا إذن، «اعمل ما شئت فكما تدين تدان»، وقال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم منهم رجل على فضل ماء بفلاة يمنعه ابن السبيل يقول الله له: اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل يداك».

وقال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى، قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقنى، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى»(١).

إنه ميزان العدل الذى أرساه تعالى، إنه الجزاء الذى وعد، والعقاب الذى توعد، ﴿مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨].

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة، وانظر صحيح الجامع الصغير، ١٩١٦.

البحث السادس

التمثيل القصصى القرآنى

ليس خفى على ذى عينين ما للقصص من دور فى تشكيل الأخلاق والسلوكيات عند الناس، فكثيراً ما يسمع المرء خطبة طويلة، ولا يخرج منها إلا بقصة، وصل له معناها وأفاد من معزاها كثيراً، «فالقصص تؤثر فى النفس تأثيراً كبيراً، لذلك فإن الله -سبحانه وتعالى- العالم بحقيقة النفس الإنسانية، يستخدم القصص القرآنى كوسيلة للعملية التربوية؛ لأنه تعالى يعلم الميل الفطرى إلى القصص فى الخلق البشرى، ويدرك بعظيم حكمته سحر القصص على القلوب»(١).

«وقد حفل القرآن فى أغلبه بالقصص، فيكاد لا تخلو سورة من قصة، وقد تورد القصة من جوانب مختلفة فى سورة واحدة. وقد تنوع القصص القرآنى وتباين كثيراً. فقد يعرض القرآن قصة تاريخية لنبى من الأنبياء مثل موسى -عليه السلام- وعيسى -عليه السلام- ولأمة من الأمم مثل بنى إسرائيل، وقد يعرض القرآن قصص المكذبين للرسل مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وقوم مدين، كما عرض لبعض الشخصيات المتغطرسة أمثال فرعون وقارون وبَيَّنَ عاقبتهم.

كما اهتم القرآن بعرض قصص بين شخصيتين إحداهما مؤمنة والأخرى كافرة كما حدث فى قصة صاحب الجنتين فى سورة الكهف، وكذلك قصة الصديقين فى سورة الصافات، وكثيراً ما يورد القرآن قصص لنماذج بشرية صابرة أو حكيمة، ونماذج أخرى متكبرة ومعاندة، ومن البين أنه ربما تتوافق هذه النماذج فى الواقع مع أناس يعيشون معنا، مما يكون له أكبر الأثر فى ترشيخ الأخلاق»(٢).

(١) الأخلاق الإسلامية، حسن الشرقاوى، صـ١٥١.

(٢) المصدر نفسه ١٥٢ وما بعدها، بتصرف.

وقد سلك القصص القرآنى مسلكًا آخر عن طريق ضرب الأمثلة التى تبين حجم المفارقات والعقوبات قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣] وقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢] وقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٥-٧٦] وقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢] وغيرها كثير، والقرآن قصص فى أغلبه، وهذا يؤكد مدى أهميته فى بناء وتوجيه السلوك، فعلى «المؤسسات الثقافية أن تهتم بالقصص الذى يحض على التمسك بأهداب الدين القيم والشريعة السمحاء، ولابد أن يكون بطل القصة شخصية حكيمة تدعو الإنسان إلى محاكاتها والتطبع بأخلاقها والتمسك بقيمها ومبادئها، كما أنه يجب أن تظهر الشخصية المنحرفة والجانحة عن الحق فى صورة باهتة تجعل القارى، أو السامع ينظر إليها ببغض واحتقار شديد»(١).

فعلى القائمين على التربية فى مدارسنا ومجتمعاتنا أن يعوا هذا الدرس جيدًا؛ لأنه يساعد على انتشار الأخلاق الحميدة وانحسار الأخلاق الذميمة.

كانت هذه أهم الوسائل والطرق فى بناء تنمية الأخلاق الفاضلة، وهو ميدان القول، ويبقى الجزء الأكبر والأهم وهو ميدان العمل.

وتجدر الإشارة إلى أنه ينبغى أن تتم هذه الوسائل بالتدريج والتوازى، فيتدرج المربى مع الطالب فى هذه الوسائل، ولا يتعجل الثمرة والنتيجة، فتغير السلوكيات والأخلاق ليس بالأمر الهين.

(١) الأخلاق الإسلامية، حسن الشرقاوى، ١٥٣، ١٥٤.

وإذا قلنا بالتدرج فهذا لا ينفى تطبيق تلك الوسائل على التوازى، فيجب أن تتضافر هذه الطرق لتنمية السلوك والأخلاق جميعًا، فليس لواحدة منها معفول السحر فى تغيير تلك الأخلاق، فقد تجدى وسيلة دون أخرى، وقد تثمر وسيلة مع طالب ولا تثمر مع غيره، فطبائع النفس مختلفة، وأهواء الإنسان كثيرة، لذلك يجب الأخذ بمنهج التدرج والأخذ بكل الطرق فى وقت واحد، فليس الطالب فأر تجارب، لنجرب طريقة، وإذا فشلت نلجأ إلى الأخرى.

كان هذا عرض سريع لأهم هذه الوسائل، وقد توخينا فيها التركيز وعدم الإطناب فاسلك سبيل الفضيلة ولا يهولنك قلة السالكين، وإياك وطريق الرذيلة ولا تغتر بكثرة الهالكين.

❀❀❀

الفصل الثالث:

اهتمام الإسلام بالأخلاق

إن الإسلام فى جوهره رسالة أخلاقية، بكل ما تحمله هذه الكلمة من عمق وشمول. ولا غرو أن تكون الأخلاق خصيصة من خصائصه العامة؛ ولذلك جعل الأخلاق مناط الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة، فيعاقب الناس بالهلاك فى الدنيا لفساد أخلاقهم: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣]. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، ويكافئ الأبرار والصالحين بالجنة، ويعاقب الفجار والأشرار بالنار يوم القيامة: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق.

وقد حث النبى ﷺ على حسن الخلق، فعن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال: «ما من شىء فى الميزان أثقل من حسن الخلق»، وعن عبد الله بن عمرو قال: لم يكن النبى ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: «خياركم أحسنكم أخلاقًا». وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه سمع النبى ﷺ يقول: «أخبركم بأحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة؟»، فسكت القوم فأعادها مرتين أو ثلاثًا. قال القوم: نعم يا رسول الله. قال: أحسنكم خلقًا»(١).

وقد كانت الأخلاق -وما زالت- طابع هذه الرسالة وشعارها، وفى ذلك يقول الرسول الكريم ﷺ: «بعثت لأتمم حُسن الأخلاق»(٢)، وقد أثنى القرآن الكريم على الرسول ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

---

(١) البخارى، الأدب المفرد ص٩٠، وراجع ابن مفلح، الآداب الشرعية، ٢/ ١٩٥.

(٢) الموطأ، ص٩٠٤، كتاب حسن الخلق رقم الحديث (٨)، وهناك أحاديث كثيرة تتعلق بحسن الخلق فى سنن الترمذى باب البر والصلة، وكذلك أماكن متفرقة من الأدب المفرد للبخارى، ومكارم الأخلاق لابن =

ولقد كان صحابة الرسول ﷺ يتمثلون الأخلاق الحميدة منذ الأيام الأولى لدخولهم تحت راية الإسلام، فلم تغب عن عقولهم سمات الإسلام الخلقية التى أودعها الله تعالى عقائد هذا الدين وشرائعه ومعاملاته، بل إنهم كانوا يدركون نعمة الله عليهم فيما تضمنه هذا الدين من مكارم الأخلاق، وأبرز مثال على ذلك: حديث جعفر بن أبى طالب -رضى الله عنه- حين قام يشرح للنجاشى ملك الحبشة خصائص هذا الدين، الذى من أجله حاربهم مشركو مكة حتى اضطروهم إلى ترك ديارهم وأوطانهم قال: «كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة»(١)... إلى آخر حديثه الذى وضّح فيه ما أحدثه الإسلام من تغيير فى حياتهم وأخلاقهم.

ولقد كان هذا الطابع الخلقى بارزًا كذلك فى وصايا الإسلام العامة بمكارم الأخلاق، ولذلك كان الناس حين تعرض عليهم هذه الوصايا لا يملكون أنفسهم من الاعتراف بسمو دعوته، وعلو درجته. ويتضح ذلك فيما قاله أكثم بن صيفى -حكيم من حكماء العرب فى الجاهلية- حين سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قال لقومه محرضًا على دخول الإسلام: «إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها، فكونوا فى هذا الأمر رءوسًا ولا تكونوا فيه أذنابًا»(٢).

= أبى الدنيا، ص١-١٥ والزهد لأحمد بن حنبل، ص٤٧٥، والزهد لعبد الله بن المبارك ص٢٤٩، ومحمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٦٤.

(١) ابن هشام، سيرة النبى ﷺ، ص٣٥٨- ٣٥٩.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٥٨٣، وراجع: دراسات فى علم الأخلاق، ص١٠٣- ١٠٤.

لذلك كان مقصود الرسالة المحمدية «تنمية الإحساس الأخلاقى فى بنى البشر، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم، حتى يسعوا إليها على بصيرة، ومن هنا كان التأكيد على الثمرة الأخلاقية لكثير من العبادات بحيث تفارق كونها طقوسًا وشعائر مبهمة، وتعمل على تحرير الطاقات الأخلاقية الكامنة فى الكينونة الإنسانية، فيترقى هذا الكائن فى مدارج الكمال الإنسانى، ويصبح وجوده ذا مغزًا عميقًا، تتجلى من خلاله القدرة الإلهية فى صياغة المجتمع الفاضل والحياة الكريمة لبنى الإنسان، ومن هنا نفهم قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، إلى غير ذلك من الآيات التى تؤكد المغزى الأخلاقى والروحى للعبادات والشعائر»(١).

والإسلام لم يحصر علمنا بالأخلاق على العقل أو المشيئة أو التجارب أو العلوم الإنسانية فقط، حتى تتغير أحكامنا الخلقية بتغير هذه الوسائل الأربع ولا يقر لها قرارًا أبدًا، بل الإسلام يمنحنا مرجعًا ثابت الأركان، يزودنا بالتعاليم الخلقية فى كل حال وزمان، ألا وذلك المرجع هو كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ، وهذه التعاليم ترشدنا إلى الطريق الأقوم، وتضىء لنا الخطة المستقيمة فى كل شأن من شئون الحياة من أتفه المسائل البيتية إلى المسائل السياسية الدولية العظيمة ومشاكلها الخطيرة. ونجد فيها انطباقًا متسعًا لأصول الأخلاق على شئون الحياة المختلفة، لا نحتاج بعده فى مرحلة من مراحل الحياة إلى وسيلة للعلم أخرى»(٢).

وإذا تأملنا آيات القرآن الكريم نجد نماذج عليا، ومُثلا رفيعة تمثل قيم الإسلام وأخلاقه، ومن هذه الآيات على سبيل المثال:

١- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي

(١) شعيب الأرنؤوط وآخر، مقدمة الآداب الشرعية لابن مفلح، ١/ ٩٠٨.

(٢) أبو الأعلى المودودى، نظام الحياة فى الإسلام ص١٦.

الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

٢- وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩- ٢٢].

٣- وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣- ٧٦][1].

(١) وهناك آيات كثيرة أخرى تحض على مكارم الأخلاق منها، الإسراء: ٢٢- ٣٩، والأنعام: ١٥١- ١٥٣، والنحل: ٩٠- ٩٧، والمعارج: ١٩- ٣٥- والأحزاب: ٣٥، والنساء ٣٦، والتوبة: ١١١- ١١٢.

هذه بعض النماذج القرآنية[1] التى تحث وتدفع المسلم إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة، والتخلى عن الأخلاق الذميمة، وهذا دليل قاطع على اهتمام الإسلام بالناحية الخلقية فى الشخصية الإسلامية، ويمكن أن نُرجع اهتمام الإسلام بالأخلاق إلى أن «الأخلاق أمر لابد منه لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحية المادية والمعنوية، وذلك حتى لا يمارى فيه من يتأمل المبادئ الأخلاقية ومدى ضرورتها للحياة الإنسانية، ولنتصور حياة مجتمع ماذا يحدث فيها لو أهملت المبادئ الأخلاقية، وسادت فيها الخيانة والفسق، والكذب، والغش، والسرقة، وسفك الدماء، والتعدى على الحرمات والحقوق، وزالت كل المعانى الإنسانية فى علاقات الناس من المحبة والمودة والنزاهة والتعاون والتراحم والإخلاص؛ فهل من الممكن أن تدوم الحياة الاجتماعية فى هذه الحالة؟!»[2].

وعلى هذا نجد أن الأخلاق تسرى فى كيان الإسلام كله، وفى تعاليمه كلها، فى العقائد، والعبادات، والمعاملات، وتدخل فى السياسة والاقتصاد، وفى جميع مناحى الحياة.

ونحاول فى الصفحات التالية أن نلقى الضوء على هذه الأركان.

❀❀❀

(١) يمكن الرجوع للتفصيل إلى: دستور الأخلاق فى القرآن الكريم، ص٧٧٥- ٧٧٨.

(٢) د. مقداد يالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م، ص١٠٢.

المبحث الأول

العقائد الإسلامية والأخلاق

العقائد الإسلامية أساسها التوحيد، وضده الشرك. وهنا نجد الإسلام يضفى على التوحيد صيغة خلقية، فيعده من باب «العدل»، وهو فضيلة خلقية، كما يعد الشرك من باب «الظلم»، وهو رذيلة خلقية: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؛ وذلك لأنه وضعٌ للعبادة فى غير موضعها، وتوجهٌ بها إلى من لا يستحقها.

بل عد القرآن الكفر بكل أنواعه ظلمًا، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

والإيمان حين يتكامل ويؤتى أكله، يتجسد فى فضائل أخلاقية فاضت بها آيات القرآن، وأحاديث الرسول ﷺ.

نقرأ فى القرآن مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢- ٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

والأحاديث النبوية كذلك تربط الفضائل الأخلاقية بالإيمان، وتجعلها من لوازمه وثمراته: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليحفظ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(١).

«الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»(٢).

«لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»(٣).

❀❀❀

(١) مسند أحمد، ٢/ ١٧٤ واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الضيف، حديث رقم (٧٤، ٧٥)، ١/ ٦٨.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، حديث رقم (٥٨)، ١/ ٦٣ واللفظ له، وسنن ابن ماجة، المقدمة باب الإيمان حديث رقم (٥٧)، ١/ ٢٢.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى، حديث رقم (١٠٠)، ١/ ٧٦ واللفظ له، وسنن الترمذى، كتاب الإيمان، باب ما جاء لا يزنى الزانى وهو مؤمن، حديث رقم (٢٦٢٥)، ٥/ ١٦.

المبحث الثانى

العبادات الإسلامية والأخلاق

العبادات الإسلامية الكبرى ذات أهداف أخلاقية واضحة، فالصلاة -وهى العادة اليومية فى حياة المسلم- لها وظيفة مرموقة فى تكوين الوازع الذاتى، وتربية الضمير الدينى، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. والصلاة كذلك مدد أخلاقى للمسلم، يستعين به فى مواجهة متاعب الحياة، قال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والصلاة لا تبلغ درجة القبول عند الله حتى تنهى صاحبها عن الرذائل الأخلاقية، «من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدًا»(١)، فالإبعاد عن الرذائل والتطهير من سوء العمل، هو حقيقة الصلاة»(٢).

والزكاة- وهى العبادة التى قرنها القرآن بالصلاة- ليست مجرد ضريبة مالية تؤخذ من الأغنياء لترد على الفقراء، إنها وسيلة تطهير وتزكية فى عالم الأخلاق، كما أنها وسيلة تحصيل وتنمية فى عالم الأموال، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فتنظيف النفس من أدران النقص، والتسامى بالمجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى من الزكاة، «والقرآن حين يربى المجتمع على هذا التجرد من حب المال برسم خطة محكمة تحاصر النفس من كل جوانبها، فإذا بها سخية

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤١٥.

(٢) الشيخ محمد الغزالى الشيخ، خلق المسلم، ص ٥.

لينة كريمة معطية، تدفع وتبذل بكل ما تستطيع فى السر والعلن، لا تخشى من ذى العرش إقلالا»[1].

والصيام فى الإسلام إنما يُقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها، والثورة على مألوفاتها.

وبعبارة أخرى: إنه يهيئ النفس للتقوى، وهى جماع الأخلاق الإسلامية[2]، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

«فالصوم يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة، وانقماع الهوى، فإنه يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهون لذات الدنيا ورياستها؛ وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج»[3].

«وليست التقوى هى ذلكم اللون الشاحب، أو الصوت الخافت، أو الرقبة المنحنية، ولا هى الهمهمة بكلمات تعرف بالتسبيح والتهليل... وإنما التقوى ذات عنصر سلبى يمنع من فعل الشر للنفس وللغير، ولهذه التقوى التى لا يعرف القرآن سواها فرض الله الصوم وجعله مددًا للإيمان، وبها كان الصوم عنصرًا قويًا من عناصر تكوين المجتمع فى نظر الإسلام ومنهجه»[4].

والحج فى الإسلام تدريب للمسلم على التطهير والتجرد والدفع عن زخارف الحياة وترفها، وأوصى الله قاصد الحج بأن يكف لسانه عن الفحش والجدال وسوء المقال، وأمر بالتقوى التى هى غاية الأخلاق، قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي

(١) د. عبد الفتاح عاشور، منهج القرآن فى تربية المجتمع، ص ٢٠٧.

(٢) د. يوسف القرضاوى، مدخل لمعرفة الإسلام، ص ٨٩.

(٣) فخر الدين الرازى، مفاتيح الغيب، ٣/ ٥٦.

(٤) الشيخ محمود شلتوت، منهج القرآن فى بناء المجتمع، إصدار وزارة الأوقاف، شوال ١٣٧٥هـ الرسالة الخامسة، ص ١٣٢.

الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

هذا العرض المجمل لبعض العبادات التى اشتهر بها الإسلام، وعُرفت على أنها أركانه الأصيلة، نستبين منه متانة الأواصر التى تربط الدين بالخلق. إنها عبادات متباينة فى جوهرها ومظهرها، ولكنها تلتقى فى غاية واحدة، فالصلاة والصيام والزكاة والحج هى مدارج الكمال المنشود، وروافد التطهر الذى يصون الحياة ويعلى شأنها[١]..

وهذه العبادات تقوم على «تحقيق معنى العبودية لله، بالإخلاص فى طاعته، والتوجه إليه وحده، والاستعانة به وحده، والتخلص من سلطان الحظوظ البشرية المظلمة»[٢].

❀❀❀

(١) خلق المسلم، ص ٧، بتصرف يسير.

(٢) الشيخ محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص ١٢٩.

المبحث الثالث

المعاملات الإسلامية والأخلاق

لم تكن المعاملات فى الإسلام بعيدة عن ملاحظة الجانب الأخلاقى؛ ولذلك كان من وصايا الرسول ﷺ ما ينص على السماحة فى البيع والشراء، واستيفاء الحقوق: «رحم الله رجلا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»[1]، وكان من وصاياه ﷺ: الوصية بمراقبة الله فى الشراكة؛ حتى تتنزل بركة الله على الشركاء، وكان من وصاياه النهى عن الغش وتطفيف الكيل والميزان لما يؤديان إليه من مظالم، ولما يدلان عليه من قلة الورع وقلة مراقبة الله عز وجل وعدم الحذر من عقابه؛ امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٥]، وكان من وصاياه فى الزواج: الحرص على ذات الدين، معللا ذلك بما يتحقق للزوجة الصالحة من كريم الأخلاق مع زوجها: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[2]، ثم كان من عناية الإسلام بالأخلاق أنه دعا إلى أن يتواصى الناس بالحق، وإلى أن يكون من بينهم ﴿أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وجعل ذلك من خصائص الأمة المستخلفة من الله، البالغة فى مرضاة الله أرفع المقامات ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم تأتى الحدود لتمثل عنصر الردع للذين يخرجون عن عقائد الدين، وقيمه وشرائعه، ولتكون سياجًا يحمى أهل الحق من أهل الباطل، ولتحفظ على الناس دينهم وأخلاقهم وأعراضهم وأموالهم.

(١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى، حديث رقم (٢٠٧٦)، ٤/ ٣٥٩.
(٢) فتح البارى، ٩/ ٣٥ حديث رقم (٥٠٩٠).

وهكذا تتغلغل الأخلاق فى بناء الإسلام كله؛ ولذلك كان طبيعيًا أن ترتبط درجة الأخلاق بدرجة الإيمان، فكلما تأصل الإيمان فى القلب ورسخ فيه تأصلت الأخلاق ورسخت[1].

ولذلك كان طبيعيًا -أيضًا- أن ينفى الله الإيمان بالدين عن من يقعون فى بعض الرذائل؛ لأن مقتضى الدين البعد عنها، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١- ٣].

وكذلك فعل الرسول ﷺ حين قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[2].

وعلى هذا نستطيع أن نقول: إن «الإسلام ليس عقيدة قلبية فحسب، ولكنه نظام يتضمن جميع قوانين المجتمع، إنه عقيدة وعبادة وأخلاق، كما أنه تشريع ونظام للمجتمع، ومبادئ عن الاتجاه العام للدولة، بحيث تكون فى إطار الوحى. أمة تسلم نفسها لله سبحانه، محكمة كتابه، وسنة نبيه»[3].

والأخلاق فى الإسلام ترتبط بالمجتمع ارتباطًا وثيقًا، وتمثل القاسم المشترك لكل روافده من سياسة واقتصاد وأدب وعلم وتربية، وقد جمع الإسلام بين السلوك والخلق فى مختلف المجالات، وبين الدنيا والآخرة، ومقياسها هو التقوى بمعنى الاتقاء، والترك للانحراف فى الاعتقاد والسلوك، والعمل بمعنى الحركة والإضافة»[4].

❀❀❀

(١) دراسات فى علم الأخلاق، ص ١٠٦.

(٢) مسند أحمد، ٣/ ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١.

(٣) د. عبد الحليم محمود، الإسلام والعقل، ص ١٣٨.

(٤) أنور الجندى، قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام، ص ١١٤، ١١٥.

المبحث الرابع

الأخلاق والاقتصاد

الأخلاق الإسلامية لهـا مجالها وعملها فى شئـون المال والاقتصاد، سواء فى ميدان الإنتاج، أو التداول، أو التوزيع، أو الاستهلاك.

* فليس للاقتـصاد أن ينطلق -كمـا يشاء- بلا حدود ولا قيـود، دون ارتباط بقيم، ولا تقيـد بمثل عليا، كما هى دعوة بعض الاقتـصاديين للفصل بين الاقتـصاد والأخـلاق. وليس للمـسلم أن ينتج ما يشـاء، ولو كـان ضارًا بالناس ماديًا ومـعنويًا، وإن كان يستطيع أن يحـصِّل من وراء هذا الإنتاج أعظم الأرباح، وأكبـر المنافع. وكما ورد فى الحـديث الشريف: «لا ضرر ولا ضرار»[1].

* وليس للمسلم -فى ميدان التداول- أن يتخذ بيع الخمر أو الخنزير أو الميتة أو الأصنام تجارة، أو يبيع شيئًا لمن يعلم أنه يستعمله فى شر أو فساد أو إضرار بالآخرين. كـالذى يبيع عصيـر العنب أو العنب نفسه لمن يعلم أنه يتـخذه خمـرًا أو يبيع السلاح لمن يعلم أنه يقـتل به بريئًا أو يستخـدمه فى ظلم أو عدوان. وفى الحديث: «إن الله عز وجل إذا حرم أكل شيء حرم ثمنه»[2].

وليس للمسلم أن يحتكر الطعام ونحوه مما يحـتاج إليه الناس؛ رغبة فى أن يبيعه بأضعاف ثمنه. وفى الحديث الصحيح: «لا يحتكر إلا خاطئ»[3]، أى آثم، كـما قال تعـالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨].

---

(١) الموطأ، كتاب الأقضية، ص ٧٤٥.

(٢) مسند أحمد، ١/ ٢٩٣.

(٣) صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار فى الأقوات، ٢/ ١٢٢٨، حديث رقم (١٣٠).

وليس للتاجر المسلم أن يخفى مساوئ سلعته وعيوبها، ويبرز محاسنها، على طريقة الدعاية الإعلامية المعاصرة، وهذا غش وخداع يبرئ منه الإسلام ورسوله: «ليس منا من غش»(١).

* وفى مجال التوزيع والتملك، لا يجوز للمسلم أن يتملك ثروة من طريق خبيث، ولا يحل له أن يأخذ ما ليس له بحق لا بالعدوان ولا بالحيلة. وكما لا يحل للمسلم الملك بطريق خبيث، لا يحل له تنمية ملكه بطريق خبيث كذلك.

لهذا حرم الله الربا والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، والظلم بكل صوره، والضرر والضرار بكل ألوانه، قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦١].

* وفى مجال الاستهلاك، لم يدع الإسلام للإنسان حبله على غاربه، ينفق كيف يشاء، ولو أذى نفسه أو أسرته أو أمته، بل قيده بالاعتدال والتوسط، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وحمل على الترف والمترفين، وحرم كل ما هو من مظاهر الترف، مثل: أوانى الذهب والفضة، فحرمها على الرجال والنساء جميعًا، كما حرم على الرجال لبس الذهب والحرير.

وبهذا تميز الاقتصاد الإسلامى بهذه الخصيصة العظيمة من خصائصه، أنه اقتصاد أخلاقى(٢).

---

(١) سنن أبى داود، رقم الحديث (٣٤٥٢)، ٣/ ٢٧٠.

(٢) د. يوسف القرضاوى، مدخل لمعرفة الإسلام، ص ٩٠- ٩٢، بتصرف.

المبحث الخامس

الأخلاق والسياسة

لقد ربط الإسلام السياسة بالأخلاق، فليست السياسة الإسلامية «ميكيافللية» ترى أن الغاية تبرر الوسيلة أيًا كانت صفتها، بل هى سياسة مبادئ وقيم، تلتزم بها، ولا تتخلى عنها، ولو فى أحلك الظروف وأحرج الساعات، سواء فى علاقة الدولة المسلمة بمواطنيها داخليًا، أو فى علاقاتها الخارجية بغيرها من الدول والجماعات.

إن الإسلام يرفض كل الرفض الوسيلة الخبيثة، ولو كانت للوصول إلى غاية شريفة: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»(١)، فالخبيث من الوسائل كالخبيث من الغايات، ولابد من الوسيلة النظيفة للغاية الشريفة.

* ففى علاقة الدولة بمواطنيها، يقول الله تعالى مخاطبًا أولى الأمر من المسلمين: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ [النساء: ٥٨]، فأداء الأمانات بمختلف أنواعها المادية والأدبية -إلى مستحقيها، والحكم بين الناس- كل الناس- بالعدل هو واجب الدولة المسلمة مع رعاياها.

ولا يجوز للحاكم المسلم أن يحابى أحد أقاربه أو حاشيته، فيوليه ما لا يستحق، ويحرم من يستحق، والرسول ﷺ يجعل هذا إيذانًا باقتراب ساعة هلاك الأمة، فقد سأل رجل يومًا عن الساعة فقال ﷺ: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»(٢).

---

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٠١٥)، ٢/ ٧٠٣، ومسند أحمد ٢/ ٣٢٨.

(٢) فتح البارى، ١/ ١٧١.

كما لا يجوز إسقاط عقوبة مقررة عمن يستحقها لنسبه أو جاهه أو قربه من ذوى السلطان، وفى هذا جاء الحديث: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يديها»(١).

إن السياسة الإسلامية فى الداخل يجب أن تقوم على أساس العدل والإنصاف والمساواة بين الجميع فى الحقوق والواجبات والعقوبات.

* وفى علاقة الدولة بغيرها من الدول يجب عليها الوفاء بعهودها، وجميع التزاماتها، واحترام كلماتها.

يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩١- ٩٣].

ففى هذه الآيات يأمر الله تعالى باحترام العهود والمواثيق، ويضيفها إليه تعالى «عهد الله»، ويحذر من نكث العهود بعد إبرامها، «ويدخل فى مدلول النص أن يكون نقض العهد تحقيقًا لما يسمى الآن «مصلحة الدولة»، فتعقد دولة معاهدة مع دولة أو مجموعة دول، ثم تنقضها بسبب أن هناك دولة أربى أو مجموعة دول أربى فى الصف الآخر، تحقيقًا لمصلحة الدولة! فالإسلام لا يقر مثل هذا المبرر، ويجزم بالوفاء بالعهد، وعدم اتخاذ الأيمان ذريعة للغش والدخل. ذلك فى مقابل أنه لا يقر تعاهدًا ولا تعاونًا على غير البر والتقوى،

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٦٨٨)، ٣/ ١٣١٥، واللفظ له، وسنن ابن ماجة حديث رقم (٢٥٤٦)، ٢/ ٨٥١.

ولا يسمح بقيام تعاهد أو تعاون على الإثم والفسوق والعصيان وأكل حقوق الناس، واستغلال الدول والشعوب»[1].

وقد كان النبي ﷺ مثالا يُحتذى في احترام الاتفاقات، ورعاية العهود، وإن رأى أصحابه فيها أحيانًا ما يعتقدونه إجحافًا بالمسلمين، كما في صلح الحديبية.

وإذا كان بعض الناس يعتقد أن السياسة لا أخلاق لها، فهذا أبعد ما يكون عن سياسة الإسلام، التي تقوم -أول ما تقوم- على العدل والوفاء والصدق والشرف ومكارم الأخلاق[2].

وعلى هذا يمكن القول بأن «القيم الخلقية التي جاء بها الإسلام قادرة - عند التمسك بها- على حل جميع المشكلات التي تعاني منها الأمة الإسلامية، اجتماعيًا، وسياسيًا، واقتصاديًا، والتاريخ شاهد على صدق هذه المقولة في الماضي، وعلى مصداقيتها في الحاضر والمستقبل»[3].

❀❀❀

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٤/ ٢١٩١- ٢١٩٢.

(٢) مدخل لمعرفة الإسلام، مرجع سابق، ص ٩٣- ٩٦ بتصرف.

(٣) د. علي عبد الحليم محمود، التربية الخلقية، ص ٢٦٨.

الفصل الرابع:

خصائص الأخلاق الإسلامية

تتميز الأخلاق فى الإسلام بخصائص انفردت بها عن اليهودية أو المسيحية أو كليهما، وهى الخصائص التى جعلتها صالحة لكل الأفراد، وكل الطبقات، وكل الأجناس، وكل البيئات، وكل زمان ومكان.

المبحث الأول

ربانية المصدر

أى أن مصدرها من الله، وهذا يعنى أنها ملائمة تمامًا للإنسان؛ لأنها من وضع حكيم عليم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وإرجاع هذه الأخلاق إلى الله ليس إسنادًا لها إلى قوة غاشمة أو سلطة متجبرة[١]، بل إن ذلك يعنى إرجاعها إلى مصدر العلم الشامل، والحكمة التامة، والرحمة العامة، والخير المطلق، والحق الكامل، فالله تعالى: ﴿لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

فالله عز وجل هو الذى وضع أصول هذه الأخلاق، وحدَّ أساسياتها، التى لابد منها لبيان معالم الشخصية الإسلامية؛ حتى تبدو متكاملة متماسكة متميزة فى مخبرها ومظهرها، عالمة بوجهتها وطريقها، إذا التبست على غيرها المسالك، واختلطت الدروب[٢].

وعلى ذلك ينظر الإنسان إلى هذه الأوامر الأخلاقية التى أمر بها الله،

(١) دراز، دستور الأخلاق فى القرآن، ص ٥٢.

(٢) د. يوسف القرضاوى، الخصائص العامة للإسلام، ص ٣٩.

فيعظمها وينفذها؛ طلبًا لرضا الله سبحانه وتعالى، فإذا أمر القرآن بالصدق أو الصبر، أو العدل أو الرحمة أو غيرها، فإن أول ما يدفع المسلم فى التزامه بهذه الأوامر اعتقاده أنها تشريع إلهى يحقق له السعادة فى الدنيا والآخرة، ويتقبلها عن رضا وطيب نفس؛ وذلك لأن هذه الأوامر تمثل الرفق بنا وتهدف إلى تحقيق الخير لنا.

«ومجمل القول إن العقيدة كأساس من أسس الأخلاق تلعب أكبر دور فى الحياة الأخلاقية من حيث إنها أكبر دافع يدفع الإنسان إلى الأعمال الإيجابية الخيرة، وأقوى رادع يكفه عن اتباع الهوى والشهوات، ومن حيث إنها المصدر الرئيس للإحساس بقدسية القوانين الأخلاقية، وهذا بدوره هو المنبع الوحيد الذى يستقى منه الضمير الأدبى حياته الوجدانية»[1].

❀❀❀

(١) الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام، ص ١٢٣.

البحث الثانى

واقعية ممكنة التطبيق

من خصائص الأخلاق الإسلامية أنها أخلاق واقعية، لا تصدر أوامرها ونواهيها لأناس يعيشون فى أبراج عاجية، أو يحلقون فى أجواء المثالية المجنحة، إنما تخاطب بشرًا يمشون على الأرض، لهم دوافع وشهوات، ولهم مطامع وآمال، ولهم مصالح وحاجات، ولهم من دوافع الجسد ما ينزع بهم إلى الأرض، كما لهم من أشواق الروح ما يرتفع بهم إلى السماء.

* إن القرآن حين يعرض مبادئه المتمثلة فى الدعوة إلى الحق والفضيلة والخير والمعروف لا يكتفى بالعرض النظرى المجرد، ولا يتوقف عند حد التذكير بهذه المبادئ، بل إنه يضيف إليها ما يدل على إمكان وقوعها فى دنيا الواقع، ولعل ذلك كان هدفًا من أهداف القصص القرآنى الذى حفل بالنماذج الخلقية الرفيعة، وخاصة ما يتعلق منه بقصص الأنبياء ممن سارعوا إلى الإيمان بهم من أتباعهم؛ حيث كان هؤلاء يقدمون مُثلا رفيعة للصلابة فى الحق، والصبر على الشدائد، والثقة بوعد الله، كما كانوا نماذج للطاعة والوفاء والرضا بالقضاء والشكر على أنعم الله[1]، وكذلك كان يتضمن القصص القرآنى التحذير من بعض المنكرات والرذائل الأخلاقية على نحو يدفع إلى البعد عنها والتحرز منها[2].

---

(١) يكفى أن نشير هنا إلى قصة إبراهيم وذبحه لابنه، وقصة يوسف وصبره على ما ابتلى به، حتى أفاء الله عليه، وشكر سليمان لنعمة الله، وصبر داود على ما ابتلاه الله، وإيمان سحرة فرعون برب موسى، وإصرارهم على الحق برغم تهديد فرعون لهم.

(٢) من هذه القصص قصة صاحب الجنتين التى رويت فى سورة الكهف، وقصة أصحاب الجنة التى ذكرت فى سورة القلم، وقصة الذى عاهد الله على التصدق والصلاح ثم خان عهده مع الله، وهى مذكورة فى سورة التوبة. دراسات فى علم الأخلاق، ص ١٠٧.

* ومن واقعية الأخلاق الإسلامية أنها لم تفترض فى المؤمنين المتقين أن يكونوا ملائكة أولى أجنحة، لا تسول لهم أنفسهم سوءًا يومًا، ولا يتورطون فى أوحال الرذيلة أبدًا، كلا إن الإنسان خُلق على طبيعة مزدوجة، جمعت بين طين وحمإٍ مسنون، وبين نفخه من روح الله. فليس بمستنكر أن يذنب، ثم يتوب، إنما المنكر أن يتمادى فى الذنوب، ويستمرئ الرذيلة والعصيان. لقد أذنب آدم -أبو البشر- وتاب، فتاب الله عليه، فلا غرابة أن يكون بنوه مثله؛ لهذا جعل القرآن من أصناف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

كما فرق القرآن بين كبائر الإثم وفواحشه، وبين صغائر السيئات ولمم الذنوب التى قلما يسلم منها أحد، فهى فى دائرة المسامحة والغفران ما اجتنبت الموبقات: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

* ومن واقعية الأخلاق الإسلامية أنها أقرت التفاوت الفطرى والعملى بين الناس؛ فليس كل الناس فى درجة واحدة من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله به من أوامر، والانتهاء عما نهى عنه من نواهٍ، والتقيد بالمثل العليا؛ فهناك مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان، وهى أعلاهن، كما أشار إلى ذلك حديث جبريل المشهور، ولكل مرتبة أهلها.

وهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، كما أرشد إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فالآية الكريمة تجعل هؤلاء الأصناف الثلاثة -على تفاوت مراتبهم- من الأمة التى اصطفاها الله من عباده وأورثها الكتاب.

* ومن واقعية الأخلاق الإسلامية أنها راعت الظروف الاستثنائية كالحرب، فأباحت من أجلها ما لا يباح فى ظروف السلم؛ كهدم المبانى أو تحريق الأشجار ونحوها، ومثل ذلك الكذب لتضليل العدو عن حقيقة أوضاع الجيش الإسلامى وعدده وعتاده وخططه[1].

❀❀❀

(١) الخصائص العامة للإسلام، ص ١٥١- ١٥٢.

المبحث الثالث

تتسم بالشمول والعموم

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية أنها أخلاق شاملة مستوعبة، ليست كأخلاق الجاهلية التى كانت تقوم على العصبية، بل إن الإسلام عدل عن هذه النظرية الضيقة، فلم يجعل نصرة المسلم مقصورة على قبيلته، بل جعل النصرة للمسلمين جميعًا؛ لأنهم جميعًا أخوة فى الدين الذى أظلهم الله بلوائه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، بل وتضم الإنسانية كلها فى إطار واحد، وتدعو المسلمين أن يتصفوا بالعدل حتى مع أعدائهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، وتدعوهم إلى عدم خداع الأعداء حتى فى أشد لحظات الحرج، قال تعالى: ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال تعالى ناصحًا رسوله وأمته من بعده: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

* والأخلاق فى الإسلام لم تدع جانبًا من جوانب الحياة الإنسانية؛ روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع. فما فرقه الناس فى مجال الأخلاق باسم الدين وباسم الفلسفة، وباسم العرف أو المجتمع، قد ضمه القانون الأخلاقى فى الإسلام فى تناسق وتكامل وزاد عليه، بل تخطى علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته ببنى جنسه، فشمل علاقته بالكون فى جملته وتفصيله، ووضع لذلك كله ما شاء الله من الآداب الراقية، والتعاليم السامية.

أ- فمن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالفرد فى كافة نواحيه:

جسمًا له ضروراته وحاجاته. بمثل قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وقول الرسول ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًا»(١).

وعقلاً له مواهبه وآفاقه، يقول القرآن: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: ٤٦].

ونفسًا لها مشاعرها ودوافعها وأشواقها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

ب- ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالأسرة:

كالعلاقة بين الزوجين: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وكالعلاقة بين الأبوين والأولاد: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

وكالعلاقة بين الأقارب والأرحام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

جـ- ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالمجتمع:

فى آدابه ومجالاته، مثل: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

(١) سنن الترمذى، كتاب الزهد، باب ٦٣، ٤/ ٥٢٦، حديث رقم (٢٤١٣).

وفى اقتصاده ومعاملاته: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وفى سياسته وحكمه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

د- ومن أخلاق الإسلام، ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير:

كما فى الحديث: «فى كل كبد رطبة أجر»[١]، وفى الحديث الآخر: «عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت جوعًا، فدخلت فيها النار»[٢].

هـ- ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالكون الكبير:

من حيث إنه مجال التأمل والاعتبار والنظر والتفكير والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان، على وجود مبدعه وقدرته، وعلى علمه وحكمته، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقبل ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم سبحانه وتعالى، الذى لا يعبد غيره ولا يستعان سواه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وبهذا يتجلى شمول الأخلاق الإسلامية، من حيث موضوعها ومحتواها[٣].

❀❀❀

(١) فتح البارى، ٥/ ٥٠، حديث رقم (٢٣٦٣).

(٢) فتح البارى، ٥/ ٥٠، حديث رقم (٢٣٦٥).

(٣) الخصائص العامة للإسلام، ص ١٠٦- ١٠٨ بتصرف يسير، وراجع: مدخل لمعرفة الإسلام، ص ١٠٥- ١٠٧.

المبحث الرابع

الاهتمام بالنية

من خصائص الأخلاق الإسلامية الاهتمام بالنية، ففى إمكان النية تحويل العمل من فضيلة إلى رذيلة، ومن عادة إلى عبادة، لقول النبى ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى...**»(١). بل إن الإسلام جعل للنية الجانب الأكبر فى تقويم العمل الأخلاقى: «**نية المرء خير من عمله**»(٢)؛ ولذلك يتقبل الله من الإنسان عمله ما دام قد أخلص النية فيه حتى ولو لم يتحقق له فى الظاهر ما كان يسعى إلى تحقيقه فعلا. ولذلك تقبل الله صدقة أحد أصحاب الصدقات مع أن صدقته وقعت مرة فى يد زانية، ووقعت ثانية فى يد غنى، ووقعت ثالثة فى يد سارق، ولكن الله تقبل صدقته، وقيل للرجل: «**أما صدقتك فقد قبلت، أما الزانية فلعلها تستعف بها عن زناها، ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته**»(٣). أما إذا فسدت النية ولم تخلص ضل العمل ولم يُقبل، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. ويوم القيامة ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

* والإسلام لم يهتم بالنية وحدها، مع اعترافه بأهميتها؛ ذلك أنه أراد أن يحقق المؤمن نيته الطيبة فى عمل صالح، لذلك قال بعض السلف: «صلاح الأعمال وفسادها بصلاح النيات وفسادها»(٤)، وقال محمد بن الحسين: «ينبغى للرجل أن تكون نيته بين يدى عمله»(٥).

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى، انظر: فتح البارى، ١/ ١٥، حديث رقم (١).
(٢) أبو طالب المكى، قوت القلوب، ٢/ ٣١٠.
(٣) صحيح مسلم، ٢/ ٧٠٩، حديث رقم (١٠٢٢).
(٤) أبو طالب المكى، قوت القلوب، ٢/ ٣١٢.
(٥) المصدر السابق، ٢/ ٣١٠.

ومن هنا جعل الإسلام العمل الصالح قرينًا للإيمان، وكذلك قال الرسول ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد»(١).

وهذا «أفضل برهان على أن المسلك الحسن لا ينحصر فى حسن النية وحده، ولا فى دقة العمل وحدها، بل فى مجموع من الشكل والمادة، بحيث لا يمكن أن يستغنى أحدهما عن الآخر»(٢).

ولعل تركيز القرآن على إبراز خطورة مرض النفاق يؤكد أهمية النية، دون أن يغض من شأن العمل؛ إذ ليس الإيمان بالتمنى، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل. وفى اعتراف الإسلام بقيمة النية اعتراف بجوهر العمل الأخلاقى: «فالحق أن النية هى العنصر الجوهرى فى الأخلاقية بأسرها»(٣).

وابتعد الإسلام بذلك عما يوجه إلى مذاهب الأخلاق التى تهتم بالنتائج وحدها؛ كمذاهب اللذة والسعادة والمنفعة من نقد؛ لأنها بإغفالها للنية تكون عاجزة عن إصدار أى تقييم خلقى حقيقى، كما أنها تجعل اهتمامها مركزًا على الوسائل وحدها دون الغايات، وتهبط بما ينبغى أن يكون للأخلاق من قداسة وسمو، ثم راعى الإسلام -إلى جانب اهتمامه بالنية- ما يترتب على النية من آثار؛ لأن النتائج لها دور فى تكييف العمل الخلقى، لا ينبغى إغفاله.

«والحق أنه ليس فى وسع الإنسان أن يقنع بإرادة العمل فى سلبية وتراخٍ وتقاعسٍ تام، وإنما لابد له من أن يأخذ على عاتقه مسئولية تحقيق ذلك العمل.. وتبعًا لذلك، فإن هناك علاقة وثيقة بين الميل أو النية أو القصد من جهة، وبين نتائج الفعل من جهة أخرى»(٤).

---

(١) فتح البارى ١٣/ ٣٢٩.

(٢) دستور الأخلاق فى القرآن، ص ٤٤٣.

(٣) د. زكريا إبراهيم، المشكلة الخلقية، ص ١٨٦.

(٤) دراسات فى علم الأخلاق، ص ١١١.

المبحث الخامس

الجمع بين الإلزام كضابط والالتزام كحرية

فالأخلاق الإسلامية تتفق مع ما أعطى الله للإنسان من إرادة وعقل يختار به ما يميزه عن سائر الحيوانات والجمادات، وإذا كانت المبادئ الخلقية من عند الله وهى ثابتة، فإنها هى ذاتها التى راعت هذا الجانب الإرادى فى بعض سلوك الإنسان الذى يظهر فيه، وقضية الحرية والجبر شغلت الفكر الإسلامى طويلا، لكن النظر إلى ما يختص بالسلوك الإرادى للإنسان يُظهر وجود اعتراف صريح فى القرآن بضرورة هذه الخصيصة، ولنقرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢- ٣]. وإذا كانت هذه الآيات تقرر أن جزاء الله سبحانه مبنى على اختيار الإنسان، فإنك تلمح هذه الخصيصة بوضوح فى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. على أن هذه الحرية لا تنافى الالتزام، بل هى عينه؛ لأن المسلم ما دام قد آمن بوجود إله مشرع، ورأى حكمة الله فيما يأمر به من أخلاق، انطلاقًا من لطف الله بعباده، أقول ما دام الأمر هكذا، فإن الاختيار المرشَّد هنا إنما هو التزام وحرص من المسلم أن يوافق اختياره أوامر الله ونواهيه(١).

ويمكن أن نتمثل هنا بصنيع الإسلام إزاء العبادات، فالله تعالى قد فرض منها ما يجب على كل مسلم أداؤه بحيث يكون مقصرًا إذا لم ينفذه، ثم فتح باب التطوع واسعًا ليتزود كل مسلم من طاعة الله بما يتيسر له، وينطبق ذلك

(١) الأخلاق بين العقل والنقل، ص ٢٠٢- ٢٠٣.

على الأخلاق -أيضًا- فالمؤمن مطالب بأن يجتنب الحرام، فإذا ما توثقت عرى الإيمان فى قلبه لم يكتف بأن يبتعد عن الحرام، بل إنه يتورع عن بعض الحلال خشية أن يقع فى الحرام، وهكذا[1].

وبهذه الخاصية يفترق الإسلام عن تلك المذاهب الأخلاقية التى قامت على أساس التحرر من فكرة الإلزام، وهو ما يقول به بعض الفلاسفة المحدثين من أمثال «نيتشه» فى ألمانيا، و«جيو» فى فرنسا، وما يقول به أتباع الفلسفة الوجودية التى تجعل الإنسان الفرد هو صانع القيم، ثم هو يبرأ من تلك الصورية القاسية التى تقع فيها بعض المذاهب الأخلاقية، مثل: مذهب «كانت»، الذى يذهب إلى ضرورة تطبيق الواجب الأخلاقى على نحو قاس صارم، لا يتيح لمن ينفذه أى قدر من الحرية أو التصرف فى تطبيقه[2].

❁❁❁

(١) دراسات فى علم الأخلاق، ص ١١١.

(٢) السابق نفسه، ص ١١١- ١١٢ بتصرف يسير، وراجع: هويدى، مقدمة فى الفلسفة العامة، ص ٢١٤.

المطلب السادس

تتسم بالإيجابية

ومن خصائص الأخلاق فى الإسلام، أنها أخلاق إيجابية؛ فهى لا ترضى من المتحلى بها مسايرة الركب، أو المشى مع التيار، أو العجز والاستسلام للأحداث، توجه قياده كالريشة فى مهب الريح، إنما تحث على القوة والكفاح، ومواصلة السعى فى ثقة وأمل، وتقاوم العجز واليأس والكسل، وكل أسباب الضعف.

وفى القرآن الكريم: ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، وفى الحديث: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»(١).

ويوصى الرسول ﷺ بالعمل لعمارة الحياة حتى آخر لحظة فى عمر الدنيا، ولو لم ينتفع بثمرة العمل أحد، ولكن احترامًا لقيمة العمل فى ذاته: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل»(٢).

ويرفض الإسلام الاتكالية المنهزمة، التى نراها فى قول أصحاب موسى له: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن يريد الإيجابية الفعالة التى تتمثل فى قول أصحاب محمد ﷺ: «اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون»(٣).

---

(١) صحيح مسلم، ٤/ ٢٠٥٢، حديث رقم (٢٦٦٤)، وسنن ابن ماجة، ١/ ٣١، حديث رقم (٧٩).

(٢) مسند أحمد، ٣/ ١٩١.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٩.

ولم يكتف الإسلام من المسلم أن يكون مستقيمًا فى نفسه، حتى يعمل على استقامة غيره، بل فرض على كل مسلم -بقدر كفايته واستطاعته- الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

«وهذا ما ينبغى أن تدركه الأمة المسلمة، لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هى خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر فى هذه الأرض، وأن يكون لديها دائمًا ما تعطيه... هذا واجبها الذى يحتم عليها مكانها، وتحتمه عليه غاية وجودها، وفى أول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد، وأن تكون لها القوة التى تمكنها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهى خير أمة أخرجت للناس، لا عن مجاملة أو محاباة، ولا عن مصادفة أو جزاف -تعالى عن ذلك كله علوًا كبيرًا- وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: «نحن أبناء الله وأحباؤه»، كلا! إنما هو العمل الإيجابى لحفظ الحياة البشرية من المنكر، وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذى يحدد المعروف والمنكر»[1].

وبهذا رفض الإسلام السلبية أمام الفساد الاجتماعى والسياسى، والتحلل الخلقى والدينى، وطلب إلى المسلم أن يغير المنكر امتثالا لقول النبى ﷺ: **«من رأى منكم منكرًا، فإن استطاع أن يغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**[2].

❀❀❀

(١) سيد قطب، فى ظلال القرآن، ١/ ٤٤٧.

(٢) مسند أحمد، ٣/ ٥٢- ٥٣.

البحث السابع

تتسم بالتوزان

من خصائص الأخلاق الإسلامية، التوازن الذى يجمع بين الشىء ومقابله فى اتساق وتناسق، بلا علوٍ ولا تفريطٍ.

من ذلك: التوازن بين حق الجسم وحق الروح، فلا حرمان للجسم يصل إلى حد التعذيب، كما فى البرهمية الهندية، والمانوية الفارسية، والرواقية اليونانية، والرهبانية المسيحية ونحوها، ولا إغفال لأمر الروح، كما فى اليهودية إلى حد كبير، ثم فى المذاهب المادية التى لم تعترف للروح بوجود، فضلا عن أن يكون لها حق. ولهذا قال الرسول لبعض أصحابه الذين عزم أحدهم أن يقوم الليل فلا ينام أبدًا، وعزم الثانى أن يصوم النهار فلا يفطر أبدًا، وعزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبدًا: «أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[1]. وقد تناولنا ذلك سابقًا.

ومن ذلك: التوازن بين الدنيا والآخرة، فإذا كانت اليهودية تجعل أكبر همها هذا العالم الأرضى الحاضر، والمسيحية تحصر توجيهها فى ملكوت السماء حيث العالم الآخر، فالإسلام يزاوج بين النظرتين، ويمزج بين الحياتين، فهذه مزرعة لتلك، والله قد استخلف الناس فى الأرض، واستعمرهم فيها، فلا ينبغى أن يخربوها أو يعطلوها، والسعيد من فاز بحسنة الدنيا وحسنة الآخرة: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

(١) فتح البارى، ٩/ ٦.

ومن ذلك: التوازن بين الحقوق والواجبات، فلا تدليل للفرد بكثرة الحقوق وإطلاق العنان له باسم الحرية، فيسترخى ويطغى، وينحرف ويفسد، ولا إرهاق له بكثرة الواجبات والأعباء، وإن ناء بها ظهره، وخارت قواه، لا باسم المجتمع، ولا باسم غيره.

ومن ذلك: التوازن بين الواقعية والمثالية، فمع الاعتراف بالواقع الذى يعيشه أكثر الناس، يدع المجال مفتوحًا -مع الترغيب والتشويق- لأصحاب السبق والهمم، للسمو والارتفاع والمسارعة فى الخيرات، فإن درجات الناس تختلف ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١].

إن الناظر إلى توازن الأخلاق الإسلامية، وتناسقها المعجز، يأخذه العجب كيف اجتمعت فيها الفضائل المتقابلة، التى يحسب الكثيرون أن التقاءها ضرب من المحال. ولهذا يتعذر على الباحث أن ينسبها إلى لون أو مذهب من الألوان أو المذاهب الأخلاقية، التى عرفها الناس قديمًا وحديثًا: أهى أخلاق قوة، أم أخلاق محبة؟ أهى أخلاق زهد، أم أخلاق حياة؟ أهى أخلاق روحية، أم أخلاق مادية؟ أهى أخلاق ربانية، أم أخلاق إنسانية؟ أهى أخلاق عقلية، أم أخلاق دينية؟ أهى أخلاق مثالية، أم واقعية؟ أهى أخلاق فردية، أم اجتماعية؟!

والحق أنها ليست واحدة من هؤلاء، ولكن كل أولئك جميعًا؛ لأن فيها قدرًا من كل نوع من هذه الأنواع، هو خير ما فيها، مع تنزهها عن مساوئه وتطرفاته. فالحق الذى لا ريب فيه أنها أخلاق متكاملة متوازنة؛ لأنها أخلاق إسلامية[1].

هذه أهم خصائص الأخلاق الإسلامية. قد تتفق فيها أو فى بعضها المذاهب الأخلاقية الأخرى فيكون ذلك شهادة بسمو تلك المذاهب، وقد

(١) مدخل لمعرفة الإسلام، ص ١٠٧- ١٠٩.

تختلف تلك المذاهب معها فيكون برهانًا على قصورها؛ لأنها من وضع البشر. أما الأخلاق الإسلامية فهى من وضع خالق البشر.

تعقيب:

١- لقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة العامة الخالدة؛ فهو هداية الله للناس كافة، من كل الأمم وكل الطبقات وكل الأفراد وكل الأجيال، والناس تختلف مواهبهم وطاقاتهم الروحية والعقلية والوجدانية، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم ودرجات اهتمامهم؛ ولهذا جمعت الفكرة الأخلاقية فى الإسلام ما فرقته الطوائف الدينية والمذاهب الفلسفية -مثالية وواقعية- فى نظرتها إلى الأخلاق وتفسيرها لمصدر الإلزام الخلقى، فلم يكن كل ما قالته هذه المذاهب والنظريات باطلا، كما لم يكن كله حقًا؛ إنما كان عيب كل نظرية أنها نظرت من زاوية وأغفلت أخرى، واهتمت بجانب على حساب جانب آخر، وهو أمر لازم لتفكير البشر، الذى يستحيل عليه أن ينظر فى قضية ما نظرًا يستوعب كل الأزمنة والأمكنة، وكل الأجناس والأشخاص، وكل الأحوال والجوانب، فهذا يحتاج إلى إحاطة إلهٍ عليمٍ حكيمٍ.

فلا غرو إذا كانت نظرة الإسلام جامعة محيطة مستوعبة؛ لأنها ليست نظرية بشر، بل وحى من أحاط بكل شىء علمًا، وأحصى كل شىء عددًا. لهذا أودع الله فى هذا الدين ما يشبع كل نهمة معتدلة، وما يقنع كل ذى وجهة، ويلائم كل تطور، فمن كان مثاليًا ينزع إلى الخير لذات الخير، وجد فى أخلاقية الإسلام ما يرضى مثاليته، ومن كان يؤمن بمقياس السعادة، وجد فى الفكرة الإسلامية ما يحقق سعادته وسعادة المجموع معه، ومن كان يؤمن بمقياس المنفعة -فردية أو اجتماعية- وجد فى الإسلام ما يرضى نفعيته، ومن كان يؤمن بالترقى إلى الكمال، وجد فيه ما يحقق طلبته، ومن كان همه التكيف فى المجتمع وجد فيه ما يلائم

اجتماعيته، حتى الذى يؤمن بأهمية اللذة الحسية يستطيع أن يجدها فيما أعد الله للمؤمنين في الجنة من نعيم مادى، ومتاع حسى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]. وبهذا تسمع كل أذن الأنشودة التى تحبها، وتجد كل نفس الأمنية التى تهفو إليها.

٢- هناك أصناف ثلاثة لا مكان لها فى الأخلاقية الإسلامية:

الأول: من لا يؤمن إلا باللذة الحسية الحاضرة، أو بالمنفعة الدنيوية الشخصية العاجلة، ولا يقيم وزنًا لما هو مدخر له من لذائذ أكبر، ومنافع أعظم فى حياة هى خير وأبقى، شعاره قول الشاعر:

ما مضى فات والمؤمل غيب ... ولك الساعة التى أنت فيها

والثانى: الفرد الذى يرفض جميع القيم، حبًا لذاته، واتباعًا لهواه، أو يزعم أن القيم الأخلاقية من وضع طبقة لاستغلال طبقة أخرى، وما شابه ذلك من لغو القول.

والثالث: المغرور المتعصب الذى يصر على ألا ينظر إلى الحياة والأحياء، إلا من زاوية واحدة، وأفق ضيق، فهو سجين مذهب معين، أو سجين نظرة خاصة، لا يستطيع أن يخلص منها إلى الأفق الفسيح الذى جاءته به رسالة الإسلام.

❀❀❀

الفصل الخامس:

الجوانب الأخلاقية التى عالجها الإسلام

لقد عُنى الإسلام عناية كبيرة بالأخلاق، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك فى أكثر من موضع، وفى هذا المبحث نتناول الجوانب الأخلاقية فى الإسلام. ومن أهم الجوانب الأخلاقية التى عالجها الإسلام: جانب الإلزام، والمسئولية، والجزاء. وهذه الجوانب الثلاثة ترتبط ارتباطًا وثيقًا فيما بينها؛ لذلك نعالجها فى مبحث واحد.

المبحث الأول

جانب الإلزام

فكرة الإلزام لا تخلو منها أية فلسفة خلقية لها قيمتها، ولا يخلو منها أى مذهب خلقى جدير بهذا الاسم. ولا قيمة لأية قواعد خلقية لا تتضمن إلزامًا للناس باتباعها. فبدون هذا الإلزام تفقد القواعد الخلقية قيمتها، وتعجز عن تحقيق غايتها وأهدافها، وينعدم الالتزام والمسئولية؛ لأنه لا التزام ولا مسئولية دون إلزام. وإذا انعدم الالتزام والمسئولية ضاع الحق وعمّت الفوضى.

يقول الدكتور دراز: «يستند أى مذهب أخلاقى جدير بهذا الاسم على فكرة الإلزام، فهو القاعدة الأساسية، والمدار والعنصر النووى الذى يدور حوله كل النظام الأخلاقى، والذى يؤدى فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاتها، وفناء ماهيتها؛ ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسئولية، وإذا عُدمت المسئولية فلا يمكن أن تعود العدالة، وحينئذ تتفشى الفوضى، ويفسد النظام، وتعم الهمجية، لا فى مجال الواقع فحسب، بل فى القانون أيضًا، وطبقًا لما يسمى بالمبدأ الأخلاقى»(١).

(١) دستور الأخلاق فى القرآن، تعريب وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤١٢هـ- ١٩٩١م، ص ٢١.

العلاقة بين الإلزام والالتزام:

الحديث عن الإلزام مرتبط دائمًا فى مجال الأخلاق بالحديث عن الالتزام، فكلاهما أساسى فى العملية الخلقية؛ فكما أن الأخلاق الحقيقية لا تقوم دون إلزام من سلطة خارجية أو من قوة داخلية، فإنها لا تقوم -أيضًا- دون التزام من قبل الأفراد إزاء القواعد والقوانين الخلقية، أو بعبارة أخرى فإن الأخلاق الحقيقية لابد أن يشعر الفرد إزاء قواعدها وقوانينها بالتزام نحو تطبيقها، ويتجاوب معها طواعية واختيارًا منه.

ولتوضيح العلاقة بين الإلزام والالتزام يمكن أن نشير إلى أن القواعد الخلقية، وما تتضمنه من إلزام باتباعها، تجعل الفرد يشعر بنوع من الضغط المفروض عليه من سلطة خارجية أو قوة داخلية، ولكن هذا الشعور بالضغط الآتى من الخارج أو النابع من الداخل -بالرغم من ملازمته للإلزام وضرورته لأى نظرية أخلاقية -لا يكفى وحده لقيام نظرية أخلاقية ناجحة، ولابد أن يعقبه شعور آخر يبدأ فيه بهضم تلك القواعد الخلقية فى نفسه، وبتمثلها وإحالتها إلى جزء من ضميره الخلقى، وتجاوبه معها والتزامه باتباعها طواعية واختيارًا. فهذا الشعور بالرضا والقبول والتجاوب مع القواعد أو القوانين الخلقية- لدرجة يحس معه الفرد بأنه كان من الممكن أن يفرض تلك القواعد على نفسه من تلقاء نفسه- يمكن أن نسميه بشعور الالتزام، الذى يعد صنوًا للإلزام، وركنًا مهمًا مثله فى بناء أية نظرية خلقية ناجحة.

فالنظرية الخلقية الناجحة تحتاج إلى هذين الشعورين معًا؛ تحتاج إلى الشعور بالضغط المترتب على الإلزام، وإلى الشعور بالالتزام نحو تطبيق تلك القواعد الخلقية وبالقبول لها والتجاوب معها. فإذا اعتمدت أية نظرية خلقية على أحد هذين الشعورين وأهملت الآخر، فإن مصيرها لا محالة يكون الفشل؛ لأنها فى هذه الحالة تكون غير مستوفية لركن أساسى من أركانها.

فالالتزام لازم للعملية الخلقية لزوم الإلزام، ولا تتم العملية الخلقية إلا بالركنين معًا، وهما ركنان مترابطان تمام الارتباط، تشبه العلاقة بينهما العلاقة بين المثير والاستجابة.

وليتحقق الالتزام الحقيقى لابد أن يتم فى إطار حرية الاختيار والإرادة، ومراعاة الجانب الإنسانى فى كل فرد، ومخاطبة الفرد كإنسان له إمكاناته البشرية المحدودة.

مصادر الإلزام الخلقى فى الإسلام:

قبل أن نتحدث عن مصادر الإلزام فى الإسلام، نشير إلى مصدر الإلزام فى الاتجاهات الفلسفية الحديثة، وبفحص هذه الاتجاهات نجد أنها اتجاهان رئيسيان:

الأول: يُرجِع سلطة الإلزام إلى مصادر خارجية، ويختلف أنصار هذا الاتجاه فى مصدر هذه السلطة؛ فمنهم من يرى أنه الجماعة، أمثال: أوجست كونت، ودوركايم، وليفى بريل، ومن ذهب مذهبهم، ومنهم من يرى أنها الدين كما يراها رجال اللاهوت، أمبروز، والقديس أوغسطين، وتوما الإكوينى.

والثانى: يعيدها إلى ذات الإنسان، وأنصار هذا الاتجاه يختلفون أيضًا؛ فمنهم من يرى أنها العقل، أمثال: صمويل كلارك، وولاستون، ومن ذهب مذهبهما، ومنهم من يرى أنها الوجدان أو الحاسة الخلقية، أمثال: هاتشيسون، وآدم سميث، وجان جاك روسو[1]؛ ومنهم من يرى أنها دافع المنفعة، فالإنسان بطبيعته يسعى إلى ما يلذه ويتجنب ما يؤلمه، وقد وجد الإنسان عن طريق التجربة أنها تحقق له السعادة، وتبعده عن التعاسة؛ ولهذا فالدافع الأساسى للمنفعة الذى يتكون عنده عن طريق التجربة[2].

(١) د. توفيق الطويل، الفلسفة نشأتها وتطورها، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٩٦٠، ص ١٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٢.

أما عن مصادر الإلزام الخلقى فى الإسلام، فيمكننا أن نحددها فيما يلى:

أولا: الدين

وهو يعد أهم مصادر الإلزام الدينى والخلقى معًا عند المؤمنين بالدين، بما يتضمنه من معتقدات، ومبادئ، وأوامر، ونواه، ورغائب، وقيم، ومثل عليا، أو قواعد عامة للسلوك. يلعب دورًا مهمًا فى حياة المؤمنين به، ويكون مصدرًا أساسيًا من مصادر الإلزام الخلقى.

ومما يميز القواعد الخلقية المستمدة من الدين عن القواعد الخلقية المستمدة من الذات والمجتمع، هو عمومها وإطلاقها، وإنسانيتها، وقدسيتها، وخلودها، وبقاؤها عبر الأجيال، وهى تستمد قدسيتها من مصدرها الإلهى، حيث إنها فى النهاية ترجع إلى الوحى المنزل من عند الله. فالواضع الحقيقى للقوانين الدينية هو المشرع العظيم، الله جلت قدرته، فالله -عز وجل- هو الذى خلق الإنسان، ووضع النظام الأخلاقى، وهو الذى يعلم الظاهر والباطن، والسر والعلن: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٧]، وهو يراقب الناس فى سلوكهم وأعمالهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وأنه يسجل كل شىء: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقد تحدثنا عن ذلك سابقًا.

ثانيًا: المجتمع أو الجماعة:

حيث جعل الإسلام سلطة الجماعة ملزمة، وبناءً على ذلك اعتُبر المجتمع مسئولا عن انحراف الأفراد؛ لأن فساد بعض الأفراد قد يؤدى إلى فساد المجتمع كله يومًا ما، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، ولهذا أمر الجماعة المسلمة بعقاب المنحرفين: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[النور: ٢]، وبالإضافة إلى العقوبة السابقة أمر بإسقاط قيمتهم الأدبية، فلا تقبل شهادتهم ولا يوثق بكلامهم: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

ولهذا قرر الإسلام مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعدَّ القيام بذلك من عزائم الأمور: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن إعطاء سلطة الإلزام للجماعة من الأهمية بمكان؛ ذلك أن من الناس من يكون وازعهم الإيمانى ضعيفًا، فلا يخافون من الله خوفهم من الناس، فلو أنهم تُركوا وشأنهم لنشروا الفساد فى المجتمع. ومسئولية الجماعة عن انحراف الأفراد ترجع فى أساسها إلى عدم إنكارها السلوك المنحرف، مع إمكان إنكارها؛ إذ إن هذا إن دل على شىء فإنما يدل على رضاها لوقوعه؛ ولهذا متى زاد الفساد فى المجتمع فإن الله ينزل عليه البلاء الذى يعم الفاسدين وغير الفاسدين، والعصاة وغير العصاة؛ لأن غير العصاة يعدون عصاة لأنهم رضوا بالفساد والعصيان، وقصة أصحاب السبت خير مثال على ذلك.

ثالثًا: الضمير الخلقى:

من مصادر الإلزام فى رأى الإسلام الضمير الخلقى؛ لأن الإنسان فيه حاسة أخلاقية يميز بها ما هو حسن وجميل من سلوك مما هو قبيح وضار، ومن ثم تطمئن النفس إلى السلوك الجميل وتقشعر من السلوك القبيح، وهذا يدفعه إلى الالتزام بالأول والابتعاد عن الثانى، مصداق ذلك قول الرسول ﷺ: «البر ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس»[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ

(١) مسند أحمد، ٤/ ٢٢٨.

قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وهكذا يمكن القول بأنه لا يوجد فى الدين ما يمنع من القول بالضمير الخلقى، خاصة إذا ما أعطى التفسير السليم المتمشى مع روح الدين، ولم يبالغ فى قدرته على إدارك الخير والشر؛ لأنه كقوة بشرية محدود فى قدرته.

وهذا الضمير -كما يقول الدكتور البهى: «يدفع صاحبه إلى العمل حسبما جاء فى رسالة الله -سبحانه وتعالى- من أوامر ونواه. وصاحب هذا الضمير استقر فى نفسه الإيمان بالله، واستقرت فيها الخشية منه والأمل، وانطبع ذلك فى تصرفاته وأفعاله، وسلوكه على العموم»(١).

رابعًا: العقل والإدارك:

يعتبر العقل من مصادر الإلزام الخلقى فى رأى كثير من مفكرى الإسلام؛ حيث يرون فيه القوة القادرة على تمييز الخير من الشر أمام الناس، وعلى توجيه الناس ودعوتهم إلى الخير والمثل العليا، وتنفيرهم من الشر والمفاسد والرذائل. والعقل لا يكتفى بهذا التمييز بين الخير والشر ولا بالتوجيه إلى الأول والتنفير من الثانى، بل يتعدى ذلك إلى محاولة الإلزام باتباع قواعده وتطبيق مقتضياته.

وعلى هذا نجد أن الإسلام يعتد بالعقل والإدراك؛ لأن الإنسان عندما يدرك -عادة- أن عاقبة فعله ستكون أليمة فإنه يتجنبه، وإذا كانت سارة فإنه يفعله. كذلك إذا رأى خيرًا من سلوك التزم به، أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فإنه يتركه. ولما كانت الأخلاق وسيلة الخير فى الدنيا والآخرة، فى حين أن

(١) د. محمد البهى، الإسلام فى حياة المسلم، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م ص ٢١١.

التجرد منها وسيلة الشر، فإن العاقل يلتزم بها عقلاً؛ ولهذا يقول أهل النار ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

خامسًا: العادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية:

يمكن أن تكون العادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية من مصادر الإلزام والضغط على الفرد؛ لأنه يتخلق بأخلاق معينة، ويسلك ويتصرف بطريقة معينة.

ويراد بالعادة الاجتماعية: أن يشترك الناس فى عواطفهم وأفكارهم وعقائدهم اشتراكًا يجعلهم يظهرون على عمل واحد. وتقوم كل عادة اجتماعية بتلبية حاجة من حاجات المجتمع، وتمارس نوعًا من الإلزام والضغط على إرادة أفراد المجتمع.

أما العرف: فإنه ينشأ أو يُبنى على العادة الاجتماعية؛ وهو يختلف باختلاف الزمان والمكان، ويتغير تبعًا لتغير ذلك. وأحيانًا نجده يختلف من فئة إلى أخرى حتى فى الأمة الواحدة، يقول الجرجانى: إن العرف «ما استقرت عليه النفوس بشهادة العقول وتلقته الطبائع بالقبول»(١).

وأما التقاليد الاجتماعية: فإنها هى الأخرى مبنية على العادة الاجتماعية، ومرتبطة بها تمام الارتباط، والفرق بين العرف والتقاليد، هو أن العادات فى الزمن الذى نشأ فيه تسمى عرفًا، فإذا استمرت من جيل إلى جيل سميت تقاليد.

وأياً كان تعريف هذه الأمور الثلاثة المتقاربة فى معناها، فإنها تعد من القوى التى يقوم عليها النظام الاجتماعى، والتى تؤثر فى سلوك وتصرفات وأخلاق أفراد المجتمع، وتشكل مصدرًا من مصادر الإلزام الخلقى.

(١) التعريفات: ص ١٩٣.

والعادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية لا يعارضها الإسلام إلا إذا تنافت مع أصل من أصوله، أو مع تعليم من تعاليمه، أو إذا وقفت فى سبيل تقدم المجتمع وتطوره، أو فى سبيل قبول الهداية الإلهية.

والقرآن الكريم يعترف بسلطان العرف، مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقوله: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٤].

وإذا كانت العادات والأعراف والتقاليد الاجتماعية -أحيانًا- عقبة فى سبيل الهداية الإلهية، كما هى الحال بالنسبة للأقوام التى عبرت عنهم الآيات السابقة، فإنه يمكن أن تكون فى أحيان أخرى -إذا كانت إيجابية صالحة- عاملاً من عوامل تماسك المجتمع، وسمة لشخصيته المتميزة بين المجتمعات وترجمة حية لروح الدين وتعاليمه، وإذا كان الإسلام يعارض النوع الأول، فإنه يُقر، بل يدعو إلى النوع الثانى.

والإسلام ينظر إلى هذه العادات والتقاليد والأعراف على أنها أمر متطور يتأثر باستمرار بعوامل الزمان والمكان، يقول الرسول ﷺ: «**الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم**»(١).

هذه هى أهم مصادر الإلزام الخلقى فى الإسلام: والمصدر الوحيد الذى ينال ثقة المسلم كاملة، ويتقبل كل ما يأتى من قِبله من إلزام كامل، هو الدين الحنيف فى أصوله الأولى، وفى صفاته وقدسيته وخلود قوانينه وشمولها وعدالته المطلقة.

والمسلم الحق هو الذى يقيس جميع المصادر السابقة بمقياس الدين، فيقبل منها ما يقبله الدين، ويرد منها ما يرده الدين. وفى إرجاع جميع مصادر

(١) إسماعيل بن محمد العجلونى، كشف الخفاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ ٢/ ٤١٢.

الإلزام الخلقى إلى مصدر الدين، يضفى على هذا الإلزام المزيد من الاحترام والتقدير، ويجعل الناس أكثر تقبلا واستجابة له. وليس فى هذا الإرجاع أى تحكم أو تسلط، أو منافاة لتطور الحياة وتجدد ضرورات الناس؛ لأنه من أبرز مبادئ الدين؛ احترام حرية الإنسان وإرادته وعقله، ومراعاة مصالح الفرد والجماعة، واليسر والتوسط فى كل شىء، ومبدأ التطور المستمر فى الحياة.

وربما يقول قائل إننا قررنا سابقًا أن اتخاذ العقل والمجتمع والضمير منطلقًا ومصدرًا للإلزام الخلقى عند غير المسلمين أثبت فشله، لنقول إنها مصدرًا من مصادر الإلزام فى الإسلام. نعم نقول ذلك؛ لأنها فى الإسلام تقنن بسياج الدين والشريعة، وإذا اختلفت معه فإنها تطرح. أما غير المسلمين فلم يحددوها، بل كانت على إطلاقها، دون أساس ترجع إليه وتنطلق منه.

خصائص الإلزام الخلقى فى الإسلام:

يمتاز الإلزام الخلقى فى الإسلام بخصائص مهمة لا توجد بمثل هذا الوضوح فى الفلسفات الأخلاقية الأخرى وهى[1]:

أولا: الإلزام بقدر الاستطاعة:

إن الإسلام قد راعى استطاعة الإنسان فى إلزامه بالقوانين الأخلاقية، ولهذا لم يكلفه فوق طاقته، قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذا المبدأ كما تقتضيه الأخلاق السليمة، تقتضيه كذلك العدالة الإلهية؛ إذ لا يمكن أن تكون الأخلاق صالحة للتطبيق إلا بهذا الشرط، وليس من العدالة تكليف المرء ما لا يطيق، بل هو ظلم، والله تعالى قد وصف نفسه بالعدالة، ونفى عن نفسه الظلم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

(١) هذا التقسيم استفاده الباحث من الدكتور مقداد يالجن، الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام، ص ٢٢٦ وما بعدها.

وعلى هذا يمكن أن نقول إن الإلزام الأخلاقى فى الإسلام يكون حسب استطاعة الإنسان، فهو لا يكلفه ما لا يطيق، بل جعل ذلك فى إمكانه، وحسب طاقته وقدرته.

ثانيًا: سهولة التطبيق:

ليست الأخلاق الإسلامية متوافقة مع قدرات الناس واستطاعتهم فحسب، بل إنها أسهل مما يطيقونه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]، وقال: ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

نرى من هاتين الآيتين أن الله لم يعفنا فقط مما لا طاقة لنا به، بل أعفانا مما نطيقه بشق الأنفس؛ لأنه تعالى لم يضع نظامه لنا ليحرجنا ويضعنا فى عسر وضيق من الحياة، بل أراد هدايتنا وتيسير السبل أمامنا للوصول إلى حياة سعيدة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وكان الله قادرًا أن يكلفنا فوق طاقتنا، ولكنه لم يفعل ذلك رحمة بخلقه؛ لأنه لم ينزل رسالاته إلا رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وهنا تظهر حكمة الله البالغة فى وضعه هذا النظام بهذه الصورة؛ إذ إنه لو كلفنا بما نطيقه بشق الأنفس لما أمكن مسايرته إلى الأبد، فلدوام نظام معين فى الحياة العملية لا ينبغى أن يستنفد تطبيقه طاقة الإنسان كلها؛ لأن بذل آخر الطاقة بصفة مستمرة لابد أن يؤدى إلى الإرهاق، والحياة لا تطاق بإرهاق مستمر، ومن ثم فلابد من أن يبوء مثل هذا النظام بالفشل.

وهنا تظهر ميزة رسالة الإسلام من هذه الناحية على الرسالات السابقة، حيث إنه لم تأت بقوانين استثنائية قاهرة كعقاب إلهى على الأمة كلها، كما حدث فى الرسالات السابقة التى تحدث عنها القرآن: ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال أيضًا: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ

كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠].

هذا الإصر وتشديد الأحكام فى الرسالات السابقة كانت حالة استثنائية؛ لأن رسالات الله كلها فى جوهرها واحدة، وتهدف إلى غاية واحدة، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، وكان الأمر يقتضى ألا يكون فى الإسلام شىء من تلك القوانين الاستثنائية؛ لأنه خاتم الرسالات من جهة، ولأنه عام لكل الأمم، فكان العدل الإلهى لا يقتضى عقاب الأمم الأخرى بظلم بعضها، ثم وجود مثل تلك القوانين فى الإسلام لا تجعله صالحًا للتطبيق لكل الناس فى كل زمان ومكان.

وكما تمتاز رسالة الإسلام على الرسالات الأخرى، تمتاز كذلك على بعض الفلسفات؛ كالفلسفة الأخلاقية البرهمية، والكانطية -مثلاً- التى تتسم بالقسوة وعدم مراعاة الطبيعة الإنسانية فى الظروف المختلفة.

ثالثًا: مراعاة الحالات الاستثنائية:

لقد راعى الإسلام التخفيف عن المكلفين فى بعض التكاليف الشرعية حينما يكون هناك حرج ومشقة، فتارة يكون هذا الإعفاء كاملا، كما يعفى العاجزين من فريضة الجهاد، والله يقول: ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧]، وكما يجوز للمستضعفين فى الأرض ممن ينبغى عليهم أن يبحثوا عن ملجأ آمن يمارسون فيه حرية العقيدة والعبادة، يجوز لهم أن يبقوا حيث هم، ما داموا لا يملكون وسيلة

الهجرة، يقول تعالى: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٨، ٩٩].

والمسافر الذى لا يجد ما يتقوّت به مما أحل الله، يمكنه -بل يجب عليه بنفس القدر- أن يطعم أى شىء، ولا يترك نفسه يهلك جوعًا: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وتارة يكون المخرج إعفاءً جزئيًّا، ومن ذلك: قصر الصلاة أثناء السفر: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١].

ومنه أن الصلاة أثناء المعركة يمكن أداؤها خلال المشى أو ركوب الفرس: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩].

وتارة ثالثة يكون المخرج مجرد إرجاء، فالمرضى والمسافرون ليسوا ملزمين بالصوم فى وقته المحدد، وبوسعهم قضاؤه فى مقبل الأيام: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ورابعة يكون المخرج استبدال عمل يسير بآخر عسير، فالمسافر الذى لا يجد ماء ليتطهر، والمريض الذى لا يطيق استعماله، يجب أن يكتفى كل منهما بعملية رمزية، عبارة عن لمس حجر أو رمل نظيف، ثم يمسح بيده على وجهه ويديه: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦][1].

(١) راجع: دستور الأخلاق فى القرآن ص ٨٠- ٨٢.

كما أباح الإسلام الكذب فى بعض المعاملات الضرروية، إذا كان ذلك يؤدى إلى الخير العام، أو ينقذ نفس الإنسان البرىء من الإهدار، فقد روى عن رسول الله ﷺ: «ليس الكذب الذى يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمى خيراً»(١)، وقال أيضًا ﷺ: «الكذب كله على ابن آدم إلا فى ثلاث خصال: رجل كذب على امرأته ليرضيها، ورجل كذب فى الحرب، فإن الحرب خدعة، ورجل كذب بين المسْلمَيْن ليصلح بينهما»(٢)، ولا ينبغى أن يفهم من جواز الكذب بين الزوجين جواز الخدعة وكتمان الخيانة، وإلا كان الكذب وسيلة للشر وسببًا لزوال الثقة بين الطرفين، وبذلك يخرج عن الحدود الشرعية.

إن مراعاة الإسلام لهذه الحالات الاستثنائية تدل على مرونة التشريع الإسلامى، وتضفى عليه صفة صلاحيته لكل الناس فى مختلف الظروف والحالات، وفى مختلف الأزمنة والأمكنة.

❀❀❀

(١) البيهقى، شعب الإيمان، تحقيق: محمد السعيد بسيونى زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ٤/ ٢٠٢.

(٢) مسند أحمد، ٦/ ٤٠٤.

المبحث الثاني

جانب المسئولية

فكرة المسئولية ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفكرة الإلزام، فالإلزام بلا مسئولية يعنى القول بوجود إلزام بلا فرد مُلزَم؛ ذلك أن مدى المسئولية يتحدد بمدى الإلزام والالتزام، فالصفات والخصائص هناك تؤثر فى الصفات والخصائص هنا؛ لأن الإلزام والالتزام يسبقان على المسئولية من حيث الوجود، والمسئولية مبنية عليهما معًا، وعلى ذلك ندرس المسئولية الأخلاقية دراسة مفصلة لنتعرف على معناها، وشروطها، ومجالها، وأقسامها.

أ- معنى المسئولية:

هى تحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته واختياراته العملية من الناحية الإيجابية والسلبية أمام الله فى الدرجة الأولى، وأمام ضميره فى الدرجة الثانية، وأمام المجتمع فى الدرجة الثالثة.

وبتعبير آخر: «هى إقرار المرء بما صدر عنه من أفعال، واستعداده لتحمل نتائجها، وما يصدر عنه من أفعال قد يتسع مجاله فيشمل كل الذين هو مسئول عنهم، ويشمل قطعًا كل من يأتمرون بأمره، وكل من يستمدون السلطة منه مباشرة»[1].

ب- شروط المسئولية:

لكى يكون الإنسان مسئولا عن أفعاله خلقيًّا، وله أهلية للقيام بهذه المسئولية، لابد أن تتوافر له شروط رئيسية، هى:

(١) د. عبد الرحمن بدوى، الأخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م، ص ٢٢٣- ٢٢٤؛ ود. محمد جواد مغنية، فلسفة الأخلاق فى الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م، ص ٩١.

١- العقل أو القدرة على الإدراك والتمييز:

فلابد لأية مسئولية؛ سواء أكانت خلقية، أم دينية، أم قانونية من توافر العقل والقدرة على التمييز، بحيث لو فقد الإنسان عقله أو قدرته على الإدراك والتمييز انتفت عنه المسئولية الخلقية والشرعية. وهذا يعنى أنه لا مسئولية ولا تكليف على المجنون، ولا على المعتوه الذى لا يميز، ولا على النائم والساهى، ويلحق بهم الصبى[1]، الذى لم يبلغ -ولو كان مميزًا- لانعدام البلوغ الذى هو شرط من شروط التكليف، لقول النبى ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث: النائم حتى يستيقظ، والصبى حتى يحتلم، والمجنون حتى يعقل»[2].

ومن البديهى أن عقل الفرد إذا كان يرجع إليه أحيانًا، فإن التكليف والمسئولية يعودان إليه طالما كان عاقلا عارفًا بالحقائق وعواقب الأمور.

وعلى هذا «فالمسئول إذا لم يكن واعيًا بذاته ومقاصده من أفعاله، وما سينجم عنها، فلا معنى لجعله مسئولاً عن تصرفاته؛ ولهذا لم يجعل الإسلام الحيوانات مسئولة»[3].

٢- بلوغ الدعوة إلى الفرد:

فالله عز وجل قد أرسل الرسل وأنزل الكتب حتى يبين للناس سبيل الدعوة والرشاد، ولن يحاسب أى إنسان على أفعاله دون أن يكون قد علم سابقًا أحكامها، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) فى بعض شرائع الصين والرومان واليونان وفرنسا فى عصورها الحديثة، يعتبرون المجنون أو الصبى عليه مسئولية مثل الإنسان السوى البالغ. للتفصيل راجع: د. على عبد الواحد وافى، المسئولية والجزاء، نهضة مصر، الطبعة الثالثة، ١٣٨٣هـ- ١٩٦٣م، ص ٤٥ وما بعدها.

(٢) سنن أبى داود، ٤/ ١٤١.

(٣) الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام، ص ٢٣٨.

والحقيقة أن الله -سبحانه- أوجب على نفسه أن يُعْلِم الناس قبل أن يحملهم مسئوليتهم؛ لأنه يرى من الظلم تعذيب القرى التى تغفل عن واجباتها لأنها لم تعرفها: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]، ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩].

فبلوغ الدعوة إلى الإنسان من الأهمية بمكان؛ حتى يتعرف على قوانين الأخلاق، ومعانى الخير والشر، فإن لم تبلغه الدعوة أو عاش منعزلا عن الجماعة فقد المسئولية الأخلاقية، وذلك على أساس أنه لا تكليف قبل ورود الشرع.

٣- حرية الإرادة والاختيار:

إن مبدأ التناسب بين المسئولية والحرية تمتد جذوره بعمق فى الضمير الإنسانى، فالإرادة تشبه إلى حد كبير الأخلاق السببية فى مجال العلوم الطبيعية، «فكما أن السبب يغير من سير الظواهر ويحولها إلى ناحية أخرى غير تلك التى تتجه إليها من تلقاء نفسها، فى حالة عدم تدخل السبب، فكذلك الإرادة إذا تدخلت فى عالم النشاط الإنسانى وجهته وجهة لا يتجه إليها فى حالة عدم تدخل الإرادة»[1].

فالإرادة هى مصدر الفعل الأخلاقى، وهى الموجهة له، والواقية له من الانحراف والانزلاق، وبقدر ما يتوافر للفرد من حرية الإرادة والاختيار تكون مسئوليته وتبعيته الأخلاقية. وتنتفى مسئولية الفرد الخلقية فى حالة فقدانه لحرية إرادته وشعوره بأنه فاقد لاختياره، ومسوق إلى أفعاله جبراً وقسراً من قبل سلطة خارجية.

(١) د. محمد السيد البدوى، الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م ص١٣١.

ونحن عندما نشترط حرية الإرادة والاختيار فى المسئولية الخلقية ندرك أن هذه الحرية نسبية وجزئية إلى حد كبير؛ لأن هناك كثيرًا من العوامل والقيود التى تؤثر وتتحكم فى إرادة الإنسان وحريته. من هذه العوامل والقيود: حكم الوسط الزمانى والمكانى، وحكم الوراثة، وحكم العادة، وحكم المصادفة.

فالفرد عندما يريد أن يزاول إرادته واختياره فى أفعاله وتصرفاته يجد نفسه محكومًا ومقيدًا إلى حد كبير بالعرف والذوق السائدين فى عصره ومجتمعه، وبمبلغ ما يتمتع به من إمكانات بدنية وعقلية ومزاجية وانفعالية، وبما تكون لديه من عادات راسخة أصبحت عنده بمنزلة الطبيعة الثانية، وبمصادفة الحياة غير المنظورة التى قد تضع الإنسان فى مركز خاص يجعله ينظم حياته على شكل دون آخر من غير أن يكون له دخل فى تلك المصادفات مطلقًا[1].

ولكن بالرغم من هذه القيود المحددة لإرادة واختيار الإنسان، فإنه لا يزال هناك فرصة أمام الإنسان للتمتع بجزء من حرية إرادته واختياره يكفى لترتيب المسئولية والجزاء على أفعاله.

والإسلام قد أكد مبدأ حرية الفرد ومسئوليته عن أفعاله، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [النساء: ١١١].

وفى الوقت الذى يقرر فيه الإسلام مسئولية الفرد عن أفعاله الإرادية المختارة، فإنه لا يعفى الفرد من مسئوليته -أيضًا- بالنسبة لغيره، ومن الأدلة

(١) محمد حسين هيكل، الإيمان والمعرفة الإنسانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ١١٥-١١٦.

المؤكدة لهذه المسئولية الاجتماعية، قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقد روى أن عمر -رضى الله عنه- قال حين نزلت هذه الآية: «يا رسول الله، نقى أنفسنا؛ فكيف لنا بأهلينا؟، فقال ﷺ: «تنهوهن عما نهاكم الله عنه، وتأمروهن بما أمركم الله، فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار»، على أن الرسول ﷺ يصور هذا النوع من المسئولية تصويراً جميلا فى غير ما حديث، إنه يصور الأمة فى توادها وتراحمها بجسم، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وهو يقول فى روعة أخّاذة «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته»[1]، ثم يفصل هذا الإجمال، ويضرب بعض الأمثلة: «فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته، والزوجة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، فكلكم راع ومسئول عن رعيته»[2].

بهذه الشروط مجتمعة يصبح الإنسان أهلا لتحمل المسئولية عن أفعاله، ولا يمكن الاستغناء عن أى واحد منها، لأنه من الظلم تكليف الإنسان بأعمال لا يستطيع تحمل أعبائها والقيام بها.

جـ- مجال المسئولية وأقسامها:

من حيث مجالها، فالحياة كلها مجال المسئولية، وكل مكان يمكن أن يكون ظرفًا لأداء المسئوليات، فإننا نجد الإسلام قد حدد أوقاتًا متسعة لأداء كل واجب وكل مسئولية، كما أنه لم يحدد مكانًا معينًا لأداء الواجبات

(١) صحيح مسلم، حديث رقم (١٨٢٩)، ٣/ ١٤٥٩.

(٢) د. عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفى فى الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص ٤٢- ٤٣.

والالتزامات إلا نادرًا، إلى جانب هذا فإنه قرر للحالات الضرورية طرقًا استثنائية لأدائها، وذلك إما بإعفاء المضطر من المسئولية، أو تحملها عنه، أو تأجيل وقت أدائها.

ومن حيث أقسام المسئولية تنقسم إلى قسمين:

١- مسئولية فردية.

٢- مسئولية غيرية أو اجتماعية.

أما المسئولية الأولى فلها مجالات: المجال الداخلى، والمجال الخارجى الظاهرى.

فالأول: مسئولية الإرادة والقصد والتصميم:

فليس من الضرورى ظهور العمل المادى الظاهرى ليكون الإنسان مسئولا كما فى رأى القوانين، بل إن العزم على فعل شىء كاف لتحمل مسئوليته، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]؛ ولهذا فمن عزم على فعل شىء ولم يستطع تنفيذه لمانع خارجى؛ كخوفه من السلطة، أو جهله بطريق التنفيذ يكون كأنه قد نفذه بالفعل، وكذلك لو ترك فعلا بالإرادة، فإذا ترك مثلا ارتكاب الجرم خوفًا من الله وإطاعة لأمره يكتب له حسنة ويعدّ ذلك له عملا خيرًا؛ لأن الترك فعل أيضًا. فالفعل إما أن يكون إيجابيًا، وإما أن يكون سلبيًّا، مصداق ذلك قول الرسول ﷺ راويًا عن ربه: «**إن الله عز وجل كتب السيئات والحسنات ثم بين ذلك، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة، فإن همَّ بها وعملها كتبها عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها له حسنة كاملة، فإن هو همَّ وعملها كتبها الله سيئة واحدة**»(١).

(١) مسند أحمد، ١/ ٣٦٠.

لكن ينبغى أن يكون ترك السيئة خوفًا من الله، لا عجزًا عن العمل، أو خوفًا من السلطة؛ وذلك ليكون الترك لله خالصًا، لينال ثوابه. ولهذا قال النبى ﷺ عن ربه: «إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلى فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة»(١).

ولكن لا يجب أن نفهم من هذا أن الذى أراد السيئة وأصرّ عليها ولم يستطع تنفيذها لمانع ما أنه يعفى من المسئولية، فهناك فرق بين نية لم تحصل محاولة لتنفيذها، ونية حصلت محاولة ولم تنجح، ولهذا قال الرسول ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول فى النار»، قلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟! قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»(٢)؛ ولأن الإسلام كما حرم الفواحش من الأعمال الظاهرة، حرم كذلك الأعمال الفاحشة الباطنة: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، والإثم الباطن هو النية على فعل الجريمة.

ولا يدخل فى نطاق هذه المسئولية ما يدخل فى قلب الإنسان من خطرات الخير ووساوس الشر، أو بتعبير آخر حديث النفس؛ ولهذا لما شرع بعض الصحابة إلى الرسول ﷺ حينما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قائلين: أنكون مسئولين عما توسوس به نفوسنا، قال: «إن الله تجاوز عن أمتى ما حدثت به نفسها ما لم تعمل به أو تتكلم»(٣)، ونزل قوله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ لأن الإنسان لا يستطيع دفع هذه الوساوس ولا تدخل فى نطاق الإرادة.

(١) شعب الإيمان، ١/ ٣٠١.

(٢) صحيح البخارى: تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ٦/ ٢٥٢٠.

(٣) صحيح البخارى، ٥/ ٢٠٢٠.

ونرى هنا الإسلام يختلف فى نظرته إلى المسئولية عن كثير من المذاهب الأخلاقية، وعن نظرة القوانين الوضعية؛ ذلك أن هذه المذاهب والقوانين لا تجعل مجال الإرادة الداخلية -ما لم تنفذ فى العمل الخارجى- مجال المسئولية إطلاقًا. كما تختلف عن نظرة بعض الأديان السابقة على الإسلام التى كانت تعد الإنسان مسئولا عما تتحدث به نفسه. كما يفهم ذلك من آخر الآية السابقة: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والثانى: المجال الظاهرى للمسئولية:

وهو السلوك المادى سواء أكان كلامًا أم فعلا، بشرط أن يكون ناتجًا عن قصد واختيار ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، وفى آية أخرى ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال الرسول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»(١)، وبناء على ذلك فلا يكون الإنسان مسئولا عن سلوكه الناتج عن إكراه واضطرار: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وكذلك السلوك الناتج عن الخطأ والنسيان ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

«كل هذه الحالات دليل على مدى مراعاة الإسلام إمكانات الطبيعة البشرية التى تظهر منها أحيانًا سلوك اضطرارى أو غير إرادى أو خطأ دون قصد، وكل ذلك لا يدخل فى نطاق إمكانات التحكم الإرادى والعملى؛ لأنها لا تصدر من قلب آثم، إذ لو كان الأمر كذلك لكانت هناك مسئولية تستلزم تطهير مما وقع من المآثم»(٢).

(١) صحيح البخارى، ١/٣.

(٢) د، مقداد يالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، ص ٣٤٢.

القسم الثانى من المسئولية: المسئولية الغيرية أو الاجتماعية:

فيها شيء من الغموض والتعقيد، وقد يبدو لبعض الناس أن ذلك شيء غير عادى؛ إذ كيف يكون المرء مسئولا عن سلوك غيره، وقد يبدو أن هذا الأمر يتعارض مع بعض المبادئ الأخرى التى تقرر مسئولية الإنسان عن نفسه فقط.

فإذا نظرنا إلى تلك الاتجاهات الأخلاقية والقانونية فى هذه المسألة وجدنا اتجاهين بارزين:

أحدهما: اتجاه فردى، يرى أن الفرد ليس مسئولا إلا عن سلوكه الخاص به.

وثانيهما: اتجاه جماعى يرى مسئولية الجماعة عن سلوك الأفراد، ومسئولية الغير عن سلوك غيره.

وبالرغم من هذا الاختلاف بين الاتجاهين من الوجهة النظرية عمومًا، فبينهما بعض التقارب أيضًا من الوجهة العملية فى بعض الأمور الجزئية على أقل تقدير؛ ذلك أن الاتجاه الأول بالرغم من دعواه الفردية، فإنه من الوجهة العملية قد قرر المسئولية الغيرية فى بعض الجرائم، مثل جريمة القتل فى بعض الحالات وفى بعض الظروف الخاصة. كما أن الاتجاه الثانى بالرغم من دعواه الجماعية فى المسئولية، فإنه لا يجعل الجماعة مسئولة عن كل سلوك أفرادها، بل يقصرها على بعض الأفعال والجرائم[1].

وأما عن وجهة نظر الإسلام، فنجد نصوصًا تقرر المسئولية بصورة مطلقة، كأن الفرد مسئول عن نفسه فقط، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ومع ذلك نجد أن هناك نصوصًا أخرى تقرر مسئولية الفرد عن سلوك غيره، منها قوله

(١) المسئولية والجزاء، مرجع سابق، ص ٦١ وما بعدها، بتصرف.

تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وبعد أن تلا الرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩]، قال عليه السلام: «كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»(١)، وسألت زينب بنت جحش النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال: «نعم، إذا كثر الخبث»(٢)؛ وذلك لأن الفساد لا يقتصر ضرره على المفسد، بل لابد من أن ينتقل إلى غيره أيضًا، ولهذا فقد شبه النبى ﷺ الحياة الاجتماعية بحياة جماعة فى سفينة فى البحر، وشبه عمل الفاسدين فيها بعمل خرق لجدار السفينة؛ إذ إن هذا العمل عندئذ لابد أن يؤدى إلى غرق السفينة، وضياع حياة الجماعة، فقال ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا»(٣).

ولهذا جعل الرسول ﷺ إزالة المنكر والأخذ على يد الفاسدين من الإيمان، فقال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير، ٢/ ٨٤.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٨٨٠)، ٤/ ٢٢٠٧.

(٣) صحيح البخارى، ٢/ ٨٨٢.

(٤) صحيح مسلم، حديث رقم (٤٩)، ١/ ٦٩.

وتحمل الإنسان مسئولية سلوك الغير فى هذا الإطار ليس فيه أى غرابة فى التفكير الأخلاقى، ذلك أن الإنسان ليس مسئولا فقط عن فعل الشر، بل هو مسئول أيضًا عن دفع الشر؛ لأن هدف الأخلاق تحقيق الخير، والخير يتحقق عن طريقين: طريق إحداث الخير وتنميته، وطريق إزالة الشر ووقاية الخير من طغيان الشر عليه.

ولذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من المبادئ المهمة للغاية فى التفكير الأخلاقى فى الإسلام.

«وبهذا نرى أن المسئولية الفردية على هذه الدرجة من الامتداد تتاخم، بل وتكاد تندمج فى المسئولية الجماعية»[1].

بعد هذا العرض لفكرة المسئولية فى الإسلام نستخلص أن الإنسان كائن مسئول، يتحمل مسئولية سلوكه الإرادى عن جدارة وأهلية، وهذه المسئولية لها مستويات ودرجات تختلف بحسب اختلاف الأعمال والصورة التى تتم بها، وبحسب الآثار المترتبة عليها من الناحيتين المادية والنفسية، ومسئولية الإنسان لا تقتصر على عمله النفسى والسلوكى، بل تتعداها إلى مسئوليته عن عمل غيره فى إطار وحدود معينة. كما أن مسئوليته ليست مقصورة على المسئولية الدنيوية من حيث المكافأة والجزاء، بل إن المسئولية الأساسية هى المسئولية الأخروية التى ينال فيها نتيجة مسئوليته بصورة عادلة.

وفى مبحث قادم سوف نتناول المسئولية بصورة أخرى، لنتناول المسئولية الجنائية فى إقامة الحدود والقصاص فى إطار فلسفة الإسلام فى تشريع العقوبات.

❀❀❀

(١) دستور الأخلاق فى القرآن، ص ١٥٥.

المبحث الثالث

جانب الجزاء

إذا كانت المسئولية هى نتيجة طبيعية للإلزام، فإن الجزاء نتيجة طبيعية لها، بصرف النظر عن ماهية الجزاء وكونه عاجلا أو آجلا، بل إن أهميته مزدوجة، فهو مهم باعتباره دافعًا إلى التمسك بالقيم الأخلاقية. وهو مهم لأن العدالة تقتضيه؛ لأنها تفرق بين إنسان يبنى وآخر يهدم.

فالجزاء يقتضى العدالة، والعدالة تقتضى الجزاء، وهما يجعلان للأخلاق معنى وقيمة، وبدونهما تفقد الأخلاق مفهومها، فتصبح أمرًا لا قيمة له.

والإسلام ينظر إلى الجزاء على أنه ما يجب أن يناله الإنسان بحكم عمله الحر الناتج عن إرادة واختيار، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر؛ سواء أكان الجزاء ماديًا أم معنويًا، مباشرًا أم غير مباشر، عاجلا فى الحياة الدنيا أم آجلا فى الحياة الآخرة.

أهمية الجزاء فى بناء الأساس الأخلاقى:

الجزاء له أهمية كبيرة فى بناء الأساس الأخلاقى من النواحى الآتية:

١- أن العدالة تقتضى الجزاء؛ لأنه يفرق بين الذى يبنى بعمله والذى يهدم به، أو بين المُصلح والمفسد، والخيّر والشرير، ثم إن العدالة تقتضى الجزاء أيضًا، وإلا استوى الطيب والخبيث ﴿قُل لاَّ يَسْتَوِى الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: ١٠٠] وليس من العدالة أن نجعل الصالح مثل الفاجر ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

٢- أن الجزاء عامل مشوق، ودافع إلى التمسك بالقيم الأخلاقية؛ لأن الإنسان يجب أن يرى ثمرة أعماله وكفاحه سواء كانت هذه الثمرة مادية

أو معنوية، بل إن الطبيعة نفسها لا تسوى بين المصلح والمفسد، فتعطى العامل الصالح البانى، وتحرم الذى يهدم ويهمل، فالذى يزرع يحصد والذى لا يزرع لا يحصد، ومن يق نفسه من المفاسد ينجيها من المهالك وشر الأمراض، ومن لا يقيها تعاقبه الطبيعة بشر الأمراض.

٣- أن التمسك بالقيم الأخلاقية عمل مقدم؛ لأنه يمثل أوامر الله وإرادته، وأن من يقدس الخالق ويحترم أوامره يلتزم بهذه القيم، والتزامه بها فى ضوء هذه المشاعر يضفى على حياته قوة معنوية وبهجة روحية، بطبيعة الاعتقاد وبطبيعة الشعور. ثم إنه كلما كان شعور الإنسان بأنواع الجزاء المختلفة الناجمة عن العمل الأخلاقى أو المترتبة عليه أقوى، كان ذلك أكثر دفعًا له إلى القيام بأعمال أخلاقية خلاقة، وكان رادعًا فى الوقت نفسه عن الانحراف ومخالفة القوانين الأخلاقية، وخاصة إذا كانت هذه الجزاءات متنوعة حسب المسئوليات التى تحملها هذه الأخلاق على الإنسان وتلقيها على كاهله.

ولهذا نجد الإسلام قد نوع الجزاءات على أساس هذه الفكرة وعلى أساس هذا المنطق، ومن ثمّ نجده يقرر الجزاءات المختلفة التى تحيط بالعمل الإسلامى من كل جهة.

أنواع الجزاء الأخلاقى:

ينقسم الجزاء الأخلاقى إلى أقسام منها: الجزاء الإلهى، والوجدانى، والطبيعى، والاجتماعى.

أولاً: الجزاء الإلهى:

هذا الوعد والجزاء من الله -عز وجل- لإثابة المحسن، وعقاب المسىء، سواء كان فى الدنيا أو الآخرة.

فمن حيث الإثابة فقد قطع الله على نفسه بإثابة المحسن على إحسانه قليلا كان إحسانه أو كثيرًا، ووعد الله حق لا يتخلف: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن

فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠] ولا يكتفى بإثابة المحسن بقدر إحسانه، بل يضاعف إلى ما شاء لمن شاء: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

أما عقاب المسىء ففيه تفصيل؛ لأن هناك ذنوبًا لابد من أن يعاقب عليها صاحبها، مثل: الكفر، والإشراك به: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ولا يغفر الله كذلك إذا كانت الإساءة إلى العباد؛ لأن هذا حق الناس لا حق الله، ولا يغفر الله ما للناس على الناس، ولهذا قال الرسول ﷺ: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شىء فليتحلل منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه»(١)، وقال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وهناك مساوئ ترك الله غفرانها لمشيئته مثل الذنوب الكبائر فى حق الله؛ لأنها دون الشرك، إلا أن هذا ليس وعدًا قاطعًا، ويدخل هذا فى قوله تعالى: ﴿لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]. وهذه الآية مخصصة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وبناء على ذلك فلا يدخل الشرك ضمن هذه الذنوب.

وهناك ذنوب صغيرة يسميها الله أحيانًا بالسيئات، وأخرى بالصغائر، وثالثة باللمم، وعد الله بغفرانها إذا تجنب صاحبها الكبائر، فقال تعالى: ﴿إِن

(١) تفسير القرطبى: تحقيق: أحمد عبد العليم البردونى، دار الشعب، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٧٢هـ، ١٥/ ٢٥٥.

تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

وأخيرًا: فهناك إساءة لابد من أن يعاقب صاحبها بناء على وعده تعالى، وهو الإنسان الذى قد أحاطت به خطيئته بسبب استمراره فى المعاصى وتعدى حدود الله، وارتكابه كبائر الذنوب والفواحش، مع عدم التوبة النصوح، أو تاب ولكن عند الاحتضار، وقد سماهم القرآن وأمثالهم بالفجار: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

وإن كانت هذه الآية الأخيرة قد نزلت فى حق اليهود، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

ولا يخالف غفران الله بعض الذنوب قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]؛ لأن هذه الآية تعبر عن حالة الحساب فى الآخرة، فهناك حساب لكل عمل ولو كان مقدار ذرة، أما إذا غُفر له فى هذه الحياة، فلا يدخل فى نطاق الحساب الأخروى.

وجزاء الله ليس كله فى الآخرة، بل فى الدنيا -أيضًا- يقول الرسول ﷺ: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصى، ثم يقدرون على أن يغيروا عليه ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب»(١)، كما يجازى جزاءً حسنًا الذين يعملون الخير فى هذه الحياة الدنيا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

---

(١) سنن أبى داود، ٤/ ١٢٢.

وذلك للزجر عن ارتكاب الشرور، وللدفع إلى فعل الخيرات؛ ولهذا فقد ضرب مثلا بأقوام سابقة كيف عاقبهم لما ظلموا وارتكبوا الآثام: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

والجزاء الإلهى الدنيوى ليس دائمًا الهلاك، بل قد يكون مرضًا، وقد يكون عدم التوفيق والهداية، وما إلى ذلك، ثم إن الله تعالى وعد رسوله ﷺ بعدم إهلاك أمته كلية بسبب ذنوبها كما أهلك بعض الأمم السابقة؛ حيث يقول الرسول ﷺ: «سألته ألا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»(١).

ولهذا، فإن الجزاء الحقيقى الأوفى سيكون فى الآخرة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩- ٤١]، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

ثانيًا: الجزاء الوجدانى:

هو تلك الحركة الشعورية التى نحس بها فى أعماق قلوبنا بالفرح أو التأنيب بعد كل فعل مباشرة نعتقد أنه فعل حسن أو قبيح.

(١) مسند البزار، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ٣/ ٣٢٨.

وهذا الشعور أو الإحساس المتحرك الذى يجيش فى نفوسنا يختلف فى درجته من فرد إلى آخر بحسب الاستعداد الفطرى أو الوراثى، والتربية الأخلاقية، وصفاء الضمير ونظافته.

ولعل هذا هو المعنى الذى أشار إليه الرسول ﷺ عندما عرّف البر والإثم، فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»(١).

«فالوجدان أو الضمير يعتبر محكمة عدل مباشرة لا تحتاج إلى شاهد ولا قاضى يخبرك بخيرية الفعل أو شريته قبل الفعل، ويجزيك بالسرور إن كان فعلا حسنًا، وبالوخز والألم إن كان شرًا»(٢).

إن قيمة هذا الجزاء أكثر تأثيرًا من قيمة الجزاء المادى؛ لأن هذا الأخير وقتى، وقد يصيب المخطئ، وقد يقع على البرىء، وقد يكون مكافئًا للعمل أو لا يكون. أما الجزاء الوجدانى فهو لا يخطئ ومستمر، ولهذا قال بعض علماء النفس إن المجرمين تحت عقاب مستمر، وإن نجوا من العقاب القانونى(٣)؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «**البر لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديان لا يموت، فكن كما شئت، فكما تدين تدان**»(٤).

وهذا حق لأن المجرمين تعتريهم ثلاث حالات وجدانية مؤلمة:

الحالة الأولى: حالة الخوف المستمر من انكشاف الجريمة، وهذا الخوف يقلقهم ويجعلهم يضطربون ويتحرجون عن الكلام فى الموضوعات التى ارتكبوا فيها الآثام، ويظهر فى لسانهم التلعثم واللحن والارتباك، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

---

(١) سنن الترمذى، حديث رقم (٢٣٨٩)، ٤/ ٥٩٧.

(٢) الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام، مرجع سابق، ص٢٦٢.

(٣) هنرى برجسون، منبعا الأخلاق والدين، ترجمة: سامى الدروبى، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٤٥م، ص٢٧.

(٤) كشف الخفاء، ١/ ٣٣٦.

والحالة الثانية: تأنيب الضمير المستمر، والإحساس بالذنب الذى يخدش وجدان المجرم وشعوره، يجعله يشمئز من نفسه، وهنا تعتريه حالات كئيبة لا تنفرج سريرته، ولا سيما فى حالات التذكر لتلك الجرائم التى ارتكبها.

والحالة الثالثة: افتقاد المذنب الشعور باستحقاقه التقدير والأهلية الاجتماعية؛ ذلك أنه يشعر فى قرارة نفسه بأنه لم يعد أهلا لذلك التقدير والمودة التى يبديها الناس نحوه لجهلهم بحقيقة أمره، وبعد انكشاف حقيقة أمره فإنه يفقد تلك الأهلية ظاهرًا وباطنًا، ومن ثمّ يصبح غريبًا بين أهله وأحبائه، فيعيش فى عزلة من الناس، وكأنه فى جزيرة خالية، بل يكون إحساسه بالعزلة أكثر من ذلك، وهذا له وقع شديد على النفس، وخاصة إذا كان الشخص له شهرة ووجاهة بين الناس.

وهذا ما يقرره أيضًا الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون؛ حيث يقول: «وبعد أن يظفر المجرم بإخفاء جريمته عن الناس لا يستطيع أن يخفيها عن نفسه، فهو مازال يعرف أنه مجرم... إنه يعرف أن الاحترام الذى يوجه إليه الآن إنما يوجه إلى شخصه السابق الذى لم يعد موجودًا، ويعرف أن المجتمع لا يخاطبه هو، بل يخاطب شخصًا آخر، فيعيش بين الناس وهو أكثر عزلة مما لو كان يحيا فى جزيرة خالية؛ لأنه فى عزلته يحمل معه صورة المجتمع التى تحفّ به وتسنده، أما الآن فقد انقطع عن المجتمع وعن صورته معًا»(١).

وبخلاف هذه الحالات حالة إنسان لم يرتكب الجرائم والآثام، فإن صفاء وجدانه يجعله يشعر بالابتسامة الداخلية، ويحس فى قرارة نفسه بصفة دائمة بالخيرية الذاتية والسرور المستمر، ويؤثر هذا وذاك فى سماته الشخصية الظاهرة، وشتان بين الوجدانين: الوجدان الآثم العليل، والوجدان الصافى الحى، وشتان بين شخصين: الشخصية المجرمة، والأخرى الخيِّرة الطيبة؛ إذ إن الإنسان إذا كان مجرمًا فاسد الخلق يظهر ذلك فى سيماه، فيصبح وجهه

(١) منبعا الأخلاق والدين، مرجع سابق، ص٢٧.

مظلمًا قاتمًا واجمًا عبوسًا، بينما إذا كان خيرًا يصبح وجهه باسمًا ناضرًا، وصدق الله العظيم إذ يقول في وصف هؤلاء وأولئك: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، كما يُعرف الصالحون بسيماهم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح ٢٩].

هذه السمة تظهر في الدنيا كما تظهر يوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨- ٤١]، وقال رسول الله ﷺ: «ما أسرّ أحد سريرة إلا كساه الله جلدًا بها؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر»(١)، وهذه حقيقة يؤيدها علماء النفس أيضًا.

ثالثًا: الجزاء الطبيعي:

هذا الجزاء مبنى على أساس ارتباط القوانين الأخلاقية بالقوانين الطبيعية؛ ولهذا فهو جزاء صارم صرامة القوانين الطبيعية التي لا تعرف مغفرة ولا توبة، ولا تزيل آثاره التوبة، وهو حقيقة واقعية كحقيقة الجزاء المادي الناتج عن اصطدام القوانين الطبيعية، وتقاس نوعية الجزاء هنا بنوع القوانين، فقد يكون قليلا أو كثيرًا، وقد يكون مباشرًا أو غير مباشر؛ كالآثار الناتجة عن الاصطدام بالقوانين الطبيعية المختلفة سواءً بسواءٍ.

ويمكن أن يعد هذا الجزاء جزاءً إلهيًا من حيث إن الله عندما وضع القوانين الأخلاقية بناها على أساس القوانين الطبيعية ليحيا حياة طيبة من يرعاها بطبيعة الحال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ لأن القوانين الأخلاقية تحفظ الحياة وتقيها من كل ما يهددها.

(١) تفسير ابن كثير، ٤/ ١٨٠.

وإذا خالف الإنسان القوانين الأخلاقية فإن الله عز وجل يسلّط عليه قوانين الطبيعة؛ كالإصابة بالأمراض المختلفة، وعلى رأسها مرض الإيدز -مثلا- بسبب ارتكاب جريمة الزنى، وغير ذلك من الأمراض التى تفتك بالإنسان.

وقد يرجع الجزاء إلى القوانين الطبيعية الاجتماعية، فمخالفة قانون الصدق -مثلا- يؤدى إلى زوال الثقة بالأشخاص والمجتمع، وزوال الثقة هذا يؤدى إلى انعدام الاطمئنان فى الحياة الاجتماعية، ولا خير فى حياة دون اطمئنان، كذلك الأمر لو تعدى الناس قانون حرمة النفس الإنسانية، وتفشت جريمة القتل. فالأمر لا يؤدى هنا إلى زوال الحياة المطمئنة فحسب، بل يؤدى إلى زوال الحياة بزوال الناس.

وهكذا نجد أن زوال الأخلاق يؤدى بوجه عام إلى زوال الحياة، وأكبر جزاء على مخالفة الأخلاق هو انعدام الحياة.

ويكون الأمر على خلاف ذلك متى روعيت القوانين الأخلاقية، فالطبيعة تجازى الناس عند ذلك بالحياة السعيدة التى يسودها الاطمئنان والرخاء والمحبة؛ لأنه سيكون هناك انسجام بين الإنسان والنواميس الكونية المسبحة لله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فالكون كله يسير فى اتجاه واحد، فإذا خالفته الطبيعة البشرية بالمعاصى والشرور، فإنه ينال العقاب الشديد من قبل الطبيعة، وإذا ما سار الإنسان فى نفس الاتجاه، حدث بينهما ائتلاف واتحاد، ويكون الكون كله فى خدمة الإنسان، وتصبح حياته سعيدة.

وهنا نجد أن الإسلام قد ربط قوانينه الأخلاقية بالقوانين الطبيعية؛ فنهى عن كل شىء يضر فعله بالطبيعة، وأمر بكل شىء ينفع فعله الطبيعة.

رابعًا: الجزء الاجتماعى:

هذا الجزاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الجزاء غير المباشر:

وهو ما يجده كل فرد فى المجتمع من جراء انتشار الانحلال الأخلاقى، مثل: الكذب، والنفاق، والبغض، والمحاباة، والخيانة، والمحسوبية، والرشوة، والحسد، وعدم الإخلاص، والأنانية، وما إلى ذلك.

فالحياة الاجتماعية تصبح عندئذ جحيمًا لا يطاق؛ إذ تزول من هذه الحياة كل بهجة ومودة ومحبة وأمن وطمأنينة، ويسود بدلها البغض والكراهية والعداوة، فكل فرد يصبح عدو الآخر، وعندئذ يكره الفرد الناس والمجتمع، ولا يجد لذة أو طعمًا فى الحياة، بل يرى أن الحياة أصبحت جحيمًا لا يطاق، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]؛ ولهذا فقد أرجع علماء الاجتماع بعض الأمراض الاجتماعية -ومنها مشكلة الانتحار- إلى انحلال العلاقات الاجتماعية الأخلاقية(١).

القسم الثانى: هو ما يقرره المجتمع من عقاب للمنحرف ومكافأة للصالح:

فقد قرر الإسلام عقوبات مختلفة للمنحرف حسب جريمته، وطلب من المجتمع تنفيذها: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]؛ وذلك لأن الجزاء الجماعى أشد وقعًا على النفوس، ثم إنه يكشف للناس الفاسقين والفاجرين، والفاسق إذا عرف أن

(١) مكرم سمعان، مشكلة الانتحار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٩١؛ ودور كايم، التربية الأخلاقية، ترجمة: د. السيد محمد البدوى، مكتبة مصر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٤٣.

الناس كشفوا فسقه يذل نفسه ويحتقرها أكثر مما لو لم يعرف الناس حقيقته؛ ولهذا شدد الله عقوبة هؤلاء المفسدين فقال: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

«وهكذا نرى أن العقاب حق المجتمع من جهة، وحق الله من جهة أخرى، حق المجتمع باعتبار أن المجرم قد تعدى على حرمات المجتمع؛ ولأن ضرر الجريمة لاحق بالمجتمع، والجريمة مرض فى جسم المجتمع، فإذا لم يعالجه فسينتشر فيه يومًا بعد يوم حتى إذا عمه ذلك يستعصى على العلاج، ويكون سببًا لهلاك الجميع، وهو يعتبر حق الله من جهة؛ لأن المجرم قد تعدى بجريمته حدود الله، وعصى أوامره فلله أن يجازيه، وليس هذا جزاءه الكامل، بل جزاؤه الكامل سيكون فى الآخرة»(١).

القسم الثالث: الجزء الأدبى:

وهو عدم الاعتداد بشخصية الفاسقين وعدم الثقة بهم، وعدم قبول شهادتهم، يقول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

وهذا الجزاء ليس أمرًا سهلا؛ ذلك أن المجرم يفقد عندئذ شخصيته الأدبية فى المجتمع كإنسان يعتمد عليه ويوثق به، زد على ذلك أنه لا يجد الاحترام والقبول من الناس كما كان من قبل، وهذا أمر صعب على النفس الإنسانية، وبصفة خاصة على الذين يتمتعون بالإحساس الأدبى الرفيع فى مجتمعهم.

(١) الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٦٧.

وبمقابل إسقاط القيمة الأدبية للفاسقين أمر الإسلام برفع القيمة الأدبية للصالحين، ورفع درجاتهم بحسب درجة صلاحهم وأخلاقهم، فقال الرسول ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»[1]، ثم دعا إلى التعامل مع الصالحين، فقال ﷺ: «إنما الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[2]، بل أكثر من هذا فقد أوصى الرسول ﷺ بعدم التسليم على فاسق[3]، ومعلوم أن الرسول ﷺ أمر أصحابه بمقاطعة الذين تخلفوا عن الحرب حتى ضاقت أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وعلى هذا يمكننا أن نستخلص الخصائص الأخلاقية الإسلامية المتعلقة بالجزاء، وهي:

١- أن الإسلام ربط الأخلاق بالجزاء ربطًا لا انفصام له؛ سواء كان هذا الجزاء عاجلاً أو آجلاً، فالجزاء نتيجة تنتجها الأخلاق كما تنتج الشجرة الثمرة.

وربط الأخلاق بالجزاء أمر ضروري؛ لأنه يزيد قيمة الأخلاق كما تزيد قيمة الشجرة ثمرتها.

وبذلك اختلفت الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق الكانطية -مثلا- التي لا تربط الأخلاق بالجزاء والمكافأة. والأخلاق من غير جزاء ومكافأة جافة لا طعم فيها، وهي قليلة الفائدة ناقصة القيمة.

---

(١) سنن أبي داود، ٤/ ٢٦١.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٢٦٢٨)، ٤/ ٢٠٢٦.

(٣) البخاري، الأدب المفرد، باب لا يسلم على فاسق، حديث (١٠١٧-١٠٢٠)، ص ٢٦٣.

٢- أن الإسلام راعى فى الجزاء الأخلاقى الطبيعة الإنسانية، فللإنسان جانب مادى، وجانب معنوى فى طبيعته، وقد راعى الإسلام الجانبين معًا عندما قرر للسلوك الأخلاقى الجزاء المادى والمعنوى.

٣- ربط الإسلام مصير الإنسان من حيث السعادة والشقاوة فى الحياة الدنيا والآخرة بالعمل الأخلاقى؛ فنتيجة الأخلاق الحسنة السعادة فى الحياتين، ونتيجة الأخلاق السيئة الشقاوة والتعاسة فى الدارين معًا.

وبذلك تميزت الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق النفعية -أيضًا- إذ إن هذه الأخيرة ربطت الأخلاق بالمنافع المادية الدنيوية، وجعلتها وسيلة لها فحسب. كما تميزت عن الأخلاق الكانطية التى لا تربط الأخلاق بالجزاء إطلاقًا؛ لأنها ترى أن الأخلاق يجب أن تطبق بصرف النظر عما يترتب عليها من جزاء أو مكافأة. فإن مثل هذه الأخلاق لا تصلح لجميع الفئات، والأخلاق الإسلامية جاءت لجميع الفئات مراعية لجميع النفوس ولجميع الفروق الفردية.

«وقيمة كل مبدأ تقاس بمدى ما يجلبه لأكبر قدر ممكن من الناس من الخيرات -بصفة عامة- ولهذا كانت المبادئ الأخلاقية التى جاء بها الإسلام أصلح المبادئ للناس»[(١)]، وصدق الله العظيم إذ يقول معبرًا عن عظمة الأخلاق التى كان عليها الرسول ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ومن اتبع أصلح الأخلاق وأكملها لا يضل فى هذه الحياة ولا يشقى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

❀❀❀

(١) التربية الأخلاقية الإسلامية، مرجع سابق، ص ٣٧٤.

الباب الثانى

فلسفة الإسلام في تشريع العقوبات

الفصل الأول: فلسفة الإسلام فى تشريع العقوبات.

الفصل الثانى: الحدود.

الفصل الثالث: القصاص.

مقدمة

أنزل الله الكتب، وشرع الشرائع وحد حدودًا، وأرسل الرسل؛ لهداية الناس ودعوتهم إلى الله -عز وجل-، وجعل شريعة الإسلام ورسالته هى الخاتمة، وصالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان. تلك الصلاحية التى من شأنها أن يتسم الإسلام بصفات المرونة والاستطاعة، بما يتفق وإمكانية التطبيق على اختلاف الزمان والمكان.

السماحة واحدة من تلك السمات، فالإسلام دين السماحة حتى فى ثوابت الدين وأركان العقيدة، فالصلاة تقصر فى السفر، والمريض يستطيع أن يصلى قاعدًا أو على جنبه، والزكاة لا تؤدى إلى على الأغنياء، وهى قليلة، والصيام يسقط عن فئات، ويؤجل فى ظروف، والحج فرض على المستطاع.

كذلك يتسم الإسلام بالسماحة حتى فى مواطن الشدة؛ فقد أنزل الله التعاليم وقال للمسلم: «افعل ولا تفعل»، ورغبه فيما يصلحه، وحذره فيما يهلكه، وهو أعلم بنا من أنفسنا، وأعلم بما يصلحنا ويفسدنا، فقد حرم الله الزنا وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ وعلل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وشدد على الأخذ على يد المعتدين فلا هوادة فى إقامة الحدود؛ ليصلح المجتمع، وتسير الحياة. وهذه الأعمال مستطاعة، ففى استطاعة المرء أن يجتنب الزنا والسرقة وغيرها مما يوجب العقوبة والحد، وليست بمستحيلة.

رغم كل ذلك فقد تسامح الله فى هذه الحدود؛ فوضع شروطًا تكاد تكون صعبة التحقيق حتى يقع الحد على الإنسان؛ فالزنا لا يقام إلا بأربعة شهود عدول رأوا الزنا جميعًا، وهذا يصعب أن يحدث، وفى كل الحدود يبين ذلك. فوضع شروطًا للزمان وأخرى للمكان وثالثة تتصل بالإنسان، وفصل

فى المسئولية الجنائيـة ورفعها عن بعض الفئات، بل أكثـر من ذلك فقد تسقط العقوبة فى ظروف مـعينة، وقبل ذلك وخلاله وبعـده يشدد الإسلام على أن ذلك لمصلحة الجـماعة المسلمة، وحـماية المجتمع. وذلك حـتى يكون الباب مفتوحًا دائمًـا وأبدًا للتوبة؛ لتكون بمنزلة الممحاة التى تمحى الذنوب واللآثام، ولتكون نافذة النـور التى يطمع فيهـا الطائع، ولا ييأس منهـا العاصى. تلك التوبة التى تغـير حياة الإنسـان، وتجدد الدماء فى عروقـه؛ ليقترب أكـثر من الخالق، فـيعلم مـقدار عظمـته وحلمـه، ليزداد له حـبًا، ويقر له بالـطاعة، ويستحيى منه أن يراه على معصـية بعد ذلك. على هذه الأسس قامت فلسفة تشريع العـقوبات فى الإسلام، وقـبل الخوض فـيها لابد وأن نؤكـد أنها فى مصلحة الجميع ليبق المرء زاجرًا لنفسه.

❀❀❀

تمهيد

للمصلحة العامة:

أولاً وقبل كل شىء لابد وأن نذكر أن الله لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى بل «**لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا، ولو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك فى ملكى شيئًا**»، فالله تعالى غنى عنا، لم يخلقنا ليستأنس بنا من وحشة، ولا ليستكثر بنا من قلة، ولا ليستعين بنا على شىء عجز عنه، حاشا لله الملك القهار، ولذلك حين يشرع لنا هذه الحدود لابد وأن تعى أنها فى مصلحتنا.

كذلك لابد وأن نتذكر قوله ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**»، فما يشتهيه الإنسان ويرغبه فإنما هو سم فى العسل، وإنما طلبت الجنة بالرياضة والمجاهدة، فثقيل على النفس الاستيقاظ لأداء الفجر فى جو قارس، وثقيل عليها إخراج مالها فى سبيل الله، وثقيل عليها ترك الأهل والولد والتجرد لأداء الحج فى زحام شديد وحر أشد، وإنه لثقيل أن يسير الإنسان على منهج «افعل ولا تفعل»، وما أخف عليها ترك الصلاة، ومنع الزكاة، واتباع الأهواء، والغرق فى الشهوات والملذات؛ فمن أراد الجنة «ألا إن سلعة الله غالية» و«من يخطب الحسناء لم يغلها المهر» ومن أراد النار، فذلك أيسر، ما عليه إلا اتباع هواه وشهواته، وترك العنان لشيطانه.

وضع الله تلك الحدود والعقوبات لا لتقام على المتعدى فقط، بل قبل ذلك لتمنع وقوع هذه الجرائم؛ فالسارق إن تذكر قطع يده امتنع عن السرقة، والزانى يخاف القتل، لا يقترب، والمرتد إن علم أنه لن يبق طويلاً لن يجرؤ فقد وضع الله الحدود لمنع حدوث الجرائم قبل أن يعاقب عليها.

وتجدر الإشارة إلى أن مقصد تلك الحدود هى المصلحة العامة؛ فقد حرم الله السرقة، حرمها عليك وعلى غيرك، حماية لك فى المقام الأول وحماية المجتمع، فقد منع كل الناس من سرقتك، فى مقابل أن تمتنع عن سرقة رجل واحد، أترى كم أنت فائز؟! رجل فى مقابل كل الناس.

وقد وضع الله تلك الحدود لزجر الناس عن الوقوع فى المحرمات، فإذا قال الله ﴿لا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾، فإن هذا الأمر أو النهى ليس كافيًا لمنع الزنا؛ لأن كثيرًا من الناس ضعف وازعها الدينى، فهى لا تؤمر وتنهى بل تُخَوِّف بالعقاب والزجر.

«والشريعة الغراء تهدف إلى المصلحة العامة، فهذه الجرائم هى فى ذاتها مصالح فردية، فى حين أن هذه الحدود هى مفاسد؛ فقد يكون فى مصلحة الفرد أن يسرق ويمنع الزكاة وأن يشرب الخمر، ولكنها فى ميزان المجتمع مفاسد، فإن فعلها المجتمع كله فسد واستوجب العقاب.

وهذه الحدود هى مفاسد، فليس فى مصلحة الفرد أن يقتل أو تقطع يده ولكنها فى ميزان المجتمع مصالح؛ فإن أقامها المجتمع حُفظ وصلح واستوجب الرحمة فكل المصلحة فى هذه الحدود، وليست إجبارًا للالتزام الأخلاقى، ولا انتهاكًا لحقوق الإنسان التى يتشدقون بها.

ولأنه لا عقاب دون إعلام بحرمة، فليس من المعقول أن يحاسب المرء على شىء لا يعلم بحرمته، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. فقد أعلمنا الله فى كتابه وسنة نبيه بوجوب الابتعاد عن تلك المحرمات، وأقام علينا الحجة، الدور علينا الآن أن نمتنع عن هذه المحرمات.. للمصلحة العامة»[1].

❀❀❀

(١) التشريع الجنائى الإسلامى مقارنة بالقانون الوضعى، ١/ ٦٨ وما بعدها، بتصرف.

الفصل الأول:

فلسفة الإسلام في تشريع العقوبات

أوضحنا سابقًا أن فلسفة الإسلام فى تشريع العقوبات تقوم على السماحة واليسر، وفتح الباب للتوبة، فليس فى مصلحة الشريعة أن يقطع أيدى الناس، لذلك وضع الله حدودًا لتطبيق الحدود، فليس بمجرد إثبات السرقة تقطع يد السارق، هناك ضوابط، وهناك شروط لإقامة تلك الحدود، منها ما يتصل بالزمان ومنها ما يتصل بالمكان، ومنها ما يتصل بالفرد «يشترط للعقاب على الفعل المحرم أن يكون النص الذى حرمه نافذ المفعول وقت اقترفه الفعل، وأن يكون ساريًا على المكان الذى اقترف فيه الفعل، وعلى الشخص الذى اقترفه، فإذا تخلف شرط من هذه الشروط امتنع العقاب على الفعل المحرم»[1].

وفيما يلى نتناول هذه الجوانب[2]:

(١) التشريع الجنائى الإسلامى مقارنة بالقانون الوضعى، ١/ ١١٢.

(٢) هذه التقسيمات استفدناها من الأستاذ عبد القادر عودة، التشريع الجنائى الإسلامى مقارنة بالقانون الوضعى ١/ ٢٦١ وما بعدها.

المبحث الأول

سريان النصوص الجنائية على الزمان

من القواعد الشرعية المعمول بها أن «النصوص الجنائية لا تسرى إلى بعد صدورها وعلم الناس بها»[1] «فتطبيق حد من الحدود على المعتدى لابد وأن يكون اعتداءه بعد صدور حكم الذنب وعلم الناس به، فلا يعاقب المعتدى بقانون وحكم صدر بعد جريمته، أى لا يحكم الإسلام بأثر رجعى، وما حكم فى الإسلام بأثر رجعى كان فى جرائم خطيرة تمس هيكل الأمة مثل حد القذف الذى طبقه رسول الله على من رموا زوجه عائشة بالفاحشة، وقد نزل الحد بعد وقوع الخوض فى عرض أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- فمكث النبى ﷺ شهرًا حتى نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١] واقتضى العمل بالحد بأثر رجعى؛ لأنه يمس شخص رسول الله، ولأنه هدد المجتمع الإسلامى بالشقاق ووقوع القتال.

فالحد لا يطبق على جرائم وقعت قبل نزوله، فقد قال تعالى فى تحريم زوجة الأب: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] فحرم زوجة الأب، ونبه إلى أن ما وقع من زواج زوجة الأب قبل نزول الحكم معفى عنه ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وقال فى تحريم الجمع بين الأختين ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فحرم الجمع ونبه على العفو على ما وقع قبل ذلك، وليس معنى هذا ألا يفرق بينهما، فإن ذلك يفيد التفرقة بينهما، ولكن لا يوجب العقوبة؛ لصدور الحكم بعد وقوع الذنب[2].

❀❀❀

(١) نفسه ١/ ٢٦١.

(٢) التشريع الجنائى الإسلامى، ١/ ٢٦٢ وما بعدها، بتصرف.

المبحث الثاني

سريان النصوص الجنائية على المكان

من البديهى والمعلوم من الدين بالضرورة لنا نحن المسلمين أن شريعة الإسلام عالمية تشمل كل بقاع العالم، وصالحة لكل زمان ومكان، ولابد وأن تطبق على كل شبر من الأرض، ولكن الواقع يقول غير ذلك فهناك الكثير من غير المسلمين، وهناك الكثير من الدول التى لا تدين بالشريعة الإسلامية، لذا ومن أجل ذلك تقسم سريان النصوص على الأماكن إلى قسمين **الأول:** ديار الإسلام، وتشمل «البلدان التى تظهر فيها أحكام الإسلام أو يستطيع سكانها المسلمون أن يظهروا فيها أحكام الإسلام، فيدخل فى دار الإسلام كل بلد سكانه كلهم أو أغلبهم مسلمون، وكل بلد يتسلط عليه المسلمون ويحكمونه، ولو عليه غير المسلمين مادام فيه سكان مسلمون يظهرون أحكام الإسلام، أو لا يوجد لديهم ما يمنعهم من إظهار أحكام الإسلام»[1].

«وكل سكان دار الإسلام معصومو الدم بالإيمان والأمان؛ بالإيمان للمسلمين منهم لقوله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله الله وأن محمداً رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»** وإما بالأمان لغير المسلمين منهم. وهناك أمان أبدى ومؤقت، أبدى للذميين الذين يقيمون فى ديار الإسلام إقامة أبدية، ومؤقت ويسمون المستأمنين لغير المسلمين الذين يقيمون مدة محددة سواء للسياحة أو التجارة أو المرور عبر الأراضى الإسلامية، وهم مستأمنون»[2].

الثانى: دار الحرب: «وتشمل كل البلاد غير الإسلامية التى لا تدخل تحت سلطان المسلمين أو لا تظهر فيها أحكام الإسلام سواء كانت هذه البلاد

(١) التشريع الجنائى الإسلامى مقارنة بالقانون الوضعى، ١/ ٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٢٧٦، بتصرف.

تحكمها دولة واحدة أو تحكمها دول متعددة، ويستوى أن يكون بين سكانها المقيمين بها إقامة دائمة مسلمين أو لا يكون، ما دام المسلمون عاجزين عن إظهار أحكام الإسلام»[1].

ولا يجوز أن يدخل الحربى ديار الإسلام إلا بعهد، فإن دخلها بعهد فهو مستأمن، وإلا فهو حلال الدم والمال، إلا إذا رأى أن يقيم فيها إقامة دائمة فإنه يصير من الذميين، كما أن المسلم والذمى إذا دخلا دار الحرب فإن دمهما مباح. والقاعدة الشرعية تقول بإقامة الحدود على الجرائم الواقعة فى دار الإسلام أيًا كان مرتكبها، فالمسلم يلتزم بأحكام الشريعة والذمى ملتزم بها بعقد الذمة، والمستأمن ملتزم بها بطلبه الأمان[2].

«وتطبق الحدود على المسلم والذمى إذا ارتكبا جريمة فى دار الحرب؛ لأن اختلاف الأرض لا يؤثر فى طبيعة المرء، فالمسلم ملتزم بالشريعة فى كل مكان، وكذلك الذمى مادام مرتبط بعقد الذمة، حتى وإن ارتكبا جريمة هى حلال فى دار الحرب كالربا. كذلك لا تقام الحدود فى أرض الحرب، فقد حبس سعد بن أبى وقاص أبا محجن الثقفى لما شرب الخمر قبل معركة القادسية ولم يقيم عليه الحد.

وجملة، تطبق الحدود على الجرائم الواقعة فى دار الإسلام أيًا كان مرتكبها، وتطبق الحدود على الجرائم الواقعة فى دار الحرب إن قام بها مسلم أو ذمى إلا أن ينخلع من عقد الذمة ويصير محاربًا، وتطبق الحدود على المستأمن فى ديار الإسلام، أما ما يرتكبه فى دار الحرب فلا يعاقب عليها إذا دخل دار الإسلام»[3].

❀❀❀

(١) نفسه، ١/ ٢٧٧.

(٢) نفسه، ١/ ٢٨٧ بتصرف.

(٣) نفسه، ١/ ٢٨٢ وما بعدها، بتصرف.

المبحث الثالث

سريان النصوص الجنائية على الأشخاص

تقرر الشريعة الإسلامية سريان النصوص الجنائية على كل الأشخاص، فالكل سواء، فلا تفرقة بين غنى وفقير أو شريف ووضيع أو رئيس ومرءوس، والقرآن وهو ينزل على رسول الله ﷺ كان يقرر مبدأ المساواة، ويشدد عليه، بل إن سادة قريش منعتهم الأنفة -من أن يكونوا على قدم المساواة مع العبيد- من دخول الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال يشدد على كون المصطفى ﷺ بشرًا وإنما هو يوحى إليه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال المصطفى ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» وقال: «إن الله قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرهم بآبائهم، لأن الناس من آدم، وآدم من تراب وأكرمهم عند الله أتقاهم» لذلك كان من الحكمة أن يكون الجميع سواء أمام القانون الإلهى، وقصة المرأة المخزومية التى سرقت فى ذلك مشهورة، فقد ذهب أهلها إلى أسامة بن زيد ليشفع لها عند رسول الله، فغضب واحمر وجهه وقال: «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة، ثم صعد فخطب إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد» ثم يقرر بعد ذلك القاعدة الجوهرية فى تطبيق الحدود فى الإسلام: «وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

فلا محاباة فى الإسلام لشريف ولا رئيس، حتى وإن كان من أصحاب المصطفى ﷺ. يذكرنا ذلك بالسباق الذى حدث بين القبطى فى مصر وابنٌ

لعمرو بن العاص فسبق القبطى فضربه ابن عمرو وقال: «أتسبقنى وأنا ابن الأكرمين» ولما كان القبطى يعلم أن شريعة الإسلام لا تقبل المحاباة طلب القصاص عند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، الذى استدعى بدوره الولد وأباه وقال: «اضرب ابن الأكرمين» وقال القاعدة التى ستبقى شاهدًا على عظمة ذلك القانون: «يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

بل كان عمر بن الخطاب يقود من نفسه، ويقول: «كيف لا وقد كان أبو بكر الصديق يقود من نفسه ورسول الله كان يقود من نفسه» بل إن عمر بن الخطاب أمير لمؤمنين لما استشهد، وقتل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، الهرمزان؛ لضلوعه فى قتل أمير المؤمنين الفاروق عمر، واستخلف عثمان بن عفان، أبى محاباة أحد على حساب الشرع، فأعطى ولد الهرمزان الإذن بقتل عبيد الله بن عمر قصاصًا، وتحسر الناس وتكلموا: «أيقتل أمير المؤمنين بالأمس ويقتل ابنه اليوم» فلما رأى الذمى نفسه وهو فى دار الإسلام، وبين المسلمين، يحمل سيفًا ليقتل ابن أمير المؤمنين، ولا يمنعه أحدًا عفا عنه». فما عاد إلى بيته -ولد الهرمزان- إلا على رقاب الناس» تلك هى شريعتنا الغراء التى قررت مبدأ المساواة قبل أن تنادى به أوروبا بأكثر من ألف عام، ولكننا قوم مغبونون.

❀❀❀

المبحث الرابع

المسئولية الجنائية

يرتبط هذا المحور بمن تقع عليه مسئولية الجريمة؟

قررت الشريعة الإسلامية منذ نزولها أن الجريمة تقع على الحى المكلف، فقد قرر سبحانه أنه: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: ٣٨] ونفى المسئولية عن المكره، فقال فى عمار بن ياسر وقد نطق -مكرهًا- بكلمة الكفر: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال ينفى المسئولية عن المضطر: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وامتد ذلك إلى السنة النبوية المطهرة، فقال المصطفى ﷺ ينفى المسئولية عن الصبى والنائم والمجنون: «**رفع القلم عن ثلاث: عن الصبى حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق**»، وقال يوسع تلك الدائرة: «**رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**» وهكذا، ومن هذا تتسق الشريعة الغراء على موازين العقل والفطرة. ولا يقدح فيها وجود فترات سوداء فى مجتمع الإسلام لا يأخذ بهذه القوانين بل يأخذ الكبير بالصغير والظاعن بالمقيم ولا يبقى على أحد، فإن ذلك لا يعنى خطأ فى الشريعة، وإنما يعنى سوء فهم ومعاندة عن تطبيقه.

وتقوم المسئولية الجنائية بشروط:

١- الوقوع فى فعل محرم.

٢-الإدراك.

٣- الاختيار، فإذا انعدم أحدهم سقطت المسئولية.

المطلب الأول

سبب المسئولية وشروطها

«تقرر الشريعة الإسلامية أن سبب المسئولية هو ارتكاب المعاصى والتعدى على حدود الله بعد علمها.

شروط المسئولية: لا تقع المسئولية إلا بشرطين:

١- الإدراك.

٢- الاختيار.

أن يكون الشخص مدركًا عاقلاً أبعاد فعله وحرمته، فلا مسئولية على مجنون.

وأن يكون مخيرًا، لم يجبره أحد على ارتكاب المعاصى، فلا مسئولية على مكره»[١].

«فإذا قتل الرجل، فإنه بذلك قد خرج عن تعاليم الله وشرعة وهو بذلك قد ارتكب سبب المسئولية، إلا أنه لا يقام عليه الحد إلا بتوفر الشرطين فإن قتل وهو خارج دائرة الإدارك كأن يكون مجنونًا أو صبيًا أو كسيرًا فلا مسئولية عليه، وإن ارتكب القتل وهو مدرك ذلك، ننظر فإن كان مختارًا، عالمًا بالعاقبة وقد أعماه العصيان، وجب عليه الحد، وإن لم يكن كذلك فلا مسئولية عليه»[٢] وهكذا يحدد الشرع بدقة أسباب المسئولية وشروطها حتى يتضح الأمر وضوحًا لا لبس فيه؛ لأنه يتصل باستمرار المجتمع أو هلاكه، وحياة الإنسان الذى هو مناط الشريعة.

❀❀❀

(١) التشريع الجنائى، ١/ ٤٠٢ بتصرف.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٤٠٣ بتصرف.

المطلب الثانى

محل المسئولية

«بتطبيق شروط المسئولية، نتبين أن محل المسئولية هو الإنسان وحده، فلا مسئولية على حيوان، ولا جماد، وكذلك لابد وأن يكون الإنسان حيًا، فلا مسئولية على ميت، ومعروف أن الموت يسقط التكاليف، وكذلك لا مسئولية على مكره أو مجنون أو صبى لا يميز أو يعقل، وتقع المسئولية حتى لو كان المجنى عليه غير مدرك، فإنه ليس مسئولاً، فهو من وقع عليه الاعتداء، كالصبى أو النائم و المجنون»(١).

«يتصل بذلك أيضًا الشخصيات المعنوية كالبنوك والعقارات وغيرها، فإنها أهل للتملك والتصرف، إلا أنها ليست أهلاً للمسئولية الجنائية؛ لأنها فاقدة الإدراك والاختيار، وإنما تقع المسئولية على العاملين بهذه الجهة، فمثلاً إذا كان هناك مدير لبنك من البنوك وسرق واختلس منه، لا تسقط عنه المسئولية الجنائية رغم أن المجنى عليه غير مدرك.

كذلك إذا ارتكب هذا المدير جريمة باسم البنك الذى يعمل لحسابه، فإنه يعاقب كمؤسسة لا كفرد عادى، فينزل العقاب على البنك، ولا أقصد بالعقاب هنا الجلد أو الرجم، وإنما يتصل ذلك بالهدم والمصادرة، وللفقهاء تقدير مثل هذه الأمور.

وهكذا سبق التشريع الإسلامى القوانين الوضعية التى جعلت الجماد محلاً للمسئولية الجنائية، فقد جلد زركسيس البحر؛ لأنه حطم المعبر الذى أعده لجيشه للعبور إلى أوروبا عبر البسفور»(٢).

❀❀❀

(١) التشريع الجنائى، ١/ ٣٩٣ بتصرف.

(٢) نفسه، ١/ ٣٩٣ وما بعدها بتصرف.

المطلب الثالث

شخصية المسئولية

«تنطلق شخصية المسئولية من نصوص قررتها الشريعة الإسلامية، فمن القرآن قال تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٨، ٣٩]، وقال: «ولا تكسب كل نفس إلا عليها» [الأنعام: ١٦٤] وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

ومن السنة قوله ﷺ: «لا يؤخذ الرجل بجريرة أبيه ولا بجريرة أخيه» ومن هذه النصوص نتبين أن المسئولية شخصية، فلا يحمل أحد وزر أحد، ولا يحاكم أحد بجريمة اقترفها غيره، مهما كانت درجة الصلة بينهما»[1].

ويتسق الإسلام فى ذلك مع مقتضيات العقل، فليس من المعقول أن أحاسب على عمل لم أعمله، فإذا سَرَقَ أخى لِمَ تقطع يدى أنا؟ وإذا قَتَلَ أبى لِمَ أُقْتَل أنا؟

وهذا يعضد مدى رغبة الإسلام فى استقامة المجتمع، فليس هدف الإسلام أن يوقع العقوبات لمجرد الإرهاب، أو لمجرد تنفيذها، وإنما شرعت العقوبات لحفظ المجتمع، وعقاب المسىء، وتخويف غيره.

فالله تعالى لم يأخذ عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول بجريرة والده المنافق فهو ليس مسئولاً عن فعل أبيه، وقد كان ينكره، حتى أنه عرض على رسول الله قتل والده إن أراد.

وهكذا وفى كل قانون من قوانين الشرع يظهر مدى احترام تلك الشريعة العقل والتفكير السوى، ويؤكد صلاحيتها لكل زمان ومكان، وأهليتها أن تسود.

❀❀❀

(١) نفس المصدر، ١/ ٣٩٤ بتصرف يسير.

المطلب الرابع

أثر الجهل والخطأ والنسيان

من المعلوم شرعًا أن المرء لا يحاسب على فعل ارتكبه إلا بعد أن يعلم حرمته، فلا يحاسب على شىء لا يعلم أنه محرم، ويكفى بالعلم إمكان التعرف إليه، فإذا توافرت السبل لمعرفة الحكم الفقهى فى شىء كان عالمًا به حتى لو لم يعلم؛ لأنه «يعتبر المكلف عالمًا بالأحكام بإمكان العلم لا بتحقيق العلم فعلاً، ومن ثم يعتبر النص المحرم معلومًا للكافة ولو أن أغلبهم لم يطلع عليه أو يعلم عنه شيئًا مادام العلم به كان ممكنًا لهم»(١).

ونحن الأن فى مجتمع توسعت فيه وسائل المعرفة، فالكتب متوفرة، والشرائط موجودة، ووسائل الاتصال سواء الهاتف منها أو الإنترنت وغيرها من الوسائل التى نستطيع من خلالها معرفة الحكم الشرعى.

أما الخطأ فقد قررت النصوص الشرعية أن المسئولية تقع على الفعل المتعمد، والمخطئ معفى من ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ [النساء: ٩٢] وقال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥] وقال: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقول المصطفى ﷺ: «رفع عن أمتى الخطأ...»، ويحدث الخطأ عادة لعدم التثبت والحيطة، وليس معنى عدم معاقبة المخطئ أن يتكأ الناس على ذلك، أو أن يتركوا التثبت، فقد تقتضى الضرورة فى أحيان معينة معاقبة المخطأ.

(١) التشريع الجنائى الإسلامى مقارنة بالقانون الوضعى، ١/ ٤٣٠، ٤٣١.

أما النسيان فقد قررت النصوص السابقة أنه يعفى من المسئولية الجنائية قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال -ﷺ-: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان» وكثيرًا ما يقرن القرآن والسنة بين الخطأ والنسيان، إلا أن الناسى لا تسقط عنه الواجبات، فلا يسقط عنه الصوم لنسيانه، بل إذا أكل وشرب فعليه أن يكمل، ولا تسقط عنه الصلاة لأنه نسى، كذلك لا يؤخذ بالنسيان فى الواجبات الدنيوية، لأنها لا يمكن أن ينسى فيها الإنسان، فلا يأخذ مالاً من أحد وينسى أنه أخذه، وعليه أن يثبت بدليل ما أنه نسى.

❀❀❀

المطلب الخامس

رفع المسئولية

«بينا سابقًا أن المسئولية تقوم على:

١- الوقوع فى محرم

٢- الإدراك.

٣- الاختيار.

فإذا انعدم أحدهم سقطت المسئولية، فلا مسئولية جنائية على فعل هو حلال شرعًا، ولا مسئولية على مجنون أو صغير السن أو سكير، وكذلك لا مسئولية على مكره»(١).

«فرفع المسئولية إما يتصل بالفعل أو الفاعل، فقد يتصل بالفعل لكون الفعل حلالاً، ليس معاقب عليه أصلاً -وقد يتصل بالفاعل، فإنه يعفى من المسئولية رغم اقترافه محرمًا، إلا أن باقى الأركان لم تتحقق، فهى ليست حلقه بل هى سلسلة يجب أن تأخذ كلها وحدة واحدة.

بل إن الإسلام قد أباح ارتكاب المحرم فى ظروف خاصة؛ فالقتل حرام فى الإسلام، ولكن أباح الله قتل القاتل والزانى المحصن والمحارب، فلا مسئولية على قاتل هؤلاء بل أكثر من ذلك، فقد يرتكب الإنسان الجريمة وهو مدرك ومختار ثم لا يقع عليه العقاب، وذلك فى الحرابة فقط، فإذا تاب المحارب قبل القدرة عليه فلا مسئولية عليه. أترى كم تتسم الشريعة بالسماحة واليسر حتى فى الحدود؟!»(٢).

❀❀❀

(١) نفسه، ١/ ٤٦٧ بتصرف.

(٢) نفسه، ١/ ٤٦٧ وما بعدها، بتصرف.

المبحث الخامس

العقوبة

هى الجزاء الواقع على الإنسان نتيجة اقترافه محرم شرعًا.

المطلب الأول

«شروط العقوبة»[1]

«لابد وأن تتوفر شروط للعقوبة الموقعة على الجانى وهى:

١- الشرعية: وهى أن يكون لهذه العقوبة دليل شرعى سواء من الكتاب أو السنة أو إجماع الفقهاء أو القياس. ولا يجوز للقاضى أن يوقع عقوبة من تلقاء نفسه لأى سبب.

ب- الشخصية: وهى أن تختص بالجانى فقط ولا تتعداه لغيره، فلا يؤخذ أحد بجريمة غيره مهما كانت صلته به.

جـ- عامة: وهى أن تقع على كل الناس بلا تفرقة، فالمساواة فى العقوبة شرطًا لها سواء أكان شريفًا أم وضيعًا، عظيمًا أم حقيرًا، حاكمًا أم محكومًا، فالمساواة من المبادئ التى ترتكز عليها الشريعة[2].

وقد حد الإسلام من سلطة القاضى، فما هو إلا منفذ، فالعقوبات إما حدود وقصاص وتعزيز، «فالحدود والقصاص عقوبات مقدرة معينة ليس للقاضى حيالها من سلطان إلا أن يحكم بتطبيقها، دون أن يستطيع تخفيفها أو تشديدها»[3].

---

(١) استفدنا هذه التقسيمات من الأستاذ عبد القادر عودة، التشريع الجنائى الإسلامى مقارنة بالقانون الوضعى، ١/ ٦٠٩ وما بعدها.

(٢) التشريع الجنائى، ١/ ٦٢٩، بتصرف يسير.

(٣) المصدر نفسه، ١/ ٦٢٩.

المطلب الثانى

استيفاء العقوبة

استيفاء العقوبة تعنى: من يقوم بتوقيع العقوبة على الجانى، أو من ينفذ هذه العقوبة عليه.

«يكون استيفاء العقوبة حسب نوع الجريمة؛ فإن كانت من جرائم الحدود، وجب أن يلى الإمام أو نائبه إقامة العقوبة؛ لأنها حد الله، ولا يشترط حضور الإمام ويكفى إذنه فى ذلك.

أما إذا كانت من جرائم القصاص، فللإمام أن يقيم العقوبة، والأولى صاحب الدم أو المجنى عليه، لقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، فجرائم القصاص هى حق العبد، وهو الأولى أن يقتص من الجانى»(١).

وينبثق ذلك من علم الله الحكيم ببواطن النفس البشرية؛ فجرائم الحدود تتصل بحدود الله أولاً، لذا وجب على الإمام الذى هو خليفة الله فى الأرض ليعمرها، المنوط به أولاً وقبل أى فرد إقامة الشريعة وتطبيقها، فهو سيف الله الذى يضرب به.

أما جرائم القصاص فهى تتصل بحق الفرد، فإذا أخذ قصاصه بيده، أو أخذ قصاص أبيه بيده، فإن نفسه تسكن، وثورته تهدأ، وينتهى مسلسل الجرائم. أما إذا كان الحاكم هو من يأخذ القصاص، فإن ولى الدم أو المجنى عليه يحس أنه لم يستفد شيئًا، وأن عليه أن يقتص من الجانى بنفسه بعد ذلك، فهو الأحق بالقصاص. مما يسبب الفساد فى الأرض لكثرة القتل من الطرفين.

من هنا نعلم أن المنهج الإسلامى بلا أخطاء أو قصور؛ لأنه من لدن حكيم عليم.

---

(١) نفسه، ١/ ٧٥٥ بتصرف.

المطلب الثالث

صلاحية العقوبة

يرتبط ذلك بسؤال: هل العقوبات التى قررتها الشريعة صالحة لحفظ الأمن والمجتمع؟

نقول: إن الشرعية حين وضعت هذه العقوبات، تعترف أن عقوبات الحدود والقصاص شديدة؛ نظرًا لأنها تمس كيان المجتمع، وتهدد بالقضاء عليه، كما راعت الشريعة فى تقرير العقوبة شخصية الإنسان، فالإنسان بصفة عامة يسعى إلى ما ينفعه، ويحجم عما يضره، فإذا رأى المرء مصلحة فى تصرف ما فعله، وإذا رأى فيه مفسدة أحجم عنه، كذلك يرتكب الإنسان الجريمة لعلمه أنه سيربح من وراء ذلك، مثل جرائم القتل والسرقة ولكن إذا تذكر مثلاً فى جريمة القتل أنه لم يبقى طويلاً بعد الجريمة ليتمتع بما جناه فإنه يحجم؛ خوفًا على حياته التى لا يملك أعظم منها، وإذا تذكر فى جريمة السرقة أن يده ستقطع، فإنه يحجم عن السرقة، فما فائدة المال وقد فقد طرفًا، وهكذا كلما فكر فى جريمة وتذكر عقوبتها فإنه يرتدع، وكلما اشتدت العقوبة، قلت الجريمة.

ومن حكمة التشريع أن جعل تطبيق الحدود على ملأ من الناس، فإذا رأى الإنسان رجلاً يرجم حتى الموت، أو تقطع يده وتعلق فى رقبته، أو يقتل فإن لذلك أكبر الأثر فى ارتداعه إن فكر فى المحاولة، هذا على الجانب النفسى، أما على الجانب الاجتماعى فإن هذا الذى تعدى حدود الله سيفقد مكانته الاجتماعية ويتجنبه المجتمع «كأنه مطلعى به القار أجرب».

أما القوانين الوضعية التى تعاقب بالحبس والغرامة، فإن ذلك ليس رادعًا من ارتكاب الجرائم، فإن الجانى يرى أنه سيسجن قليلاً ثم يخرج، أو سيدفع

غرامة ضئيلة ويتمتع بالباقى، مما يجرأ الجناة على ارتكاب الجرائم، ويرهق ميزانية الدولة ببناء السجون ووضع الحراس لها، والإنفاق على إطعامهم بالكثير من النفقات، بل إن السجن ليس إصلاحًا وتهذيبًا، بل هو مدرسة تخرج المجرمين ومركز تدريب يتعلم فيه المجرمون الصغار أساليب جديدة للإجرام، وملتقى تعارف توفره الحكومة للمجرمين حتى إذا خرجوا تسنى لهم التنسيق فى ارتكاب جرائمهم.

كما أن ذلك يشجع بصورة كبيرة على ارتكاب الجرائم، فإنه يرى أن هذا السارق أو القاتل أو الزانى لم يعاقب، أو عوقب عقابًا لا يتناسب مع جريمته، مما يدفع ذلك إلى ارتكاب الجرائم عن رضاء وقناعة.

وهكذا فإن العقوبات الشرعية صالحة فى القضاء على الجريمة، وحماية الأخلاق، وحفظ المجتمع.

❀❀❀

المطلب الرابع

رفع العقوبة

أوضحنا قبل ذلك أن الشريعة توجب العقوبة إذا:

١- اقترف المرء فعلاً محرمًا.

٢- مدركًا.

٣- حرًا.

وترفع العقوبة لشىء فى الشخص، فإنه يقترف فعلاً محرمًا ولكنه لا يعاقب عليه لأنه يفتقد للإدراك والحرية، فترفع العقوبة عن المكره والسكير والمجنون وصغير السن.

«ويشترط فى المكره أن يكون ما يتوعده من المُكْرِه كافيًا لفعله المحرم، كأن يهدده بالقتل، وكذلك لابد أن يكون العقاب يوشك أن يقع عليه، فلا إكراه إذا كان الوعيد لاحقًا، ويشترط كذلك أن يكون المُكْرِه قادر على تنفيذ وعيده وليس مجرد تهديد.

ننبه أنه لا إكراه فى قتل أو قطع طريق؛ لأنه ليس مستساغًا أن تقتل رجلاً آخر حتى لا تتعرض أنت للقتل.

والسكير إذا تناول الخمر مختاراً عالمًا أنها خمر، فإنه مسئول عن تصرفاته ويعاقب إن ارتكب الجرائم؛ لأن أزال عقله مختارًا، ولأنه إن لم توقع عليه العقوبة كان ذلك مدعاة إلى تكرار الشرب، وهذا هو الرأى الراجح.

والمجنون الذى ثبت جنونه وقت ارتكاب الجريمة، فإنه تسقط عنه العقوبة، مع التنبيه على حرمة فعله.

وكذلك الصبى تسقط عنه العقوبة طالما لم يبلغ خمسة عشر عامًا أو ثمانية عشر عامًا فى بعض الآراء، ويرجع هذا الخلاف إلى أنه مرتبط بالاحتلام وهو علامة البلوغ، فعادة ما يظهر فى الخامسة عشرة، ومن قال بثمانية عشر فهو على الانتظار ولا ييأس من وقوعه والأول أرجح»[1].

❀❀❀

(١) التشريع الجنائى ١٢/ ٥٦٣ وما بعدها، بتصرف.

المطلب الخامس

سقوط العقوبة

تسقط العقوبة لأسباب مختلفة نعرض لها كالتالى:

١- موت الجانى: «تسقط العقوبة بموت الجانى أيًا كانت تلك العقوبة؛ لأنه لا يعقل أن توقع العقوبة على غير الجانى، وموت الجانى يسقط أى عقوبة مقررة فى شخصه كالقصاص، أما إذا كانت العقوبة مالية فلا تسقط بموت الجانى»(١).

٢- فوات محل القصاص: «ويختص ذلك فى القصاص فيما دون النفس، فإذا جرح رجل رجلاً فقطع يده، ثم قطعت يد الجانى فى غير القصاص، فلا قصاص عليه وذلك لفوات محل القصاص (اليد)»(٢).

٣- توبة الجانى: يرتبط ذلك بالحرابة، فإذا تاب الجانى قبل القدرة عليه سقطت عنه العقوبة؛ لأنها تخص حق الله، أما ما كان للأفراد فلا تسقط قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

٤- الصلح: يرتبط ذلك بالقصاص والدية، والمقصود وقوع الصلح فى القصاص بما يتفق عليه الطرفان(٣).

---

(١) التشريع الجنائى، ١/ ٧٧٠ بتصرف يسير.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ٧٧٢ بتصرف يسير

(٣) التشريع الجنائى، ١/ ٧٧٤ بتصرف.

٥- العفو: يسقط العفو العقوبة فى جرائم دون أخرى، ففى الحدود لا تسقط العقوبة لأنها حد الله، حتى لو عفا المجنى عليه أو وليه، أو ولى الأمر، أما فى القصاص فأجاز الشرع للمجنى عليه أو ولى دمه العفو، فهو حق الفرد، وليس لولى الأمر أن يعفو(١).

قال تعالى: بعد أن فصل فى القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

٦- إرث القصاص: «تسقط عقوبة القصاص إذا ورث القصاص من ليس له أن يقتص، أو إذا كان الجانى نفسه وارثًا للقصاص أو بعضه مثل أن يرث القصاص ولده»(٢).

تلك كانت فلسفة تشريع العقوبات الجنائية فى الشريعة الإسلامية، توخينا فى عرضها السهولة والتوضيح وعدم الإطناب، وفيما يلى نتناول الحدود والقصاص بشىء من التفصيل.

❀❀❀

(١) بتصرف نفسه، ١/ ٧٧٤ بتصرف.

(٢) نفسه، ١/ ٧٧٨ بتصرف.

الفصل الثانى:

الحدود

مقدمة:

تقسم الجرائم حسب جسامة العقوبة عليها إلى:

١- الحدود.

٢- القصاص.

٣- التعازير.

وسوف نتناول بالشرح كلاً من الحدود والقصاص:

تعريف الحدود:

التعريف اللغوى: الحَدُّ هو «الحاجز بين شيئين»، وكأن الحد المقرر فى الشرع هو الحاجز القوى بين الإنسان والوقوع فى الجريمة.

يقال: حَدَّ الجانى أن «أقام عليه الحد»

وفى اصطلاح الشرع: «عقوبة مقدرة وجبت على الجانى»[١].

التعريف الاصطلاحى:

«هى العقوبات المقررة لجرائم الحدود وهى سبع الزنا والقذف والشرب والسرقة والحرابة والردة والبغى وتسمى العقوبة المقرر لكل جريمة من هذه الجرائم حدًا».

«والحد هو العقوبة المقررة حقًا لله تعالى أو هو العقوبة المقررة لمصلحة الجماعة»[٢].

---

(١) المعجم الوسيط، ١، ١٦٧.

(٢) التشريع الجنائى، ١/ ٦٣٤.

ومن ذلك نتبين أهمية هذه الحدود فى حفظ المجتمع.

الفرق بين الحد والقصاص:

الحد: «هو العقوبة المقدرة لله: ومعنى مقدرة أنه ليس لها حد أعلى أو أدنى، ومعنى أنها لله أنها لا تقبل الإسقاط لا من الأفراد ولا من الجماعة»(١).

القصاص: «عقوبة مقدرة حقًا للأفراد» ومعنى أنها مقدرة أنه ليس لها حد أعلى أو أدنى، ومعنى أنها للأفراد أن للمجنى عليه أن يعفو عنها إذا شاء، فإذا أعفا أسقط العفوُ العقوبةَ وبمقارنة التعريفين نعلم أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما:

أوجه الاتفاق.

١- كلاهما عقوبة تهدف إلى حفظ المجتمع.

٢- كلاهما مقدرة: ليس لها حد أعلى أو أدنى.

أوجه الاختلاف:

١- الحد: عقوبة مقدرة لله: لا يجوز إسقاطها، بينهما القصاص عقوبة مقدرة للأفراد يجوز إسقاطها والعفو عنها.

٢- الحدود تختص بسبعة جرائم كما قلنا، والقصاص يختص بالقتل سواء كان عمدًا أو شبه عمد أو خطأ وفيما دون النفس عمدًا أو خطأ.

ما يجب فيه الحد: يجب الحد فى الجرائم السبع سالفة الذكر وهى:

❀❀❀

(١) نفسه ١/ ٧٩.

المبحث الأول

الزنـــا

تعريفه اللغوى: «أتى المرأة من غير عقد شرعى»[1].

الاصطلاحى: «الوطء المحرم فى قبل كان أو دبر»[2].

أركان الزنا: للزنا ركنان أساسيان هما[3]:

١- الوطء المحرم: وهو وطء الرجل المرأة بغير أن تحل له.

٢- تعمد الوطء: أن يتعمد الرجل والمرأة الزنا مع العلم بحكمه وحرمته.

حكمه: قررت نصوص الشريعة الإسلامية حرمة الزنا، وعدته من أشد الجرائم شناعة؛ نظرًا لما فيه من استحلال الحرام، واختلاط الأنساب، وما يتبعه من ضياع الميراث، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]. ولقول رسول الله ﷺ ينفى الإيمان عن الزانى «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» -وقال أيضًا: لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: «الثيب الزانى والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

حده: يختلف حد الزنا حسب حالة الشخص: فالعبد والأمة يجلدان خمسين جلده سواء كانا محصنين أو غير محصنين، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥] ويجوز أن يجلد السيد عبده أو أمته. وإن كان حرًا أو كانت حرة غير محصن «متزوج»

(١) المعجم الوسيط ٢/ ٤١٨.
(٢) منهاج المسلم، ٤١٥.
(٣) استفدنا هذا التقسيم من الأستاذ عبد القادر عودة، التشريع الجنائى، ٢/ ٣٤٩.

ففيه الجلد مائة جلدة؛ لتأديبه وزجر غيره وفيه تغريب سنة، أما الفتاة فإذا خشى عليها الفساد من التغريب لا يقع قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

وإذا كان الزانى محصنًا رجم حتى الموت؛ لأنه بالزنا قد أهدر دمه. واختلف فى التغريب هل هو الحبس: أو النفى، فقيل الحبس فى بلده، وقيل الحبس فى بلد غير الذى وقع فيه الزنا، وقيل هو النفى على أن يراقب بما يحفظ عليه دينه.

الأدلة المثبتة للزنا:

١- الشهادة: يثبت الزنا بأربعة شهود لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤].

وقوله: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥]، ومن السنة سأل سعد بن عبادة رسول الله ﷺ «أرأيت لو وجدت مع امرأتى رجلاً أمهله حتى أتى بأربعة شهداء، فقال: نعم».

ويشترط فى الشهود عدة شروط منها العامة والخاصة والشروط العامة هى البلوغ والعقل لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ فأفادت الآية بلفظ «الرجل» أن يكون بالغًا وعاقلاً وقوله ﷺ «رفع القلم عن ثلاث: عن الصبى حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق» والرؤية كذلك من الشروط العامة ولا يعتد بشهادة الأعمى. ويسبق هذه الشروط أن يكون مسلمًا، وأن يكون ثقة لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] أما الشروط الخاصة فهى الذكورة لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٢- الإقرار: وهو أن يقر الزنا بالزنى، وقد اشترط الفقهاء أن يعترف بذلك أربع مرات لحديث معاذ الذى رواه أبو هريرة -رضى الله عنه- يقول: أتى رجل من الأسلمية رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فقال: يا رسول الله إنى زنيت فأعرض عنه رسول الله ﷺ فتنحى تلقاء وجهه فقال: يا رسول الله إنى زنيت، فأعرض عنه حتى ثنا ذلك أربع مرات، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه رسول الله ﷺ فقال: أبك جنون قال: لا، قال: أحصنت؟ قال نعم يا رسول الله، قال ﷺ -ارجموه وفى روايات أخرى يكرر عليه رسول الله ويراجعه لعلك قبلت أو غمزت؟ وفى أخرى: هل ضاجعتها؟ قال: نعم. قال: فهل باشرتها؟ قال: نعم، قال: هل جامعتها؟ قال نعم، فأمر الرسول ﷺ برجمه. كذلك إقرار المرأة الغامدية بالزنا، وقد ردها رسول الله ﷺ لتلد، ثم ردها لترضع ولدها ثم بعد أن فطم الوليد، أقام عليها الحد.

٣- القرائن: ويقصد بها ظهور الحمل مع امرأة ليست متزوجة، ولم تقم الحجة أنها قد تعرضت لإكراه أو اغتصاب.

موانع التنفيذ:

١- الرجوع عن الإقرار: وهو أن يرجع المقر فى إقراره، ويقول إنه لم يزن، وقد عد رسول الله هرب ماعز من الرجم عدول على الإقرار.

٢- عدول الشهود: ويكفى عدل واحد من الأربعة عن الشهادة لإسقاط التنفيذ.

٣- موت الشهود أو أحدهم قبل الرجم.

٤- «بطلان أهلية شهادة الشهود قبل التنفيذ وبعد الحكم»[1].

فإذا بطلت شهادة أحدهم لأي سبب، كأن يظهر كذبه، أو أنه مجنون، لا يقام عليه الحد.

❀❀❀

(١) التشريع الجنائى، ٢/ ٤٥٤.

المبحث الثاني

القـــذف

تعريفه:

اللغوى: «قذف المحصنة: رماها بالزنى»[1].

الاصطلاحى: «الرمى بالفاحشة، كأن يقول امرؤ لآخر: يا زان، أو يقول: إنه رأه يزنى أو يأتى فاحشة كذا.. من زنا أو لواط»[2].

حكمه[3]: القذف حرام شرعًا لا خلاف فى ذلك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٢٣] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

وقول المصطفى ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

حده: يقول تعالى فى حد القذف لمن قذف رجلاً أو امرأة وعجز عن إثبات ذلك ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

ومنها نعلم: أن هناك عقوبتان:

الأولى: الجلد ثمانين جلدة.

---

(١) المعجم الوسيط، ٢/ ٧٤٩.

(٢) منهاج المسلم ٤١٤.

(٣) استفدنا هذا التقسيم من الشيخ أبو بكر جابر الجزائرى، منهاج المسلم، ص ٤١٤.

الثانية: نفى العدل أى: لا يقبل له شهادة، ولا يجوز له أن يلى أمور المسلمين.

وقد شرع حد القذف لحماية أعراض المسلمين من الخوض فيها، وعدم التجرؤ على حدود الله، والحفاظ على وحدة صف المسلمين.

أدلة إثبات القذف:

١- الشهود: ولهم نفس شروط شهود الزنا من العدل والبلوغ والعقل، ولكن يكفى شاهدين[١] فقط ويشهدون أن فلانًا قذف فلانًا.

٢- الإقرار: وهو أن يقر القاذف بقذفه للمقذوف، ويعترف أن المقذوف برىء من التهمة.

٣- اليمين: أن يستحلف القاذف المقذوف، فإن أقر فبها، وإن رفض كان قذفًا.

شروط إقامة حد القذف:

١- «أن يكون القاذف مسلم بالغ عاقل.

٢- أن يكون المقذوف عفيف حسن السمعة.

٣- مطالبة المقذوف بإقامة الحد من القاذف.

٤- عدم استطاعة القاذف إحضار الشهود»[٢].

إسقاط القذف:

١- «رجوع الشهود عن شهادتهم.

٢- تصديق المقذوف للقاذف.

٣- بطلان أهلية الشهود قبل التنفيذ»[٣].

(١) التشريع الجنائى، ٢/ ٤٨٨.
(٢) منهاج المسلم ٤١٤ وما بعدها.
(٣) التشريع الجنائى ٢/ ٤٩٥.

المبحث الثالث

شرب الخمر

التعريف:

اللغوى: «خَمَرَ: الشىء ستره وكتمه».

«الخمر: ما أسكر من الشراب وعصير العنب ونحوه؛ لأنها تغطى العقل»[1].

فالمعنى اللغوى يشير إلى الغطاء والستر، وسميت المسكرات خمرًا؛ لأنها تغيب العقل وتغطيه.

الاصطلاحى: «المسكر من كل شراب أيًا كان نوعه، لقوله ﷺ «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام» وتحرم شرب الخمر فى ذاته سواء أسكر أو لا»[2].

حكمها: من المعلوم والمقرر شرعًا حرمة شرب الخمر، ولكن لانتشار الخمر فى الجاهلية فقد اتبع تحريمها منهج التدريج بدأ بامتناع المسلمين عن الصلاة وهم سكارى قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فحدد الله خمس أوقات فى اليوم والليلة لا يقربوا فيها الخمر، وكان بداية التطبيق الزمانى، ثم سأل المسلمون رسول الله فى الخمر والميسر فنزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] ثم جاءت المرحلة النهاية من التحريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن

(١) المعجم الوسيط، ١/ ٢٦٤.

(٢) منهاج المسلم، ٤١٣.

يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١].

فامتثل المسلمون للأمر فورًا، وأريقت الخمر فى شوارع المدينة.

وقد حرمت الخمرة؛ لأنها أم الخبائث، فحرمت للحفاظ على المال والدين والعقل والكرامة. فهى تذهب العقل وتضيع المال والكرامة وهى خطر على الدين.

الحد: حرم الله الخمر فى كتابه، وشدد المصطفى ﷺ على حرمتها ولكن اختلف فى مقدار الحد، وهو الجلد فقيل ثمانين جلدة، وقيل بل أربعين لفعل الرسول وأبى بكر ذلك، وفى ذلك خلاف.

الأدلة على الشهادة:

١- **الشهود:** أن يشهد رجلين عدول على الجانى بشرب الخمر.

٢- **الإقرار:** أن يقر الشارب ويعترف بشرب الخمر.

٣- **الرائحة:** كذلك تثبت إن شم رائحته، وثبت تعاطيه الخمر.

٤- **السكر:** فإذا ثبت سكره، وعدم استطاعته التمييز أقيم عليه الحد.

شروط وجوب الحد:

١- أن يكون مسلمًا عاقلاً مخيرًا بحرمتها بالغًا، لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣].

موانع إقامة الحد:

١- النكوص فى الإقرار.

٢- عدول الشهود عن الشهادة.

٣- بطلان أهلية الشهود للشهادة قبل تنفيذ الحد[١]. وسبق الحديث عنها.

(١) التشريع الجنائى، ٢/ ٥١٣.

٤- أن يكون فى دار الحرب، فيمنع: إقامة الحدود فى أرض العدو وفى أثناء القتال، فقد ثبت شرب أبى محجن الثقفى للخمر قبل القادسية، فحبسه سعد بن أبى وقاص ولم يقم عليه الحد، ومنعه من الاشتراك فى المعركة، وكان سعد جريحًا، فطلب أبو محجن الثقفى من زوجة سعد أن تفك قيده، وتعطيه فرس سعد وسلاحه، ووعدها إن هو نجا أن يعود إليها، ففعلت وكان من أبطال المعركة، وكتب الله النصر للمسلمين، ووعد الله ألا يعود إليها أبدًا.

❀❀❀

المبحث الرابع

السرقة

و«السرقة نوعان: صغرى: وهو المتعارف عليه وهو أخذ المال خفية، وكبرى، وهو أخذ المال قوة وبطشًا وهذا يدخل فى الحرابة»[1].

التعريف: اللغوى: «سرقه: أخذ ماله خفية».

فى الشرع: أخذ مال معين المقدار غير مملوك للآخذ من حرز مثله خفية»[2].

فى الاصطلاح: «أخذ المال المحروز على وجه الاختفاء، كأن يدخل أحد دكانا أو منزلاً فيأخذ منه ثيابًا أو حيًا أو ذهبًا ونحو ذلك»[3].

حكم السرقة: السرقة حرام بما قررته النصوص الشريعة فى الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، وقوله ﷺ «لعن الله السارق حين يسرق وهو مؤمن» وقوله «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده».

أركان السرقة[4]:

من التعريف الاصطلاحى للسرقة، نقف على أركانها، فمن قال إنها «أخذ مال الغير خفية» فأركانها عندهم.

١- الأخذ خفية.

---

(١) التشريع الجنائى، ٢/ ٥١٤.
(٢) المعجم الوسيط، ١/ ٤٤٤.
(٣) منهاج المسلم، ٤١٧- ٤١٨.
(٤) استفدنا هذا التقسيم من الأستاذ عبد القادر عودة، التشريع الجنائى، ٢/ ٥١٨.

٢- أن يكون المأخوذ مالاً.

٣- أن يكون هذا المال مملوكًا للغير.

٤- القصد. ومن لا يشترط أن يكون مالاً كسرقة الحبوب والثياب فأركانها عندهم.

١- الأخذ خفية.

٢- أن يكون مملوكًا للغير.

٣- القصد.

أولاً: الأخذ خفية: «ويقصد به أن يأخذ الرجل ما ليس من حقه سواء كان مالاً أو حبًا أو ذهبًا أو غيره، فى خفية من الناس، ويشترط ألا يكون هناك شبهة فى امتلاك هذا المال، فلا حد فى مال يشتبه اشتراك السارق فى سرقته ولا تعد سرقة مال الزوج أو الوالد أو الولد للإنفاق سرقة، بشرط أن يأخذ ما يكفى فقط للإنفاق، كما فى حديث هند بنت عتبة. كذلك يشترط فى الأخذ أن يخرج المال من حرز المسروق إلى حرز السارق، فإذا ضبط الرجل وهو يسرق ذهبًا ولم يخرج به من البيت فلا قطع فيه، ولم يخالف فى ذلك إلا الظاهرية فهم لا يشترطون الحرز فى السرقة»[1].

ثانيًا: «أن يكون المسروق مالاً: اشترط بعض الفقهاء أن يكون المسروق مالاً دون غيره، ولكنهم اشترطوا فى هذا المال شروطًا ليجب فيه القطع، وليس مجرد أخذ المال يوجب القطع وهذه الشروط هى:

١- أن يكون منقولاً أو يقبل النقل؛ لأن السرقة تتضمن إخراج الشىء المسروق من حرز المجنى عليه إلى حرز السارق أو الجانى، فلابد أن يكون هناك نقل.

٢- أن يكون المال ذات قيمة مطلقة، ليس تافهًا، فلا قطع فى التوافه، فإذا كان المسروق ذا قيمة عند قوم، ويعد من التوافة عند آخرين فلا قطع فيه ويستوى أن يكون السارق مسلمًا أو غير مسلم والمسروق مسلمًا أو غير

(١) التشريع الجنائى، ٢/٥١٨.

مسلم، فلا نقول كما تقول يهود: تعد السرقة إذا سرق من يهودى أما غير اليهود، فشرف له أن تسرقه» ليس هذا فى ديننا الحنيف، فكل الناس سواء، بصرف النظر عن دينهم أو مكانتهم وقد أشرنا سابقًا إلى حديث المرأة المخزومية التى سرقت. كذلك لا قطع فى سرقة المصحف، واختلف فى سرقة المحرم كالخمر، فقال فقهاء لا قطع فيه وقال آخرون فيه القطع»[1].

٣- «أن يكون المال محرزًا: أى فى حماية وكنف آخر، فقد شرع الحد لحماية أموال الناس وممتلكاتهم الخاصة، ولأن القطع يشترط الأخذ خفية، وغير المحرز لا يحتاج أخذه إلى خفية، فمثلاً لو وجد رجلاً مالاً فى الطريق، فإنه لا يحتاج إلى أخذه خفية، لأنه ليس فى حرز أحد، ولكن إذا أراد السارق أن يدخل بيتًا يسرق منه، فإنه يحتاج إلى التخفى. والأقارب إذا كان يحل لهم أن يدخل بعضهم على بعض دون إذن، فلا قطع إذا سرق أحدهم من الأخرين؛ لأن الدخول بلا إذن ينفى كون المال محرزًا، وكما أن القطع للسرقة يهدد بقطع الرحم التى أمر الله بها أن توصل. وكذلك لا قطع فى سرعة أحد الزوجين مال الآخر؛ لأن الحرز واحد وفى ذلك خلاف بين الفقهاء، وجدل لا طائل من ورائه، كذلك لا قطع فى سرقة الرجل من مال ابنه لقوله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك» وبعض الفقهاء يقول: إن ذلك منسوخ بآيات المواريث[2].

٤- «أن يبلغ النصاب: ليس كل سرقة من حرز خفية تجب القطع، بل يجب أن يبلغ المسروق نصابًا معينًا وهو فى أحاديث رسول الله ربع دينار أو ما يعادل ثلاثة دراهم، قال رسول الله «لا تقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعدًا» وفى رواية «اقطعوا فى ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك» وإطلاق أية القطع إنما هو مقيد بحديث رسول الله، وهذا من منزلة

(١) التشريع الجنائى، ٢/ ٥٤٤ وما بعدها بتعرف.

(٢) التشريع الجنائى ٢/ ٥٧٦.

السنة من القرآن، فقد يكون الأمر فى القرآن مطلق، وتأتى السنة لتقيده فى التكييف والزمان والمكان وغيره»[1].

ثالثًا: «أن يكون مملوكًا للغير، وهو الركن الثالث من أركان جريمة السرقة: يشترط الفقهاء أن يكون المسروق لغير السارق، وإلا فما داعى القطع إذا سرق الرجل من ماله، ويدخل فيه إذا كان المال له بشبهة، كأن يكون مشتركًا مع آخر فى شراكة ما وحدث خلاف وسرق منه، كذلك يدخل فيه كما قلت السرقة -من الولد والزوجة على خلافها. ويدخل فيه السرقة من المال العام فلا قطع فيه؛ لأنه فيمن يشترك فى المال العام، وفيه خلاف بين الفقهاء، وكذلك لا قطع إن سرق الرجل من المال له فيه دين، وصاحبه يماطله دينه»[2].

كما أنه لا قطع فى الأشياء المباحة كالماء والطيور فهى لا مالك لها أصلاً وكذلك الأشياء المتروكة التى تخلى صاحبها عن مكليتها. أما اللقطة وهى ما يلتقطه السارق مال ضائع أو متروك فلا قطع فيها، وإنما يعاقب إذا كتمها بالتعزير وتختلف اللقطة باختلاف نوعها، فقد سئل المصطفى ﷺ عن لقطة الذهب والورق فقال: اعرف وكاءها وعفاصها ثم عرفها سنة. فإن لم تعرف استعفها ولتكن وديعة عندك، فإن جاء طالبها يومًا من الدهر فادفعها إليه، «وسئل عن ضالة الإبل فقال: مالك ولها معها سقاءها وغذاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها، وسئل عن ضالة الشاة: فقال: خذها فإنما هى لك أو لأخيك أو للذئب»[3] وهذا التقسيم وإن كان يناسب البيئة فى عهده ﷺ إلا أن الأمر قد اختلف الآن، فقد تقدمت وسائل الاتصال كثيرًا، وربما تم الإعلان عن الشىء المفقود بسهولة، مما يسهل فى العثور عليه، كما أن ضالة الإبل تستطيع أن تدبر معيشتها إلى أن يجدها صاحبها الذى حتما يجتهد فى تحصيلها لما لها من منافع لا تتوفر مع ضآلة الشاة، والتى يسهل هلاكها إما بالجوع والعطش أو بالذئب.

(١) المصدر نفسه، ٢/ ٥٨٠ وما بعدها، بتصرف.

(٢) نفسه، ٢/ ٥٨٨ وما بعدها بتصرف.

(٣) التشريع الجنائى ٢/ ٦٠٤ وما بعدها.

رابعًا: القصد الجنائى: هو الركن الرابع من أركان جريمة السرقة إذا سرق الإنسان خفية، وبلغ المسروق النصاب، وكان مالاً منقولاً متقومًا لا يجب القطع: إذا لم يتوفر القصد الجنائى، وهو أن يكون:

١- عالمًا بحرمة ذلك الشىء على نفسه.

٢- أن يكون دون علم المجنى عليه.

٣-أن يهدف إلى تملكه.

وإذا انتفى أحد هذه الشروط بطل القطع؛ لعدم توفر القصد الجنائى، كأن يعلم صاحبها قبل أخذها، أو يظن أنها متروكة أو مباحة، أو لا يهدف إلى تملكها بل إلى نقلها إلى مكان آخر. كذلك لا عقاب على مجنون أو صبى لم يبلغ أو مكره أو مضطر لإرادت الحياة، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٣][1].

بم تثبت السرقة: تثبت السرقة بعدة أمور:

١- الشهادة: ويشترط فى الشهود الشروط السالفة الذكر فى الحدود السابقة، وأن يكونا رجلين، رأيا السرقة حال وقوعها، فإن رأى واحد وسمع آخر فلا قطع، وإذا لم يكونا رجلين فرجل وامرأة قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

٢- الإقرار: وهو أن يقر السارق بالسرقة، ويكفى إقرار واحد، واشترط بعض الفقهاء إقرارين أو ثلاثة، لفعله ﷺ ذلك، وإذا عدل السارق عن إقراره فلا قطع.

(١) نفسه ٢/ ٦٠٩ وما بعدها بتصرف.

ما يترتب على ثبوت السرقة:

إذا ثبت وقوع السرقة إما بالشهادة أو الإقرار، ترتب على ذلك أمران:

١- «ضمان المسروق: قال بذلك بعض الفقهاء، وهو أن يرد السارق الشىء المسروق قبل القطع، سواء استهلكه أو لا، وفرق البعض بين الاستهلاك وعدمه، وفى كل ذلك خلاف، فالآية الكريمة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] لم تقل بضمان المسروق ورده، وحديث عبد الرحمن بن عوف الذى رواه عن النبى ﷺ قال: «**إذا قطع السارق لا غرم عليه**»، وكما قلنا أن ذلك محل خلاف كبير بين الفقهاء»[١].

٢- القطع: تقطع يد السارق بعد ذلك، وهذ حد لا يجوز أن يعفو عنه الإمام، وقد يعفو عنه صاحب الحق قبل رفع ذلك لولى الأمر، فإذا رفع إلى ولى الأمر وجب القطع، لقوله ﷺ عمن عفا عن السارق بعد أن أحضره للرسول «**هلا كان قبل أن تأتينى به**» ولقوله أيضًا: «**تجافوا العقوبة بينكم، فإذا انتهى بها إلى الإمام فلا عفى الله عنها إن عفا**».

محل القطع: يثبت القطع بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] ولكن «اختلف الفقهاء فى ذلك فقيل: تقطع اليد اليمنى، فإن عاد تقطع يده اليسرى فإن عاد فلا قطع بل يعزر، وقيل: تقطع يده اليمنى، فإن عاد فلا قطع بل يحبس. وقيل: تقطع يده اليمنى، فإن عاد، تقطع اليسرى، فإن عاد تقطع رجله، وقيل: وهو الراجح تقطع يده اليمنى، فإن عاد تقطع رجله اليسرى، فإن عاد يحبس، وهذا فعل عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما، واستدل من قال بقطع اليدين بقراءة ابن مسعود:

(١) نفسه، ٢/ ٦١٨ وما بعدها، بتصرف.

«فاقطعوا أيمانهما». وقيل تقطع اليد اليمنى، فإن عاد تقطع الرجل اليسرى فإن عاد فاليد اليسرى، فإن عاد فالرجل اليمنى، ويحبس حتى تظهر توبته أو يموت، ولا شك أن ذلك يفوت على الرجل الحياة، فلا يستطيع معه أن يأكل أو يشرب أو يتوضأ أو حتى يدافع عن نفسه، وفى كل ذلك خلاف كبير بين الفقهاء[1].

وقد قال بعض الفقهاء يتعليق اليد بعد القطع فى العنق لفعله ﷺ ذلك. ولا شك أن من ظهرت فى نفسه بذور السرقة، وأراد أن يسرق، ورأى رجلاً تقطع يده فى ذلك، لا شك أنه سيفضل الموت جوعًا قبل أن تمتد يده للسرقة، وبذلك تكون صلاحية حدود الشريعة الإسلامية فى حفظ المجتمع، فقد منع الله الناس كلهم من سرقتك، فى مقابل ألا تمد يدك بسرقة، أترى كم أنت فائز؟!

❀❀❀

(١) التشريع الجنائى ٢/ ٦٢٢ وما بعدها بتصرف.

المبحث الخامس

الحرابة

التعريف:

اللغوى: «حارب الرجل: قاتله، وحارب الله: أى عصاه»[1].

فى الاصطلاح: «نفر من المسلمين، يشهرون السلاح فى وجوه الناس، فيقطعون طريقهم بالسطو على المارة وقتلهم وأخذ أموالهم بما لهم من شوكة وقوة»[2].

ومن خلال هذا التعريف نعرف أن من يقوم بالحرابة هو فرد واحد أو جماعة، ويشترط أن يكون معه سلاح؛ ليقتل ويسطو أو حتى يروع. فإذا قدر على القائم بالحرابة، وأقر بجريمته أو شهد عليه شهود عدول، وقع عليه الحد. واشترط قوم أن يبلغ المال المسروق النصاب، ولم يقل بذلك آخرون.

حد الحرابة[3]: نص القرآن الكريم على حد الحرابة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣] وقد اختلف الفقهاء بعد ذلك فى هذه الأحكام، ورجع خلافهم إلى حرف العطف «أو» هل يفيد التخيير؟ فللإمام اختيار العقوبة، أم يفيد الترتيب؟ ويجعل لكل فعل عقوبة خاصة به، وفى ذلك خلاف بين الفقهاء، وأما ما نميل إليه، أنها على سبيل الترتيب كالتالى:

---

(١) المعجم الوسيط، ١/ ١٧٠.

(٢) منهاج المسلم، ٤٢٠.

(٣) استفدنا هذا التقسيم من الشيخ أبى بكر جابر الجزائرى، منهاج المسلم صـ ٤٢٠ وما بعدها، بتصرف.

١- إذا أخاف المحارب السبيل، ولم يقتل أو يأخذ مالاً، فجزاؤه النفى من الأرض، واختلف فيه الفقهاء كذلك، والراجح أنه ينفى إلى بلد غير بلده إلى أن يموت أو تظهر توبته، وقال آخرون ينفى عامًا واحدًا على قياس التغريب فى الزنا.

٢- إذا أخذ مالاً لا غير ولم يقتل: تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، وتقدم اليد على الرجل لذكر القرآن لها كذلك، فتقطع يده للسرقة، ورجله لتأكد السعى لترويع الآمنين والفساد فى الأرض.

٣- إذا قتل وأخذ مالاً: فيه القتل والصلب، ويقدم القتل على الصلب لذكر الآية، وأمر رسول الله بالإحسان حتى فى القتل: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة**»، كما أن غرض الصلب ليس التعذيب وإنما زجر غيره عن التفكير فى ذلك، وقال آخرون يقتل وهو مصلوب؛ لأن الصلب عقوبة والعقوبة لا تقع على ميت[1]، ويصلب المحارب بقدر ما يشتهر أمره، لردع غيره عن الحرابة. والجدير بالذكر أن بعض الفقهاء قال بضمان المسروق والبعض لم يقل بذلك على غرار جريمة السرقة.

سقوط الحد:

١- قلنا إن الحد يجب إذا أقر المحارب بجريمته، فإذا أقر وكذبه من وقع عليه الحرابة فلا حد، بمعنى إذا حارب زيد عليًا وأخذ ماله، وأقر بالحرابة، وحضر على وقال إنه لم يحاربه أو يسرق منه، فلا حد.

٢- العفو عن المحارب: إذا عفى من وقعت عليه الحرابة عن المحارب فلا حد، ويشترط إذا كانوا جماعة أن يعفوا، وإن لم يعف أحدهم ففيه الحد، ويكون ذلك قبل رفع الأمر للإمام -كما قلنا- فإذا رفع فلا عفو.

(١) التشريع الجنائى: ٢/ ٦٥٤.

٣- رجوع المحارب عن إقراره: إذا نكص المحارب إقراره، وقال بعد الاعتراف أنه لم يحارب أحدًا، فلا حد عليه.

٤- التوبة: كذلك إذا تاب المحارب، قبل أن يقع فى أيدى العدالة فلا حد عليه، ولكن يضمن ما أخذ من المال، فالله تعالى يسامح فى حقه، ولكن لا يسامح فى حق الناس، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]، فالله غفر ورحم فعفا.

❁❁❁

المبحث السادس

البغـــى

التعريف:

اللغوى: «تجاوز الحـد واعتدى»، و«تسلط وظلم»، «سعى بالفســاد خارجًا على القانون»[1].

وفى الاصطلاح: «الجماعـة ذات الشوكة والقوة تخـرج عن الإمام بتأويل سائغ معقول كأن يظنوا كفر الإمام أو حيفه وظلمه فيتعصبون ويرفضون طاعته ويخرجون عنه»[2].

ومن هذا التعريف نقف على أركان «شروط» البغى وهى:

١- الخروج على الإمام بعد ثبوت إمامته.

٢- أن تكون هذه الجماعات ذات شوكة ومنعة.

٣- التجمع والبغى استعمال القوة.

١- **الخروج على الإمام:** وذلك بإعلان العصـيان وعدم تنفيذ طاعتـه، والرغبة فى خلعه، وذلك بعد ثبـوت إمامته، ويشتـرط لذلك أن يكون خروجهم بتأويل مـقبول سائغ، وليس كـتأويل الخوارج فى تكفـير على بأنه حكَّمَ الرجال فى كـتاب الله، وهذه كبيـرة ومرتكب الكبيرة فى نظرهـم كافر، وليست كتـأويل مانعى الزكاة استنادًا إلى أنها خاصـة بالرسول التى كانت صلاته سكن لهم ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣][3].

---

(١) المعجم الوسط، ١/ ٦٧.

(٢) منهاج المسلم، ٤٢١.

(٣) التشريع الجنائى، ٢/ ٦٨٠.

٢- «أن يقع هذا البغى من جماعات ذات قوة ومنعة، لا من أناس يتكلمون ويرفضون فحسب، وتهدف محاربتهم إلى إضفاف شوكتهم لا القضاء عليهم وإبادتهم.

٣- **استعمال القوة**: ويظهر ذلك ببداية التجمع للبغاة، وإشهار السلاح دون القتال، واشترط البعض بدأهم بالقتال على المسلمين، والظاهر أنهم لا يعدون من البغاة إلا بعد ظهور القتال منهم؛ لأن الإمام على -رضى الله عنه- لم يعتبرهم بغاة إلا بعد استعمالهم القوة -وقبل ذلك لم يتعرض الرسول للمنافقين معه فى المدينة لأنهم لم يبدؤا بقتال»[1].

حكمه: البغى والعدوان حرام شرعًا بعض القرآن الكريم قال تعالى: ﴿**وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الحجرات: ٩].

وقد صرح المصطفى ﷺ بما لا يدع مجالاً للشك أن من خرج على المسلمين يريد أن يشق عصى الطاعة «**فاضربوا عنقه بالسيف كائن من كائن**».

التعامل مع البغاة:

المراسلة: «أن يراسلهم الإمام، ويسألهم عما يرفضونه بسببه ويوضح لهم الحق، ويدعوهم إلى الطاعة، وقد أرسل علىٌّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- عبدَ الله بن عباس إلى الخوارج الحرورية يجادلهم ويسألهم حتى عاد معه منهم أربعة آلاف، فإن عادوا فليس عليهم شىء لقوله تعالى: ﴿**فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [الحجرات: ٩] وإذا لم يعودوا وجبت حربهم. كذلك من حقوقهم قول على رضى الله عنه: «لكم علينا ثلاث: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها

(١) نفسه، ٢/ ٦٨٧ وما بعدها بتصرف.

اسمه الله، ولا نمنعكم من الفيء ما دامت أيديكم معنا، ولا نبدؤكم بقتال»[1].

كذلك لهم ما لغيرهم فى الحرب، من عدم قتل جريحهم، وعدم اتباع فارهم، وعدم قتل أولادهم وأهليهم فقد قال على -رضى الله عنه- «لا يقتلن مدبر ولا يجهز على جريح وأن من أغلق بابه فهو آمن»[2].

ولا بد من التنبيه على أن البغى منصب على الحاكم، وليس على المجتمع، فارتباطه بالحكم يعد بغى، أما إذا دخل فى نظام المجتمع فهو فساد فى الأرض يدخل فى باب الحرابة.

وبعد القدرة على الباغى، لا يطلب منه سوى التوبة والعودة إلى الحق لقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] فلم يطالبهم القرآن بشأن ما أتلفوه، إذ كانت الحرب تقتضى ذلك، أما غير ذلك، فيضمن ما أتلفوه بغير عذر.

❀❀❀

(١) نفسه، ٢/ ٦٨٧ وما بعدها، بتصرف.

(٢) منهاج المسلم، ٤٢١ بتصرف.

المبحث السابع

الـــردة

التعريف:

اللغوى: «رد أى رجع»، «الرجوع إلى الكفر بعد الإسلام»[1].

الاصطلاحى: «من ترك دين الإسلام إلى دين آخر كالنصرانية أو اليهودية مثلاً أو إلى غير دين كالملحدين والشيوعيين وهو عاقل مختار غير مكره»[2].

ومن خلال التعريق نعرف أن ذلك خاص بالمسلم الذى قَبِلَ الإسلام طواعية، وأبدى الموافقة والرضا ثم عاد ونكص بعد ذلك وبدل دينه، ويشترط لذلك أن يكون عاقل، فالمجنون لا يؤخذ بردته، وأن يكون مختارًا غير مكره، لحديث رسول الله السابق: «رفع من أتى الخطأ والنسيان...» ولقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

حكم المرتد: المرتد الذى يثبت ردته يقتل حدًا قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] ولقوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» وقوله أيضًا: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

أركان الردة[3]:

١- «الرجوع عن الإسلام، ويكون ذلك إما بالفعل أو القول أو الاعتقاد، فالفعل إما أن يرتكب محرمًا فى الشريعة ويستحله؛ لأنه غير مرتبط

---

(١) المعجم الوسيط، ١/ ٣٥٠.
(٢) منهاج المسلم، ٤٢٢.
(٣) استفدنا هذا التقسيم من الأستاذ عبد القادر عودة، التشريع الجنائى ٢/ ٧٠٧ وما بعدها، بتصرف

بالإسلام كالقتل وشرب الخمر والزنا أو بالامتناع عن الفعل منكرًا كترك الصلاة جحودًا وإنكارًا وليس تقصيرًا.

كما يعد ذلك بالقول، كأن ينطق بكلمة الكفر، مختارًا عالمًا بذلك، غيره مكره للآية السابقة، فقد جاء عمار بن ياسر إلى رسول الله وقد نطق بكلمة الكفر تحت وطأت التعذيب مكرهًا فنزلت ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال له رسول الله «كيف تجد قلبك» قال مطمئن بالإيمان» قال: فإن عادوا فعد.

وأما الاعتقاد فيخرج من الإسلام إذا اعتقد ما ينافى تعاليمه كالاعتقاد بخلق القرآن، وقدم العالم، والحلول والاتحاد، وتناسخ الأرواح وغيرها مما يضر بالمجتمع(١).

٢- «تعمد الفعل أو الترك أو القول والاعتقاد وهو عالم بحرمة ذلك فى الدين الإسلامى، ويقصد بذلك الردة عن الإسلام(٢).

حد الردة: المرتد أولاً يجب أن يراجع وذلك بالحسنى والموعظة الحسنة، ويترك ليستتاب ثلاثة أيام يرجع خلالها إلى الإسلام وإلا فإنه يقتل. ولا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة وشيخ. وإذا تاب ونطق بالشهادتين يعود معصوم الدم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

٢- المصادرة: وفى ذلك يصادر مال المرتد، ويفرق فيه وبين زوجته إذا كانت على الإسلام، وقيل يصادر كل ماله، وقيل المال الذى كسبه بعد الردة، أما قبل الردة فهو لورثته من المسلمين، وفى ذلك خلاف(٣).

(١) التشريع الجنائى، ٢/ ٧٠٧ وما بعدها بتصرف.
(٢) نفس المصدر، ٢/ ٧١٩ وما بعدها، بتصرف.
(٣) نفسه، ٢/ ٧٢٨ وما بعدها، بتصرف.

وربما يقول قائل كيف يحكم الإسلام بالقتل على المرتد رغم أنه ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦] نقول: إن الإسلام أعطى حرية الاعتقاد أهمية كبيرة فى الحياة الإسلامية، حتى لا يكره أحدًا على ممارسة شعائر معينة لا يرضى بها، وليكون راضيًا عن دينه، أما المسلم الذى ولد على الإسلام فإنه يتبع أبويه المسلمين حتى يبلغ، فإذا بلغ وميز واختار الإسلام دينًا فهو مسلم معصوم الدم لاعتقاده بالإسلام، أما إذا أراد أن يبدل دينه، أو أنكر معلومًا من الدين بالضرورة ولم يتب، وكان مختارًا عالمًا وجب قتله حدًا. فلا إكراه فى الدين مرتبطة قبل اعتقاد المرء بالإسلام، فله أن يختار ما شاء أما إذا رضى بالله ربًا والإسلام دينًا وأبدى احترامًا لشعائره، ثم نكص فإنه يقتل؛ لأنه بذلك يعمل على زعزعة النظام الاجتماعى الإسلامى الذى يجب احترامه، وقتله يمنع غيره من التفكير فى ذلك.

كانت هذه هى الحدود، وهى فى المقام الأول جرائم أخلاقية تتنافى وأخلاقيات الفطرة السوية، وتتنافى وأخلاقيات الإسلام، وترك بالعمل بهذه الحدود، يؤدى إلى فساد المجتمع وهلاكه، وعدم استقرار الأمن، وهذه الحدود لا يجوز فيها العفو؛ لأنها ترتبط بحدود الله.

إن تطبيق هذه الحدود كفيل بحفظ الأمن والملكية العامة والخاصة واستقرار المجتمع بما يحقق تقدمه ونموه.

❀❀❀

الفصل الثالث:

القصاص

التعريف اللغوى: «أقصَّ: مكن غريمه من الاقتصاص به»[1].

الاصطلاحى: «أن يعاقب الجانى بمثل فعله وهو عقوبة مقدرة متلفة ويقع على النفس وما دونها»[2].

من هذا التعريف نعرف أن معناه أن يفعل بالفاعل كما فعل بالمفعول «الضحية» فإن قتل فيقتل وإن جرح فيجرح وهذا معنى أنها مقدرة ومتلفة.

❀❀❀

(١) المعجم الوسيط، ٢/ ٧٦٨.

(٢) التشريع الجنائى ١/ ٥٤٦.

المبحث الأول

شروط وجوب القصاص وحكمه

يشترط لوجوب القصاص شروطًا:

١- «أن يكون المقتول معصوم الدم، وإلا لما كان هناك قصاص، فإذا قتل رجلٌ كافرًا أو محاربًا أو مرتدًا أو زانيًا محضًا فلا قصاص؛ لأنهم أصلاً مهدوروا الدم، ولكن إذا كان المجتمع يقتل هؤلاء شرعًا، فقاتلهم يعزر؛ لأنه سمح لنفسه بتطبيق ما هو خاص بغيره، فإذا كان الوالى يقتل المرتد، وسبق إليه أحد العامة وقتله، فلا قصاص ولكن يعاقب لعدم تمثله القضاء.

٢- أن يكون القاتل بالغًا عاقلاً مخيرًا واعيًا عالمًا بالحرمة، ولا بد من توافر ذلك فى كل الجرائم فلا قصاص لصبى ولا مجنون ولا مكره ولا سكير، ولا جاهلاً بالحرمة، لقوله ﷺ: «**رفع من أمتى الخطأ والنسيان**» وقوله: «رفع القلم عن ثلاث...».

٣- المكافأة: ولابد أن يكون فى القصاص مكافأة، فلا يقتل حر بعبد لقوله ﷺ «**لا يقتل حر بعبد**» فالعبد تقدر قيمته، ولا يقتل مسلم بكافر، لقوله: «**لا يقتل مسلم بكافر**».

٤- ألا يكون القاتل والدًا للمقتول: فلا قصاص إذا كان القاتل والد المقتول أو جده أو أمه أو جدته، لقوله ﷺ: «**لا يقتل والد بولده**»؛ لأن فى ذلك ضررًا بالأسرة والمجتمع، وكفى قتل أحدهم، فليس غرض الشريعة إبادة المجتمع، وإنما الحفاظ عليه واستقراره![1].

حكم القصاص: يجب القصاص فى القتل والجرح وغيره، ومن أدلة ذلك وقوله تعالى: ﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ**﴾

(١) منهاج المسلم، ٤٠٥، وما بعدها بتصرف.

[الإسراء: ٣٣] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] وقد أوضح تعالى هدف القصاص فى هذه الآية، وأن ليس مجرد إهدار الدم، أو فساد فى المجتمع بل هو حفاظ عليه، ففى القتل حياة، فى قتل القاتل حياة لباقى أفراد المجتمع، وحفاظًا على أمته، وأسلوب الآية يحبب فى تطبيق القصاص، حيث إنه يقرنه بالحياة، وذلك فى أقل عبارة وأوجز لفظ. وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، وجاء القول واضحًا بالتفصيل فى ذلك: لأنه مرتبط بالإنسان الذى هو مناط الشريعة، لتكون الأمور واضحة لا لبس فيها ولا وغموض.

ولم تكن السنة عن ذلك ببعيدة، فقال ﷺ «من قتل له قتيل فأهله بين خيرتين إن أحبوا فالقود، وإن أحبوا فالعقل» والمقصود بالعقل هو الدية، وقال أيضًا «من اعتبط مؤمنا بقتل فهو قود به: إلا أن يرضى ولى المقتول».

وعقوبة القصاص هى أفضل العقوبات فى ذلك وأنجحها، ولا نقول ذلك رجمًا بالغيب ولا دعوة بغير علم، فالقصاص مبنى على علم الله تعالى بطبائع النفس البشرية، فقد غرس فيها -سبحانه- نزعة البقاء وحب الحياة، وما دافع القتل والجرح إلا رغبة فى مجرد الحياة، أو فى الحياة الهنية الرغدة فإذا علم القاتل أنه لن يدوم عيشه طويلاً بعد ارتكابه الجريمة «أبقى على نفسه بإبقائه على فريسته»[1] وما زاد فى جرائم القتل فى مجتمع إلا أن القاتل يعلم أنه إن اكتشف أمره فلن يعدو على سجن مدة معينة ودفع غرامة من المال لا تتناسب مع حجم الجرم الذى اقترفه، ليخرج ويعيش عيشة هنية رغدة على دماء قتيله وحقه فى الحياة، وما أفشل ذلك النظام!!

(١) التشريع الجنائى ١/ ٦٦٤.

والقصاص غير الحدود، فالـلمجنى عليه أن يعفو ويصفح ويجب ذلك إن أدى إلى صلاح القـاتل وحفظ المجتـمع، أما إذا اعتمـد عليه فإنه يفـسد كل شىء وقد حبب الله تعالى فى العفو، فقال ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمـران: ١٣٤] فقد عـد سبـحانه العافـين أنهم من المحسنين، وقـد أمر سبحانه رسوله الكريم بالعفو فى غير ما موضع وقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخـرف: ٨٩] وقال: «فـاصـفح الصـفح الجميل» وقال تعالى يرغب أبا بكر فى الصفح بعـد أن منع النفقة عن مسطح لقوله فى عائشة أم المؤمنين بالإفك ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]. فعاد للنفقة عليه وبكى وقال: بلى يارب نحب. وحكى سبحانه عن ابن آدم ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] وقال عن يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] حين عفى عن آخوته وقد حاولوا قتله.

من ذلك كله نرى أن العـفو أجـمل وأصلح للمجـتمع، فـقد أمـر الله به رسوله الكريم، وإنه إذا قتلت رجلاً مـثلاً بأبيك وهذا حق، سيكون فى نفس ولده شىء منك؛ لأنك لم تصفح، مما يؤدى إلى إيغار القلوب، وإذا صفحت زاد الحب بينكم، وحفظ لك هذا الجـميل، وكان ذلك أشد ترابطًا للمـجتمع وحفظًا له، وكـما يقال «الإنسـان عبد الإحـسان». وليس صـفحك فى ذلك تعبيراً عن ذل أو مهانة، بل هو صـفح القوى وقد قدر على الجانى، وهو مِنَّةٌ منك عليه.

ما يجب فيه القصاص:

يجب القصاص فى عدة أمور هى:

١- القتل العمد.

٢- والجناية على ما دون النفس عمداً.

أما القتل شبه العمد، والقتل الخطأ، والجناية على ما دون النفس خطأ، ففيه الدية والكفارات التعزير، وكل بحسب حالته. وقد فصل الفقهاء فى ذلك تفصيلاً دقيقًا، بما يصعب معه الإلمام بكل تلك التفاصيل.

وسوف نقتصر فى هذا البحث على ما فيه القصاص وهو:

أولاً: القتل العمد.

ثانيًا: الجناية على ما دون النفس عمداً.

❁❁❁

المبحث الثانى

القتل العمد

القتل: جناية على النفس بإزهاق الروح عن طريق الطعن أو الحنق أو غيره من الوسائل، وهو جريمة شرعية شدد عليها القرآن الكريم فى غير آية قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: ٣٣]، وقال: ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨] وقال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، وقال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

ومن السنة قوله ﷺ: «من قتل نفسه بشىء من الدنيا عذب به يوم القيامة» وقال: «من أعان على قتل أمرىء مسلم بشطر كلمة لقى الله مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله» وقال: «لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث:...» وقال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأنى رسول الله. فإن قالوها فقد عصموا هى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» فالنصوص فى ذلك كثيرة متواترة؛ لأن قتل النفس يضر بالمجتمع ويهدد استمراره، والحفاظ على النفس من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية.

شروط القتل العمد:

لنقول إن الجريمة هى بمنزلة قتل العمد يجب توافر ثلاثة شروط:

١- أن يكون المقتول آدمى حى، فإذا كان حيوانًا أو قتل رجلاً ميتًا فلا تعد جريمة، ولا قصاص فيه. ينطبق ذلك على الجرح ففيه القصاص، من جرح يجرح.

٢- أن يكون القتل نتيجة للفعل: أى أن يفعل القاتل ما من شأنه أن يتسبب لإحداث الوفاة، سواء بطريق مباشر كطعنه بسكين، أو غير مباشر بإيراده موارد التهلكة، ومنع الماء والطعام عنه وحبسه حتى يموت، حتى وإن كان ذلك برضا المقتول.

٣- القصد: أن يقصد القاتل من فعله إحداث الوفاة، وإذا قصد أن يأدبه أو مجرد التعذيب فلا يعد عمدًا.

٤- أن يكون المقتول معصوم الدم، فإذا قتل كافرًا أو مرتدًا أو محاربًا أو زانيًا محصنًا فلا قصاص ولا يعد قتل عمد؛ لأنه غير معصوم الدم.

كيف يثبت قصد القتل: من المعلوم أن الأعمال بالنيات، وأن الله لا يحاسب بمجرد النية دون أن تترجم إلى عمل، وهناك قرائن فى القتل تنبئ عن القصد. من ذلك الآلة المستعملة؛ فإن استعمل آلة هى من المعلوم أنها تسبب القتل مباشرة توفر لدية القصد.

كذلك إذا تمالأ أكثر من واحد على قتل رجل، فإنهم يقتلون جميعًا به؛ فقد كانت فى صنعاء امرأة غاب عنها زوجها وترك لها إبنًا له ليس منها يسمى أصيل فاتخذت أكثر من خليل، وخافوا أن يفضح الغلام أمرهم فقتلوه جميعًا، وألقوا به فى بئر، وعندما اكتشف أمرهم وأرسل والى اليمن «يعلى بن أمية» إلى عمرو بن الخطاب يسأله، فقضى بقتلهم جميعًا وقال: والله لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعًا، فقضى بقتل الجماعة بالواحد.

حكمه: العقوبة الأصلية للقتل العمد هى القتل، وبنفس الطريقة، فلا رحمة ولا شفقة فى ذلك؛ حتى يرتدع من تسول له نفسه أن يسعى فى الأرض فسادًا، فقتل الواحد فيه حياة الجميع.

وهناك عقوبات تتبع القاتل فإنه:

١- لا يرث: ذلك لقوله ﷺ «ليس للقاتل شىء من الميراث وليس للقاتل ميراث بعد كصاحب البقرة» وهى بقرة بنى إسرائيل، والقصه مشهورة عندما قتل رجل عمه ليرثه.

٢- الحرمان من الوصية: فلا وصية له لقوله ﷺ: «لا وصية لقاتل»، «ليس لقاتل شىء» والشىء، نكرة للعموم، وهناك من يفرق بين القتل العمد وغيره فى هذه العقوبات وفى ذلك خلاف.

❀❀❀

المبحث الثالث

الجناية على ما دون النفس عمداً

«هوأن يتعمد الجانى ارتكاب فعل يمس جسم المجنى عليه أو يؤثر على سلامته»[1].

ومن خلال التعريف نقف على شروطه:

١- فعل على جسم المجنى عليه أو يؤثر على سلامته: ولا يشترط أن يكون بآلة فقد يكون باليد والرجل، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كأن يحفر له حفرة ليقع فيها.

٢- «التعمد والقصد: وهو أن يكون لديه قصد الضرر للمجنى عليه، ولا يسأل عن الفعل وإنما يسأل عن نتيجته، فلا يسأل أنه ضرب رجلاً، بل يسأل أنه قطع له يده، فإذا أثبت ذلك وجب القصاص، فمن ضرب رجلاً بيده على خده يضرب كما ضربه، وإن قطع لرجل يده أو رجله تقطع له يده أو رجله، ولا شك أن لذلك أكبر الأثر فى منع مثل هذه الجرائم؛ لأنه لو علم أنه سيحدث له ما سيفعله بالآخر لكان ذلك رادعًا له»[2].

حكمها: القصاص بالمثل، فمن قطع أذنك تقطع أذنه، ومن قطع يدك تقطع يده، ففى مثل هذه الجرائم تكون الجريمة هى الجزاء المناسب للجانى.

هذه هى العقوبات الأصلية للقتل عمدًا، والجناية على ما دون النفس عمدًا وهى القصاص، وهناك عقوبات بديلة فى حال تعذر القصاص كالدية والكفارة والتعزير. أما القتل الخطا وشبه العمد والجناية على ما دون النفس خطأ ففيه عقوبة أصلية وهى الدية وتكون بديلاً مع الكفارة والتعزير.

❀❀❀

(١) التشريع الجنائى ٢/ ٢٠٨.

(٢) نفسه، ٢/ ٢١٠ بتصرف.

المبحث الرابع

قضايا فى القصاص

المطلب الأول

استيفاء القصاص

ويعنى ذلك: من يأخذ القصاص من الجانى.

«من المعروف شرعًا أن من يستحق القصاص فى الجناية على ما دون النفس عمدًا هو المجنى عليه، فإذا لم يستطع قام مقامه الأقرب العاصب كابنه وابن ابنه، ويجوز أن يأخذ القصاص الولى، غير أن القصاص يكون على سبيل التشفى، فلولى دمه أن يأخذه، وكذلك فى القتل عمدًا. ويجوز أن يحبس الجانى فى القتل عمدًا حتى يقتص منه»[1].

❀❀❀

(١) التشريع الجنائى، ٢/ ١٤٠ بتصرف.

المطلب الثانى

امتناع القصاص

«إذا ثبت القتل أو الجرح، وتوافرت شروط القصاص واكتملت الأركان، ربما بعد كل ذلك لا يقع قصاصًا وذلك للأسباب التالية:

١- إذا كان القتيل جزء من القاتل: كأن يكون والده أو والدته؛ لأنه كما قال ﷺ «لا يقاد والد بولده» فالهدف فى الشريعة كما قلنا هو الحفاظ على المجتمع لا إرهاق الأرواح، فيكفى قتل واحد حتى لا تفجع الأسرة، وتكون النكبة أكبر.

٢- عدم التكافؤ: فلا يقتل مسلم بكافر، أو حرًا بعبد أو رجلا بامرأة.

٣- عندما يقع القتل أو الجناية عن طريق الخطأ، فإنه لا بد من توافر القصد والعمد.

٤- أن تكون الجناية فى دار الحرب: فمعلوم أنه لا تقام الحدود فى دار الحرب، فإنه يتعذر ذلك، وفى ذلك خلاف»[1].

❀❀❀

(١) التشريع الجنائى، ٢/ ١١٥ وما بعدها، بتصرف.

المطلب الثالث

سقوط القصاص

«يسقط القصاص كليًا فى حالات هى:

١- فوات محل القصاص: وذلك فيما دون النفس؛ كأن يكون الجانى قطع يد المجنى عليه، والجانى أصلاً مقطوع اليد، فلا قصاص لفوات محله. وفى القتل العمد، محل القصاص هو نفس الجانى فإذا مات الجانى بمرض ونحوه دون قصاص، فإنه يسقط القصاص لفوات محله واختلف فى وجوب الدية بعد ذلك.

٢- العفو: أجمع الفقهاء على جوازه، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقال: ﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥]، وعن أنس أن رسول الله «ما رفع إليه شىء فى قصاص إلا أمر فيه بالعفو».

٣- الصلح: إذا توافق الطرفان على الصلح جاز ذلك؛ وإلا فلابد من القصاص فقد بذل سعيد بن العاص والحسن والحسين ابنا عليا الجهد لمنع قتل هوية بن خشرم وقد قتل رجلاً، وعرضوا على ابنه سبع ديات فأبى وقتله»[1].

تلك هى الحدود والقصاص فى الشريعة الإسلامية، منهج متكامل يحفظ المجتمع ويعمل على تقدمه، واستقرار الأمن فيه، وهو فى المقام الأول لخدمة الصالح العام وحماية الناس بعضهم من بعض، وليس إرهابًا ولا حبًا فى سفك الدماء.

❀❀❀

(١) التشريع الجنائى، ٢/ ١٥٥ وما بعدها، بتصرف.

الباب الثالث

بعض النماذج التطبيقية للأخلاق الإسلامية

الفصل الأول:

الأمانـــة

الأمانة: هى كل مـا ائتمن الله -عز وجل- الإنـسان عليه، من أمـر ونهى لإصلاح الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

يقول القرطبى «الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور»(١).

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

يقول صاحب الظـلال -رحمه الله- «هذه هى تكاليف الجمـاعة المسلمة؛ وهذا هو خلقها: أداء الأمانـات إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، على منهج الله وتعليمه، والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى.. الأمانة التى ناط الله بها فطرة الإنسان؟ والتى أبت السماوات والأرض الجـبال أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان. أمانة الهـداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه. فهذه أمانة الفطرة الإنسانيـة خاصة. فكل ما عدا الإنسان ألهمه ربه الإيمان به، والاهتـداء إليه ومعـرفته، وعبـادته، وطاعته، وألزمـه طاعة ناموسه بغير جهد منه ولا قصد ولا إرادة ولا اتجاه، والإنسان وحده هو الذى

(١) الجامع لأحكام القرآن القرطبى، ١٢/ ٧٣، وفتح القدير، الشوكانى، ٤/ ٣٠٩.

وكل إلى فطرته، وإلى عقله وإلى معرفته... وهذه أمانة حملها وعليه أن يؤديها أول ما يؤدى من الأمانات. ومن هذه الأمانات: أمانة التعامل مع الناس، أمانة المعاملات والودائع المالية، وأمانة النصيحة للراعى وللرعية، وأمانة القيام على الأطفال الناشئة، وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها.. وسائر ما يجلوه المنهج الربانى من الواجبات والتكاليف فى كل مجال الحياة على وجه الإجمال. فهذه من الأمانات التى يأمر الله أن تؤدى؛ ويجملها النص هذا الإجمال»[1].

ويقول الشيخ محمد الغزالى -رحمه الله- فى كتاب خلق المسلم[2]: «والأمانة فى نظر الشارع واسعة الدلالة، وهى ترمز إلى معان شتى، مناطها جميعًا شعور المرء بتبعته فى كل أمر يوكل إليه وإدراكه الجازم بأنه مسئول أمام ربه، على النحو الذى فصله الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته»[3].

والنبى ﷺ يؤكد على هذا المعنى بقوله: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[4].

ونلاحظ أن النبى ﷺ ينهى عن خيانة الذين يخونوننا؟ أى أن اقتراف جريمة الخيانة من قبل الآخرين لا يسوغ لنا خيانتهم. فالخيانة ليست من الاعتداءات التى تقابل بالمثل. إن الخائن يضمن، وقد يعزر. وقد نحرمه ثقتنا وتقديرنا الاجتماعى. لكن لا يجب أن نخونه إذا هو ائتمننا.

---

(١) فى ظلال القرآن، سيد قطب، ٢/ ٦٨٨-٦٨٩.

(٢) خلق المسلم ص ٤٢.

(٣) رواه البخارى عن ابن عمر.

(٤) رواه البخارى وأبو داود والترمذى والحاكم.

وفى حديث آخر يقرر ﷺ أن الأمانة شرط للدين والصلاة والزكاة، أى لقبولها، قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا صلاة له، ولا زكاة له»(١).

والأمانة واجبة للمسلمين وغير المسلمين، وللأبرار والفجار. وهذه هى السمة الإنسانية العامة لنظام الأخلاق فى الإسلام، بعكس اليهود، فكانوا يوجبون الأمانة لليهود ويستحلون خيانة الأمانة مع غيرهم، ويقولون كما سجل القرآن الكرين ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] أى لا حرج عليهم فى خيانة العرب. ولكن الرسول ﷺ كذبهم وقال: «كذب أعداء الله، ما من شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر»(٢).

وكثير من الناس يحصرون الأمانة فى أضيق معانيها وحدودها، فيرونها قيام الإنسان بحفظ ما يودع لديه من مال، فإن وفَّاه صاحبه كان أمينًا، وإن أنكره وتلاعب به كان خائنًا، وهذا وإن كان من معانى الأمانة إلا أنه فى الواقع أضيق حدودها(٣).

والأمانة أشمل من ذلك بكثير، وهى القيام بجميع التكاليف والالتزامات الاجتماعية والأخلاقية.

• من صور الأمانة:

١ - تولى المناصب والوظائف العامة:

فقد روى عن أبى ذر -رضى الله عنه- أنه قال: يا رسول الله: ألا تستعملنى؟ قال: فضرب بيده على منكبى ثم قال: «يا أبا ذر: إنك ضعيف، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»(٤).

---

(١) رواه أحمد وابن حبان.

(٢) روح المعانى ٣/ ٣٠٣، وأدب الدنيا والدين، ص ٢٩٧.

(٣) أخلاقنا الاجتماعية، مصطفى السباعى، ص ١٤٩-١٥٠.

(٤) رواه مسلم.

وحذر الإسلام أن يتولى العمل إنسان وهناك من هو أفضل منه وأقدر على أدائه[1].

ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين»[2].

ويقول أيضًا ﷺ: «من ولى من أمر المسلمين شيئًا فأمر عليهم أحدًا محاباة فعليه لعنة الله، لا يقبل منه صرفًا ولا عدلاً حتى يدخله جهنم»[3].

بل إن الرسول ﷺ يعد إسناد الأمور لغير المؤهلين لها تضييعًا للأمانة ينذر بقيام الساعة، فقد جاء رجل يسأل رسول الله ﷺ متى تقوم الساعة؟ فقال له: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة! فقال: وكيف إضاعتها؟! قال: إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة»[4].

وعلى هذا فكل عمل له مؤهلاته الخاصة به، ولا يكتفى بعنصر التقوى والورع لتولى مهام الأمة!! بل لا بد من توافر شرطى القوة والأمانة، فشرط القوة يمثله المؤهلات العلمية والبدنية، والعقلية التى تجيد الابتكار والإبداع، وحسن التخطيط والتنظيم، وشرط الأمانة يمثله الجانب الخلقى الخاص بتقوى الله -عز وجل- ألا ترى إلى يوسف الصديق؟ إنه لم يرشح نفسه لإدارة شئون المال بنبوته وتقواه فحسب، بل بحفظه وعلمه أيضًا[5].

وقد نفذ رسول الله ﷺ وخلفاؤه هذا الأمر بكل دقة، فلم يولوا أحدًا من الناس أى عمل من الأعمال إلا وهو كفؤله، فوضعوا كل إنسان فى مكانه المناسب[6].

---

(١) الحسبة فى الإسلام، ابن تيمية، ص ٨، والطرق الحكمية، ص ٢٥٨..

(٢) الترغيب والترهيب ٤/ ٧٩.

(٣) نفس المصدر.

(٤) رواه البخارى.

(٥) خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالى، ص ٤٤.

(٦) الإسلام وأصول الحكم، د. إبراهيم هلال، ص ٦٤.

٢- من الأمانة إتقان العمل وإجادته:

من معانى الأمـانة أن يحرص المرء على أداء واجبه كـاملا فى العمل الذى يناط به، وأن يستنفد جهده فى إبلاغه تمام الإحسان. أجل إنها لأمانة يمجدها الإسلام: أن يخلص الرجل لشغله وأن يعنى بإجادته، وأن يسهر على حقوق الناس التى وضعت بين يديه، فإن استهانة الفرد بما كلف به -وإن كان تافهًا- تستتبع شيوع التفريط فى حـياة الجماعة كلهـا، ثم استشراء الفسـاد فى كيان الأمة وتداعيه برمـته. يقول رسول الله ﷺ: «**الخازن الأمين الذى يؤدى ما أمر به، طيبة نفسه، أحد المتصدقين**»(١).

أما إذا استـغل العامل عمله أو وظيفتـه استغلالا سيـئًا، فإنه لا يجنى من وراء ذلك إلا الإثم والهلاك(٢).

يقول رسول الله ﷺ: «**من استعملناه على عمل، فـرزقناه رزقًا، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول**»(٣) أى: حرام. أى: ليس أسوأ وأعظم خيانة من رجل تولى أمور الناس فنام عنها حتى أضاعها.

٣- الرعية أمانة:

فالراعى الأمين على رعـيته هو الذى يتقى الله فيـهم، ويأخذ بأيديهم إلى الله، ويذكرهم به، ويشعـرهم برقابته، ويأمرهم بالمعـروف، ويأتمر به فيهم، وينهاهم عن المنكر وينتهى عن المنكر فيـهم، ويقيم العدل فيهم، ويكون على وَجَلٍ من الله -عز وجـل- يقول عبـد الرحمن بن عـوف: قدمت رفـقة من التـجار نـزلوا المصلى فـقال لى عـمـر: هل لك أن تحرسـهم الليلـة؟ فبـاتا يحرسانهم ويصليان ما كتب الله لهما. فـسمع عمر بكاء صبى، فتوجه نحوه

(١) صحيح البخارى -كتاب الإجارة- باب استئجار الرجل الصالح: ٤/ ٤٤٩.

(٢) الأخلاق الإسلامية، حسن السعيد المرسى، ص ١٨٠.

(٣) سنن أبى داود -كتاب الخراج- باب فى أرزاق العمال، ٣/ ٣٦٤.

فقال لأمه: اتقى وأحسنى إلى الصبى ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه، فعاد إلى أمه، فقال: اتقى الله وأحسنى إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه، فقال: ويحك لأراك أم سوء، ما لى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟

قالت: يا عبد الله قد أبرمنى منذ الليلة (أى أضجرنى) إنى أريخه (أحوله) عن الفطام فيأبى.

قال عمر: ولم؟ قالت؛ لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم.

قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرًا. قال: ويحك لا تعجليه؛ فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤساه لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين؟! ثم أمر مناديًا فنادى: أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق[1].

٤- الحديث أمانة:

فالحديث الذى يدور بين الأصحاب والجيران أمانة، فيجب عدم إفشاء ما قيل فى المجلس من أسرار، وتحريفه، بتغيير الكلام ليفيد معنى غير الذى قيل، فإن فى هذا خيانة للأمانة. وفى الحديث: «إذا حدّث رجلٌ رجلا بحديث ثم التفت فهو أمانة»[2].

أما ما كان فيه من التعاون على الإثم والعدوان فيكون من الأمانة إفشاء هذه الأسرار، وذلك من باب تغيير المنكر والتعاون على البر والتقوى، وفى الحديث: «المجلس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: مجلس سفك دم حرام، أو خرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق»[3].

(١) أخلاق الإسلام وأخلاق دعاته، ص ١٧١- ١٧٢.

(٢) رواه أبو داود، وأحمد، والترمذى، عن جابر.

(٣) رواه أبو داود عن جابر، وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير.

وكم من حبال تقطعت، ومصالح تعطلت، لاستهانة بعض الناس بأمانة المجلس، وذكرهم ما يدور فيه من كلام، مسنوبًا إلى قائله أو غير منسوب.

ويدخل فى ذلك -أيضًا- إفشاء الأسرار الزوجية، فكثير من الناس يرى أن من علامات الفحولة والرجولة أن يتحدث أمام الناس عما يدور بينه وبين أهله من المعاشرة الجنسية!! وهذه وقاحة حرمها الله. فعن أسماء بنت يزيد: أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجال والنساء قعود عنده، فقال: **«لعل رجلاً يقول ما فعل بأهله. ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها! فأزمَّ القوم - سكتوا وجلين- فقلت: أى والله يا رسول الله.. إنهم ليفعلون، وإنهن ليفعلن! قال: فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقى شيطانة فغشيها والناس ينظرون»**(١).

وقال رسول الله ﷺ أيضًا: **«إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة: الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها»**(٢).

٥- رد ودائع الناس أمانة:

هذه الصورة من صور الأمانة هى الصورة التى يرى الناس فيها الأمانة أو الخيانة، فمفهوم الأمانة عند عامة الناس يقتصر على رد الودائع لأهلها، وإن كان هذا المفهوم قاصرًا، إلا أن هذه الأمانة بالفعل من أخطر الأمانات؛ وذلك لأن النفس تضعف عن شهوة المال، وخصوصًا إذا لم يكن لدى صاحب الوديعة ما يثبت له حقه، فحينئذ يسيل لعاب الإنسان للمال! فيعتبرها غنيمة.

عن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- قال: «القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة.. قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة -وإن قُتل فى سبيل الله- فيقال: أو أمانتك! فيقول أى رب: كيف وقد ذهبت؟! فيقال: انطلقوا

(١) رواه أحمد فى مسنده.

(٢) رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى.

به إلى الهاوية، وتُمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوى فى أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظن أنه خارج زلّت عن منكبيه، فهو يهودى فى أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عدها، وأشد ذلك الودائع»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: **«لن تزال أمتى على الفطرة، ما لم يتخذوا الأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا»**[2].

هذه بعض صور الأمانة التى حث عليها الإسلام، ومنها أيضًا الأمانة فى النصح والمشورة، وتبليغ العلم، وحفظ العقل والجسم، وحفظ مال اليتيم من الأمانة.

وهكذا يتسع معنى الأمانة فى الإسلام ليشمل كل شئون الحياة من عقيدة وأدب ومعاملة وتكافل اجتماعى وسياسة حكمية رشيدة وخلق حسن كريم.

والأمانة بهذا المعنى وهذه الحدود، سر سعادة الأمم أو شقائها، ويوم كانت أمتنا من أصدق الشعوب فى كل هذه الأمانة والوفاء بها، كانت أمتنا خير أمة أخرجت للناس[3].

❀❀❀

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن مسعود.

(٢) كنز العمال: ٣/ ٦٥.

(٣) أخلاقنا الاجتماعية، د. مصطفى السباعى، ص ١٥٤.

الفصل الثاني:

الصدق

الصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، والكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه.

ويقال: صدق فلان في الحديث صدقًا: أخبر بالواقع»[1].

والصدق يدعو إلى العقل والشرع، بخلاف الكذب. ومن هنا جاز أن تستفيض الأخبار الصادقة، حتى تصل إلى درجة التواتر، ولا يجوز ذلك في الأخبار الكاذبة[2].

والصدق من الأخلاق الأساسية التي يتفرع عنها غيرها، يقول بعض العلماء: «واعلم -رحمك الله- أن الصدق والإخلاص: أصل كل حال، فمن الصدق يتشعب الصبر، والقناعة، والزهد، والرضا، والأنس، وعن الإخلاص يتشعب اليقين، والخوف، والمحبة، والإجلال، والحياء، والتعظيم... فالصدق في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به: صدق القلب بالإيمان تحقيقًا، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام»[3].

وإنما كان الصدق فضيلة؛ لأنه أهم الأسس التي تبنى عليها المجتمعات، ولولاه ما بقي المجتمع؛ ذلك لأنه لابد للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض، ومن غير التفاهم لا يمكن أن يتعاونوا، وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم الذي لا يمكن أن يعيشوا بدونه، ومعنى الإفهام أن يوصل الإنسان ما في نفسه من الحقائق إلى الآخرين، وهذا هو الصدق[4].

(١) المعجم الوسيط، ١/ ٥٣.

(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي، ص ٢٦٠-٢٦١.

(٣) رسالة المسترشدين، المحاسبي، ص ١٧١.

(٤) كتاب الأخلاق، أحمد أمين، ص ١٩٩-٢٠٠.

وقد حث الإسلام على الصدق وبيّن فضائله، وأكد أنه من صفات النبوة، يقول تعالى ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، ويقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤] وأمر عبادة المؤمنين بالصدق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

ومن أهم فضائل الصدق:

١- أن الصدق فى القول يؤدى إلى الصدق فى العمل والصلاح فى الأحوال:

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]. فالصدق فى القول يؤدى إلى الصدق فى الفعل، وهذا هو العمل الصالح(١).

٢- الصدق يهدى الإنسان إلى البر والخير:

يقول ﷺ: «إن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقًا، وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»(٢).

والبر الذى يهدى إليه الصدق هو الذى بيّنه الله -عز وجل- فى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

(١) الأخلاق الإسلامية، د. عبد اللطيف العبد، ص ١٥١-١٥٢.

(٢) مكارم الأخلاق، ابن أبى الدنيا، ص ٤٥، رواه البخارى عن عبد الله بن مسعود.

٣- الصدق فيه النجاة:

يقول تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]. أى أن صدقهم فى الدنيا ينفعهم فى الآخرة.

وفى الحديث: «تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه، فإن فيه النجاة»(١).

وعن عبد الله بن عمرو -رضى الله عنهما- أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، ما عمل الجنة؟ قال: «الصدق، إذا صدق العبد بر، وإذا بر آمن، وإذا آمن دخل الجنة»، قال: يا رسول الله، وما عمل النار؟ قال: «الكذب، إذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار»(٢).

٤- الصدق فيه الربح والفوز:

يقول ابن عباس -رضى الله عنهما: «أربع من كن فيه ربح: الصدق، والحياء وحسن الخلق، والشكر».

وعن عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- أن النبى ﷺ قال: «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة فى طعمة»(٣).

مراتب الصدق:

أشار الإمام أبو حامد الغزالى(٤) إلى أن للصدق مراتب عديدة نلخصها فيما يلى:

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت عن منصور بن المعتمر مرسلاً، وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير، وكنز العمال، ٣/ ٣٤٥.

(٢) رواه أحمد، وانظر الترغيب والترهيب، ٤/ ٥٣.

(٣) رواه الطبرانى والحاكم وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير.

(٤) إحياء علوم الدين، ٤/ ٣٨٧-٣٩٣.

١- **صدق اللسان:** وذلك لا يكون إلا فى الأخبار أو فيما يتضمن الأخبار ماضيًا أو مستقبلا، ويندرج تحته الوفاء بالوعد والخلف فيه.

وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه، فلا يتكلم إلا بالصدق. وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأشهرها.

٢- **الصدق فى النية والإرادة:** ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو ألا يكون له باعث فى الحركات والسكنات إلا الله تعالى. فإن مازجه شوب من حظوظ النفس، بطل صدق النية، ويجوز أن يسمى صاحبه كذابًا.

٣- **صدق العزم:** فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل، فيقول فى نفسه، إن أعطانى الله تعالى ولاية عدلت فيها. فهذه عزيمة تحتاج إلى صدق؛ لأنه بمنزلة التمام والقوة لها كيلا يضعف أو يتغير وقت التنفيذ.

ولذلك روى الإمام مسلم عن سهل بن حنيف -رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال: «**من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه**».

٤- **الوفاء بالعزم:** ذلك أن النفس قد تسخو بالعزم فى الحال، إذ لا مشقة فى الوعد والعزم. لكن إذا حقت الحقائق وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة، ولم يتفق الوفاء، ولهذا مدح الله تعالى هؤلاء المؤمنين الذى وفوا بعزائمهم فقال سبحانه ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٥- **الصدق فى الأعمال:** وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به، وعلى المسلم هنا أن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر.

٦- **الصدق فى مقامات الدين:** وهو أعلى الدرجات وأعزها، ومن أمثلته: الصدق فى الخوف، والرجاء، والتعظيم، والزهد، والرضا، والتوكل، وحب الله تعالى، ورسوله ﷺ.

آثار الصدق ونتائجه:

للصدق آثار عظيمة، ونتائج جليلة منها[1]:

١- للصدق رابطة قوية بالإيمان، فالصادق قوى الإيمان، والكاذب لا إيمان له، فقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: نعم، قيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ قال: لا[2].

٢- الصدق يجعل صاحبه قليل الكلام، محتاط فى استعماله، حتى لا يقع فى زلات كثيرة، فإذا وجدت الرجل يكثر الكلام، فاعلم أنه على خطر عظيم، قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»[3].

٣- الصدق يدعو صاحبه للجرأة والشجاعة؛ لأنه ثابت لا يتلون، ولأنه واثق لا يتردد، ولذلك جاء فى تعريفات الصدق: «القول بالحق فى مواطن الهلكة»[4].

٤- من آثار الصدق -أيضًا- تفريج الهم، والنجاة من الكرب، كما فى قصة كعب بن مالك -رضى الله عنه- وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك دون عذر، فقد عاقبهم رسول الله ﷺ بنهى المسلمين عن كلامهم خمسين يومًا، وقد شق ذلك عليهم، واستغل أعداء الإسلام هذه الفرصة، فاتصل ملك غسان بكعب، يعرض عليه أن يلجأ إليه، فيواسيه، ويترك الإسلام، فرفض كعب، ولما تاب الله عليهم ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له: «يا رسول الله إن الله إنما أنجانى بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت»[5].

---

(١) الأخلاق الإسلامية، حسن السعيد المرسى، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) موطأ مالك، ٢/ ٩٩٠.

(٣) رواه مسلم وأبو داود، وانظر جامع الأصول حديث رقم: ٨١٨٩.

(٤) تهذيب مدارج السالكين، ص ٣٩٨.

(٥) صحيح مسلم، كتاب التوبة، ٤/ ٢١٢٠.

٥- من آثار الصدق -أيضًا- الهدوء النفسى والطمأنينة القلبية، يقول النبى ﷺ: «دع ما يريبك إلا ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»(١).

إن الإسلام لا يعلِّم المسلمين فضيلة الكلمة الصادقة وحسب، ولكنه يعلمهم أيضًا كيف يجب أن يكون تلقيهم لها، وكيف يجب أن تكون كفالتهم لها ولأهلها، وكيف يجب أن يكون مسلكهم إزاء الكذب والتضليل.

ولا يدين الإسلام الكذب وحسب، ولكنه يميز بين ضروب من الرذائل، ودرجات من الإثم، كلها تتصل بانتهاك المعرفة الصحيحة(٢).

والمسلم الحق هو الذى لا يستحل الكذب أبدًا، مهما نال بسببه من مكاسب، فما قيمة مكسب دنيوى رخيص يغضب الله عز وجل!!

وعلى الذين يحلفون كذبًا لترويج سلعة ما، أن يتوبوا إلى ربهم، ويعلموا أن هذا حرام وباطل، وأن بركته ضائعة. وعلى أصحاب المهن والصنائع أيضًا، أن يستغفروا ربهم من تلك الذنوب التى يقعون فيها، نتيجة المماطلة وخلف الوعد وتغيير العقود والعهود.

ومثلهم -أيضًا- أصحاب الولايات والمناصب، الذين يصرحون بأنهم سيفعلون كذا وكذا، وتتعلق أفئدة الجمهور بهم، ثم لا يفوا بمعشار ما أعلنوا. وكان بإمكانهم أن يؤجلوا الإعلان بعد العمل، حتى لا تضعف ثقة الجمهور فيهم، ولا يقتدى بهم العامة، فيظهر الفساد فى البر والبحر.

❀❀❀

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ٥٥٨.

(٢) الفضائل الخلقية فى الإسلام، ص ١٣٧-١٣٨.

الفصل الثالث:

العدل

العدل ضد الظلم، يقال: عدل الشيء وعدله أقامه وسواه، وعكسه: الجور، والحيف، والظلم، فالجور: العدول عن الحق، والحيف: الميل فى الحكم والجور فيه، والظلم: مجاوزة الحدّ، ومفارقة الحق، ووضع الشيء فى غير موضعه إما بزيادة، أو بنقصان(١).

والمراد بالعدل: أن يعطى كل ذى حق حقه بلا بخس ولا ظلم ولا إفراط ولا تفريط(٢).

وقد حث القرآن الكريم على العدل، وجعله هدف الرسالات السماوية يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فالرسالات السماوية كلها، على اختلاف أزمانها وأماكنها، إنما جاءت لتقر فى الناس مبادئ الحق والعدل، فهى تضع ميزانًا واحدًا، ومعيارًا واحدًا يقاس به الناس، فلا محاباة لجنس على حساب الآخر، ولا محاباة للون على آخر، وإنما هذا الميزان كفيل بأن يقيم العدل بين الناس؛ لأن منزِّله هو رب الناس جميعًا، الذى لا يحابى أحدًا على حساب أحد، ولا يحابى أمة على حساب أمة أخرى، إنما جعل للناس المنهج الذى يضمن لهم الحياة فى ظل الحق والعدل.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

(١) لسان العرب، مادة عدل، ٤/ ٢٨٣٨، والمعجم الوسيط، ٢/ ٦٠٩.

(٢) أخلاق الإسلام وأخلاق دعاته، ص ٢٠٨.

ويقول -أيضًا-: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقد حثت السنة النبوية الشريفة على إقامة العدل بين الناس، فمن ذلك ما روى عن النبى ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن -وكلتا يديه يمين- الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وُلوا»(١).

وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم: إمام عادل...»(٢).

وقال النبى ﷺ: «يكون فى آخر أمتى مسخ وقذف وخسف، ويبدأ بأهل المظالم»(٣).

وحض النبى ﷺ على ضرورة مقاومة الظلم، وحذر من مغبة التقاعس عن ذلك فقال: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله تعالى بعذاب منه»(٤).

وأبعد من هذا دلالة على وجود العدل أن الله تعالى قد حرم الظلم على نفسه، ففى الصحيح أن النبى ﷺ قال إن الله تعالى قال فى الحديث القدسى: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»(٥).

---

(١) صحيح مسلم -كتاب الإمارة- باب فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٨.

(٢) متفق عليه.

(٣) الأدب المفرد، باب ٢٢٥.

(٤) رواه أبو داود والترمذى والنسائى، والآداب الشرعية، ١/ ١٩٢-١٩٣.

(٥) رواه مسلم وأحمد.

ويقول ابن تيمية إن الله عز وجل: «ينتصف من العباد، ويقضى بينهم بالعدل، وإن القضاء بينهم بغير العدل ظلم يتنزه الله عنه. وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره»(١).

ودعوة المظلوم مستجابة: يقول ﷺ: «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(٢).

ويقول الله تعالى: «وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»(٣).

ولله در القائل:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

هذا التقدير الكامل للعدل والإدانة الشديدة للظلم هما اللذان يفسران لنا عدل عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- الذى بلغ حداً لا يحلم ببلوغه خيال الفلاسفة المتفائلين، ويفسران تخوف كبار فقهاء المسلمين من مناصب القضاء وتهربهم من توليها، حتى بلغ الأمر بالولاة الاضطرار إلى سجن بعض العلماء والفقهاء قسراً على قبول منصب القضاء(٤). والمنصور العباسى حبس الإمام أبا حنيفة -رحمه الله- وضربه بالسياط بسبب إصراره على رفض منصب القضاء(٥)، وقصة المنصور مع أبى حنيفة ليست الوحيدة فى هذا الباب(٦)، والعدل يصون خيرات كثيرة عديدة أساسية وحيوية، كالحياة والمال والعرض، وغيرها.

---

(١) منهاج السنة النبوية فى نقض الشيعة والقدرية، ١/ ٣٣.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه أحمد والترمذى.

(٤) كتاب الكبائر، الذهبى، ص ١٣٠، والإمام الشافعى، عبد الحليم الجندى، ص ٢٢٤.

(٥) أبو حنيفة، الشيخ أبو زهرة، ص ٤٦..

(٦) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، آدم متز، ص ٣٦٠.

صور العدل:

لا شك أن العدل هو «الإرادة الراسخة والدائمة لاحترام كل الحقوق وأداء كل الواجبات»[1]، وللعدل صور كثيرة، نذكر منها:

أولاً: العدل مع النفس:

وذلك بالتوازن بين حق البدن: من الراحة والعناية والطعام والشراب، وحق الروح من الزاد الإيمانى والعبادات المحضة، ومن جانب آخر يوازن المسلم بين حق النفس، وحق الله، وحق الأهل، والأولاد، فلا يجعل حقًا من هذه الحقوق يطغى على حق آخر فإن فى ذلك ظلمًا.

ويقول الرسول ﷺ: **«إن لبدنك عليك حقًا وإن لعينك عليك حقًا وإن لأهلك عليك حقًا وإن لزورك عليك حقًا»**[2].

فعلى المرء أن يعدل مع نفسه أولا، حتى لا يعرضها لعذاب الله بانحرافها عن الحق والعدل، فهو إن فعل ذلك يكون ظالمًا مع نفسه، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

ثانيًا: العدل مع الأهل والأولاد:

فمن صور العدل أن يعدل الزوج مع زوجته فلا يظلمها، وينبغى على الوالدين أن يعدلوا فى معاملاتهم لأولادهم، فلا ينبغى لهم أن يفضلوا أحد الأبناء على الآخرين فيعطونه من الهبة أكثر مما يعطوا الآخرين، أو يخصونه بالعطية دون غيره من إخوته، فإن ذلك يغرس بذور الحقد والكراهية فى قلوب الأولاد فينشىء بينهم العداوة والبغضاء.

وقد روى الإمام مسلم بسنده عن النعمان بن بشير -رضى الله عنهما- قال: «تصدق علىَّ أبى ببعض ماله فقالت أمى عمرة بنت رواحة لا أرضى

(١) الأخلاق النظرية، د. عبد الرحمن بدوى، ص ١٦٥.

(٢) متفق عليه.

حتى تشهد رسول الله ﷺ فانطلق أبى إلى النبى ﷺ ليشهده على صدقته فقال له رسول الله ﷺ: «أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا. قال: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم فرجع أبى فرد تلك الصدقة».

ثالثًا: العدل بين الزوجات:

فقد أباح الله تعدد الزوجات، وجعل له قيدًا لابد منه، وهو العدل فيما يملك الإنسان العدل فيه، يقول تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

أما الميل القلبى إلى إحداهن فهذا مما ليس للإنسان فيه إرادة، ما لم بين على هذا الميل أمرًا ماديًا، يقول تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

أما أن يميل الإنسان إلى إحدى زوجاته فيغدق عليها من كل الخيرات ويحرم الأخرى، فإن هذا ظلم حرمه الله، بل ينبغى عليه أن يعدل بينهن فى كل الأمور المادية.

رابعًا: العدل في الشهادة:

وذلك بأن تؤدى الشهادة على وجهها الصحيح دون تزييف أو تزوير للحقائق، يقول تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

ويقول أيضًا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

خامسًا: العدل الاجتماعى:

عمل الإسلام على تقليل الفجوة بين الأغنياء والفقراء فشرّع الوسائل التى من شأنها أن ترفع من شأن الفقراء، ومن هذه الوسائل:

١- فرض الزكاة لتؤخذ من الأغنياء وترد للفقراء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

٢- جعل الله للفقراء نصيبًا من الفيء[١] قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

٣- ولما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل -رضى الله عنه- إلى اليمن قال: «إنك تأتى قومًا أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله -عز وجل- افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة فى أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٢].

٤- حذر الله تعالى من عدم إطعام المسكين وعدم الحض على ذلك، فمن لم يطعم المسكين كان من أهل سقر المعذبين فى النار: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٤] وترك الحض على

(١) الفيء هو ما أخذه المسلمون من الكفار دون قتال.

(٢) رواه الجماعة عن ابن عباس.

إطعام المسكين قرين الكفر بالله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٤] والمجتمع الذى تضيع فيه الفئات الضعيفة مجتمع مذموم ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧-٢٠].

سادسًا: العدل فى الحكم:

إن العدل فضيلة الأب والابن، والرئيس والمرؤوس، والقاضى والشاهد، والحاكم والمحكوم، والبائع والمشترى، وكل من يأخذ ويعطى، يثيب ويعاقب، بصرف النظر عن مقدار ما يعطى أو يأخذ؟ والأوامر القرآنية بالعدل تتجه إلى كل هؤلاء وليست مقصورة على فئة منهم. يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] فهذا أمر للحكام والقضاة، ولكل من يحكم.

فالحاكم، أو رئيس الدولة، قاضى بين طبقات الأمة وفئاتها، وهو الذى يسن الكثير من القواعد والقوانين -بعد موافقة أولى الأمر- وهو أيضًا يملك السلطة التى تستطيع إنفاذ العدل أو عرقلته ومن العسير رده عن ظلمه، لأنه يمثل قمة السلطة؟ حتى أول الأمر ربما لا يفلحوا فى حمله على العدل.

والقاضى يعدل بين الأفراد والجماعات؛ لكنه لا يسن القواعد والقوانين. إنه مجرد منفذ، ومن الممكن رده وإحالة الأمر إلى قاضٍ آخر. وصعوبة مهمته ترجع أساسًا إلى ما يلجأ إليه المتخاصمون عادة من تزوير وتضليل، وبخاصة فى هذا العصر[1].

(١) الفضائل الخلقية فى الإسلام، د. أحمد عبد الرحمن، ص ١١٦-١١٧.

سابعًا: العدل مع غير المسلمين:

من عظمة الدين الإسلامى أنه لا يفرق بين المسلم وغيره من أصحاب الديانات الأخرى فى العدل؛ لأن الله -عز وجل- وضعه لينعم به كل الناس، بل إن الله استأمن هذه الأمة على إقرار العدالة بين الناس، فهى المسئولة أمام الله -تعالى- عن إقرار قيم العدل والحق فى الأرض، يقول الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فلا يدفع الحب إلى المحاباة، ولا يدفع الكره إلى الظلم والجور. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨]. ويقف الإنسان مندهشًا أمام ما حدث بين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب -رضى الله عنهما- وقد تحاكم علىٌّ أمام عمر، وكان الخصم يهوديًا، وكان عمر -كعادته- ينادى عليه قائلاً: يا أبا الحسن، فلما ناداه فى هذه المرة وهو يتحاكم أمامه ظهر الغضب على وجه علىّ فظن عمر أن عليًا يتبرم من وقوفه مع اليهودى على قدم المساواة، فقال عمر لعلى: أكرهت أن يكون خصمك يهوديًا؟ فقال على -رضى الله عنه-: إنما غضبت لأنك لم تسو بينى وبين خصمى اليهودى إذ ناديته باسمه وناديتنى بكنيتى!![1].

إلى هذا الحد يريد الإمام على -رضى الله عنه- أن يسوى بينه وبين اليهودى حتى فى أسلوب النداء!!

هلاك الأمم يأتى بالتفريط فى إقامة العدل:

فالله -سبحانه وتعالى- إنما استخلف هذه الأمة لتقيم العدل بين الناس، فإن هى تخلت عن هذه الرسالة، فإنها لم تعد صالحة للاستخلاف، بل

(١) أخلاق الإسلام وأخلاق دعاته، ص ٢١٢.

يؤخرها الله لتكون فى مؤخرة الأمم، ولهذا قالوا: (إن الدولة العادلة تبقى وإن كانت كافرة، وإن الدولة الظالمة تفنى وإن كانت مسلمة).

ويقول أبو بكر الصديق -رضى الله عنه- «القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له». فهو يقرر أن الظالم يكون ضعيفًا فى ظل الحاكم العادل، والضعيف يكون قويًا؛ لأنه صاحب حق يحميه الحاكم العادل.

ويبين الرسول ﷺ أن استثناء بعض الناس من تطبيق الأحكام لاعتبار الفقر أو الغنى، أو الشرف أو الوضاعة، هو نوع من الظلم الذى ينذر الأمة كلها بالهلاك والغناء. فعن عائشة -رضى الله عنها- أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ ثم قالوا من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فكلمة أسامة، فقال رسول الله ﷺ: يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله؟! ثم قام فخطب فقال: «إنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(١).

❀❀❀

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى.

الفصل الرابع:

الشجاعة

الشجاعة: هى قوة فى النفس ينشئها الإيمان الصادق، بثبات القلب والثقة بالله، فيخلو القلب من الوهن الذى هو حب الدنيا وكراهية الموت.

وتقوم الشجاعة أساسًا فى ضبط النفس عند مواجهة الخطر، وفى الظروف الأليمة، كما تقوم فى مواجهة الظلم والشر بالقول والفعل، وفى التغلب على الصعوبات والأخطار التى تتجاوز المعتاد، وفى احتمال أشد الآلام بصبر وثبات»[1].

والشجاعة تقترن دائمًا بالخطر على الحياة، وتطلب التضحية بالحياة الفردية فى سبيل إنقاذ الخير الأسمى الذى هو الدين والأمة الإسلامية.

وباستقراء آيات القرآن الكريم التى أمرت المسلمين بالقتال والثبات يوم الزحف ومجابهة الأخطار يبين أنها أنما أمرت بذلك فى سبيل خير أعظم من الحياة، وهو الذين.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ويقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

ويقول: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٨٤].

(١) الأخلاق النظرية، ص ١٧٨.

ويقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥- ١٦].

ولكى نربى المسلم الشجاع الذى لا يعرف الجبن علينا أن نرسخ فى أعماقه الإيمان بالقيمة العليا للدين والأمة، وبالقيمة المتوسطة للحياة الفردية(١).

تلك طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستكمن، إنه يضفى على صاحبه قوة تنطبع فى سلوكه كله، فإذا تكلم كان واثقًا من قوله، وإذا اشتغل كان راسخًا فى عمله، وإذا اتجه كان واضحًا فى هدفه، ومادام مطمئنًا إلى الفكرة التى تملأ عقله، وإلى العاطفة التى تعمر قلبه، فقلما يعرف التردد سبيلا إلى نفسه، وقلما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه بل لا عليه أن يقول لمن حوله ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [الزمر: ٣٩- ٤٠].

هذه اللهجة المقرونة بالتحدى، وهذه الروح المستقلة فى العمل، وتلك الثقة فيما يرى أنه الحق.. ذلك كله يجعله فى الحياة رجل مبدأ متميز، فهو يعاشر الناس على بصيرة من أمره، إن رآهم على الصواب تعاون معهم، وإن وجدهم مخطئين، نأى بنفسه، واستوحى ضميره وحده(٢).

قال رسول الله ﷺ: «لا يكن أحدكم إمعة. يقول: أنا مع الناس. إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم»(٣).

إن الإسلام يكره للمسلم أن يكون مترددًا فى أموره، يحار فى اختيار أصوبها وأسلمها.

---

(١) الفضائل الخلقية فى الإسلام، ص ١٥٧.

(٢) خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالى، ص ٩٥.

(٣) رواه الترمذى.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»(١).

ومن أفضل الشجاعة: الصراحة فى الحق، وكتمان السر وحفظه، والإقرار بالخطأ والاعتراف به، والإنصاف من النفس، والانتصار للغير منها، وملكها عند الغضب.

وفى الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»(٢).

ويقول عبادة بن الصامت -رضى الله عنه-: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحًا، عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم»(٣).

وليست الشجاعة مقصورة على حمل السلاح ومشاهدة الحروب، بل إن كثيراً من الأعمال اليومية يحتاج إلى شجاعة لا تقل عن شجاعة الجنود؛ فرجال المطافئ، والأطباء، وعمال المناجم، وصيادو الأسماك فى البحار عند اشتداد الرياح وتلاطم الأمواج، والممرضات اللائى يتعرضن للأخطار بتمريض المصابين بالأمراض المعدية وربانو السفن البخارية، كل هؤلاء وأمثالهم شجعات يتحملون الأخطار كما يتحمل الجنود، ويقابلون الشدائد بصبر وثبات.

ومن أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشدائد، فشجاع من إذا عراه خطب لم يذهب برشده، بل يقابله برزانة وثبات ويتصرف فيه بذهن حاضر وعقل غير مشتت(٤).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة.
(٣) رواه مسلم.
(٤) الأخلاق، أحمد أمين، ص ٢٠٦.

وهناك ما يسمى بالشجاعة الأدبية، ونعنى بها أن يبدى الإنسان رأيه، وما يعتقد أنه الحق مهما ظن الناس به أو تقولوا عليه من غضب عظيم، يقول الحق بأدب وإن تألم منه الناس، ويعترف بالخطأ وإن نالته عقوبة، ويرفض العمل بما لا يراه صوابًا.

• صور من الشجاعة:

١- شجاعة الرسول ﷺ:

كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، لا يبالى بكثرة العدد، ولم يفر من عدو قط، ولم يدبر منهزمًا قط. يقول على بن أبى طالب -رضى الله عنه-: «كنا إذا اشتد البأس، وحميت الحرب التقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدر نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو» -ولقد كانت الصحابة تقول: «إن الشجاع منا للذى يقوم بجانبه يستتر به»، وقيل لأنس -رضى الله عنه-: أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ فقال: لكن رسول الله لم يفر، ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبى ﷺ يقول:

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وجاء فى العقد الفريد أنه ﷺ كان يمتدح الموت قصعًا، أى رمية أو ضربة، ويهجو الموت على الفراش[1].

٢- شجاعة أبو بكر الصديق -رضى الله عنه-:

تظهر شجاعة أبو بكر الصديق -رضى الله عنه- جلية فى حرب المرتدين ومانعى الزكاة، إذ إنه وقف صامدًا صلبًا قويًا واثقًا بمعية الله -عز وجل- حتى قال بعض المسلمين له: يا خليفة رسول الله ﷺ لا طاقة لك بحرب العرب جميعًا.. الزم بيتك، واغلق بابك، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين!!

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ١/ ١٠١.

ولكن الرجل البكاء اللين، الرقيق، رحيم القلب، ينقلب فى لحظة إلى أسد ثائر، يصيح فى عمر بن الخطاب: أجبار فى الجاهلية، خوار فى الإسلام؟ لقد تم الوحى واكتمل.. أفينقضى الدين وأنا حى؟ والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

٣- شجاعة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-:

حياة عمر -رضى الله عنه- تنم عن شخصية قوية لا تهاب أحدًا، ولا تكتم حقًا، ويظهر هذا منذ بداية إسلامه، حيث قال: يا رسول الله: علام نخفى ديننا ونحن على الحق، وهم على الباطل فقال: رسول الله ﷺ. إنا قليل وقد رأيت ما لقينا.

فقال له عمر: والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بكفر إلا جلست فيه بالإيمان؛ ثم خرج الرسول ﷺ إلى الكعبة فى صفين من المسلمين فى أحدهما حمزة وفى الآخر عمر.

وعندما أراد أن يهاجر أعلن على الملأ من قريش: من شاء أن تثكله أمه، ويتم ولده فليلقنى خلف هذا الوادى، فما استطاع أحد أن يتتبعه.

ونرى هذه الشجاعة واضحة فى تعامله مع المنافقين والمشركين.

٤- مواقف أخرى لصحابة رسول الله ﷺ:

لما دنا المشركون يوم بدر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فقال عمير بن الحمام الأنصارى يا رسول الله: جنة عرضها السموات والأرض؟! قال: نعم قال: بخ بخ قال رسول الله ﷺ: وما يحملك على قول بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها: قال فإنك من أهلها.. فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم فمازال يقاتل حتى قتل[1].

(١) رواه مسلم، وأحمد.

وعن عبد الرحمن بن عوف -رضى الله عنه- قال: «إنى لفى الصف يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن، فكأنى لم آمن بمكانهما، إذ قال لى أحدهما سرًا من صاحبه: يا عم: أرنى أبا جهل، فقلت: يا ابن أخى ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه؟ وقال لى آخر سرًا من صاحبه مثله قال: فما سرنى أننى بين رجلين مكانهما.

فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين، فضرباه حتى قتلاه، وهما ابنا عفراء»(١).

٥- نماذج من شجاعة بعض علماء الأمة:

التاريخ مملوء بكثير ممن ضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل قوة الحق ونصرته، وصبروا على الآلام عشقًا للحق وهيامًا به، واستعذبوا الرزايا تنزل بهم؛ لأنهم يحبون الحق أكثر مما يحبون أنفسهم، فقد أوذوا فى الحق، فتحملوا الأذى وباعوا أنفسهم، وأموالهم مرضاة له.

فابن رشد الفيلسوف الشهير المتوفى سنة ٥٩٥هـ اضطهد من أجل اشتغاله بالفلسفة وسجن ونفى فلم يعبأ بذلك كله.

وابن تيمية أحد الفقهاء المشهورين المتوفى سنة ٧٢٨هـ أداه اجتهاده إلى مخالفة فقهاء عصره فى بعض المسائل فوشوا به إلى السلطات فسجنه، فظل يكتب الرسائل فى سجنه يؤيد بها مذهبه ويدحض بها حجج معارضيه.

❀❀❀

(١) متفق عليه.

الفصل الخامس:

الصبـــر

الصبر: هو حبس النفس عن الجزع، يقال: صبر على الأمر: احتمله ولم يجزع، وحبس نفسه وضبطها[1].

يقول الشيخ محمد عبده -رحمه الله-: «الصبر هو تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع الروية فى دفعه، ومقاومة ما يحدثه من الجزع، فهو مركب من أمرين: دفع الجزع ومحاولة طرده، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس»[2].

والصبرقوة فى النفس تمكنها من: «احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم يحملها على ترك الحق أو اجتراح الباطل»[3].

وقال ابن الجوزى: إن الصابر على المصائب سمى صابراً «لأنه حبس نفسه عن الجزع»[4].

والصبر يمكننا من النهوض بأعباء الفضائل الأخرى التى تتطلب احتمال المشاق، فالثبات يوم الزحف يتطلب الصبر على الرباط، وبر الوالدين يحتاج إلى الصبر على احتمال رعايتهما، وكفالة اليتيم تحتاج إلى الصبر على النهوض بمطالبه حتى يلى شئون نفسه، والحج والصيام، والتعليم والعمل، كل ذلك يحتاج إلى الصبر كشرط للنجاح فيه.

وفى حالات الحرمان من المواهب الجسدية أو من الولد والمال، يكون الصبر هو الفضيلة التى يعتصم بها المسلم ضد مزالق السخط، والطريق الذى يصون دينه وهدوءه النفسى.

---

(١) المعجم الوسيط، ١/ ٥٢٥.
(٢) تفسير المنار، ٤/ ٢٧٧.
(٣) المرجع نفسه، ٩/ ٧٧.
(٤) ذم الهوى، ص ٥٨.

وليس معنى هذا أن الصبر يوجب على المسلم الاستسلام.

إن المسلم إذا استطاع أن يعمل شيئًا لدفع البلاء، فالإسلام يوجب عليه ذلك: «كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا يؤمر بالصبر عليه.. وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته[1].

وقد ذكر الله تعالى الصابرين بأوصاف، ذكر الصبر فى القرآن الكريم فى نيف وسبعين موضعًا، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له، فقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر!!

وسُئل رسول الله ﷺ -أى الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الناس على قدر دينهم فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على الأرض ما عليه خطيئة»[2].

وقال ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تصرمها مرة وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله. ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذبة على أصلها لا يصيبها شىء حتى يكون انجعافها مرة واحدة»[3].

(١) مختصر منهاج القاصدى، ص ٣٠٢.
(٢) رواه ابن حبان.
(٣) رواه مسلم، ومعنى انجعافها: قلعها.

ولا يتحقق أجر وفضل الصبر بمجرد نزول البلاء، ولكن الحد الأدنى من الصبر المقبول هو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن النطق بما لا يرضى الله، وحبس القلب عن الاعتراض على قدر الله، وأعلى درجات الصبر هو الرضا المطلق، والاطمئنان الكامل بقدر الله، أما أن يتلقى العبد البلاء بالجزع والكفر والاعتراض على قضاء الله وقدره، ثم بعد ذلك يقول أنا صابر! فهذا ليس صبراً يثيب الله عليه أهل البلاء.

فعن أنس -رضى الله عنه- قال: مر النبى ﷺ على امرأة تبكى عند قبر فقال: اتقى الله واصبرى» فقالت: إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبى ﷺ فأتت النبى ﷺ فلم تجده عنده بوّابين فقالت: لم أعرفك فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[1].

وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: «ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»[2].

● **أقسام الصبر:**

الصبر فضيلة صعبة المنال؛ لأن الذين يثبتون على ما يشق على النفس، ويتحملون البأساء والضراء، لا يمكن أن يكونوا أفراداً عاديين؛ إنهم ذوو قدرات روحية وطاقات خلقية متميزة، وإيمان بالله لا يتزعزع.

ولقد قسم أبو الحسن الماوردى الصبر إلى ستة أقسام[3]:

الأول: الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به، والانتهاء عمّا نهى الله عنه؛ لأنه به تخلص الطاعة، وبها يصح الدين، وتؤدى الفروض ويستحق الثواب،

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه البخارى.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٨٧- ٢٩٠.

كما قال فى محكم الكتاب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ولذلك قال النبى ﷺ: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد». وليس لمن قل صبره على طاعة حظٌّ من برّ ولا نصيب من صلاح.

وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف، فإن من خاف الله -عز وجل- صبر على طاعته، ومن جزع عقابه وقف عند أوامره.

الثانى: الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها، أو حادثة قد كدّه الهم بها، فإن الصبر عليها يعقبه الراحة، ويكسبه المثوبة عنها. فإن صبر طائعًا وإلا احتمل همًّا لازمًا وصبر كارهًا آثمًا.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليختر ربًا سواى». وقال على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- للأشعث بن قيس: إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور.

الثالث: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة، وأعوز نيله من مسرّة مأمولة، فإن الصبر عنها يعقب السلوّ منها، والأسف بعد اليأس خرق.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «من أُعطى فشكر، ومُنع فصبر، وظُلم فغفر، وظَلم فاستغفر، فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون».

وقال بعض الحكماء: اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم تقله.

الرابع: الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل همّ ما لم يأت، فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من الهم مدفوع.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**بالصبر يتوّقع الفرج، ومن يدمن قرع باب يلج**».

وقال الحسن البصرى: لا تحملنى على يومك همّ غدك، فحسب كل يوم همه.

الخامس: الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها، وينتظر من نعمة يأملها، فإنه إن أدهشه التوقّع لها، وأذهله التطلع إليها انسدّت عليه سبل المطالب واستفزّه تسويل المطامع، فكان أبعد لرجائه وأعظم لبلائه.

وإذا كان مع الرغبة وقوراً، وعند الطلب صبوراً تجلت عنه عماية الدهش، وانجابت عنه حيرة الوله، فأبصر رشده وعرف قصده.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**الصبر ضياء**»، يعنى أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الأمور.

السادس: الصبر على ما نزل من مكروه، أو حلّ من أمر مخوف. فبالصبر فى هذا تنفتح وجوه الآراء، وتستدفع مكائد الأعداء، فإن من قلّ صبره عزب رأيه، واشتد جزعه، فصار صريع همومه، وفريسة غمومه.

وقد قال الله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ [لقمان: ١٧].

وروى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن استطعت أن تعمل لله بالرضى فى اليقين فافعل، وإن لم تستطع فاصبر، فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**».

واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر.

والمرء محتاج إلى الصبر فى كل الأحوال: فهو يحتاج إليه فى السراء، كما يحتاج إليه فى الضراء. بل هو إليه فى السراء أحوج، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية[1].

(١) الأخلاق عند الغزالى، زكى مبارك، ص ١٧٧.

• **نماذج من صبره ﷺ:**

لقد بلغ رسول الله ﷺ مبلغًا عظيمًا فى الصبر، وعلّم أصحابه كيف يصبرون من ذلك:

١- صبره ﷺ على المشركين بمجرد إخبارهم ببعثته، رموه بالكذب، والكهانة، والسحر، والجنون، فصبر على كل ذلك.

٢- صبره ﷺ على أذى بعض أصحابه، كما هو الحال من حادثة الإفك، وغيرها من المواقف، حتى أنه كان يسمع أذى بعضهم فيشق عليه ويتغير وجهه ولكن كان يقول: أوذى موسى بأكثر من ذلك فصبر[١].

٣- صبره ﷺ على المرض وآلامه: وفى ذلك تقول عائشة -رضى الله عنها- «ما رأيت رجلاً أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ»[٢].

٤- صبره ﷺ على موت أحبابه وأصحابه: فقد صبر على وفاة زوجه خديجة، وعمه أبى طالب، وأبنائه الذكور[٣].

وإذا كان النبى ﷺ قد بلغ الشأن فى الصبر فقد علّم أصحابه كيف يصبرون فى مختلف الأمور وضروبها، فقد علمهم الصبر من أجل هذا الدين، والتضحية فى سبيله.

فعن أسيد بن حضير أن رجلا من الأنصار خلا برسول الله ﷺ فقال: ألا تستعملنى كما استعملت فلانًا؟ فقال: «إنكم ستلقون بعدى أثرة، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض»[٤].

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى - كتاب الأدب: ١٠/ ٥١٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، ٤/ ١٩٩٠.

(٣) الأخلاق الإسلامية، حس السعيد المرسى، ص ١٩٧.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، ٣/ ١٤٧٤.

وقد علمهم النبى ﷺ الصبر على جميع أنواع المحن والبلاء والمصائب، فعن صهيب -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»(١).

• جزاء الصابرين فى الدنيا:

قد يُعجّلُ الله للصابرين بعض الجزاء فى الدنيا فضلا عما يدخره لهم فى الآخرة. فعن أم سلمة -رضى الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون» اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيراً منها إلا أخلفه الله خيراً منها، فلما مات أبو سلمة قلتُ: أى المسلمين خير من أبى سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ -ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسول الله ﷺ»(٢).

وعن أنس -رضى الله عنه- قال: «كان ابنٌ لأبى طلحة -رضى الله عنه- يشتكى، فخرج أبو طلحة فقُبض الصبى، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابنى؟ قالت أم سليم -وهى أم الصبى-: هو أسكن ما كان فقرّبتْ له العشاء ثم أصاب منها فلما فرغ قالت: واروا الصبى فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ -فأخبره. فقال: «أعرستم الليلة؟ قال: نعم، قال: اللهم بارك لهما فولدت غلامًا، فقال لى أبو طلحة: احمله حتى تأتى به النبى ﷺ وبعث معه تمرات. فقال «أمعه شىء؟» قال: نعم، تمرات، فأخذها النبى ﷺ فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها فى فم الصبى ثم حنكه وسماه عبد الله».

وفى رواية للبخارى: قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن -يعنى من أولاد عبد الله المولود»(٣).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٩٥.

(٢) رواه مسلم، ومالك فى الموطأ، وأبو داود، وابن ماجة.

(٣) متفق عليه.

وفى كتاب الله الكريم، ما يفيد أن الصبر فاضل، وأن من يتحلى به، هو الجدير بالسعادة والهناء، وأن من يتخلى عنه حقيق بأن يكون فى خسران وبوار وضلال، يقول تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١، ٣].

والصبر وسيلة طيبة يستعان بها على الخير ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

❀❀❀

الفصل السادس:

الحِلم والصفح

الحِلم: خلق من أخلاق الإسلام العظيمة، والذى يتمثل فى تريث الإنسان وتثبته فى الأمر، ويعنى الأناة وضبط النفس(١).

وهو ضبط إرادى للانفعال فى مواجهة إساءات الآخرين، ابتغاء وجه الله.

وهذا الضبط الإرادى يعطى الحليم الفرصة للتفكير الهادئ والتقدير السديد لتلك الإساءات، فيقرر بطريقة سليمة خلقيًا ودينيًا أن يقابلها بمثلها، أو يعفو عنها.

وهكذا يكفل الحلم لصاحبه البقاء ضمن إطار القانون والفضيلة ويجنبه تجاوزهما. أما الخير الذى يجنيه الغير من حلم الحليم فهو الأمن من الظلم أو انتهاك الفضيلة والقانون بالاعتداء أو بالعقاب المخالف لهما، وكذلك يتيح الحلم للغير الفرصة لنيل العفو والصفح عن إساءته(٢).

وعندما نتأمل آيات القرآن الكريم التى تعالج الحلم نجد أنها تذكره كصفة لله -عز وجل- ثم لأنبيائه -صلوات الله وسلامه عليهم. وأنها تقرنه -غالبًا- بالمغفرة.

يقول تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

(١) المعجم الوسيط، ١/ ٢٠١.

(٢) تفسير المنار، ٤/ ٤٢٧.

وقوله -عز وجل- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ويلاحظ أن الصيغة اللغوية التى ذكر بها الحلم فى القرآن هى الصفة؛ ولكنها مع ذلك تشير إلى حث القرآن على الحلم بطريقة غير مباشرة، فهى صفة رفيعة وصف الله بها ذاته تعالى، ثم وصف بها أنبياءه عليهم الصلاة والسلام(١).

وفى كتاب الله فضلا عن هذا ثناء كبير على ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وتقدير مرموق للمؤمنين الذين ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

وقد ورد فى السنة النبوية العديد من الأحاديث التى تحث على فضيلة الحلم وتغرى المسلمين على الالتزام بها.

يقول النبى ﷺ: «ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله»(٢).

ويقول ﷺ: «ألا أدلكم على أشدكم؟ أملككم لنفسه عند الغضب»(٣).

ويقول -أيضًا-: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»(٤).

ففى هذه الأحاديث -فضلا عن الحث الصريح والندب الواضح إلى فضيلة الحلم -بيان لعدة حقائق تتعلق بهذه الفضيلة.

أول هذه الحقائق: كون الغيظ أو الغضب العنيف مسلمة أولية للحلم، وإذا لم يوجد غضب لأى سبب، لم يعد للحلم مكان.

والثانية: أن الحلم فضيلة صعبة المنال؛ لأنها تتطلب شخصية خلقية قوية، وأرادة خلقية ماضية لضبط الانفعال العنيف.

---

(١) الفضائل الخلقية فى الإسلام، ص ٢٤١.
(٢) رواه ابن ماجة.
(٣) منتخب كنز العمال، ص ١٦٦.
(٤) الموطأ، ص ٤٧، حديث (١٢).

والثالثة: أن الحلم فضيلة عالية القيمة.

والرابعة: أن القيمة الخلقية للحلم ترتهن بنية الفوز برضا الله أو قصد وجه الله.

ولقد حذر الرسول ﷺ من الغضب الذى يخرج صاحبه عن حد الاعتدال. فعن أبى هريرة -رضى الله عنه- «أن رجلا قال للنبى ﷺ أوصنى قال: «لا تغضب» فردد مرارًا قال «لا تغضب»[1].

• فضل الحلم والصفح:

بالتأمل فى صفة الحلم نجد أنها تعود على صاحبها بالخير والسعادة فى الدنيا والآخرة، تجمل منها:

١- جعل الله -عز وجل- الحلم والعفو من صفات المتقين الذين يسارعون إلى مغفرة الله وإلى الجنة، فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٤].

٢- الحلم يحيل العداوة مودة، يقول الله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥].

٣- جعل الله تعالى الصفح، والعفو والحلم من علامات القوة، وليس من علامات الضعف والعجز، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

---

(١) رواه البخارى.

٤- الحلم يحبه الله تعالى، فعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»(١).

وعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على ما سواه»(٢).

وعنها -أيضًا- قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه»(٣).

٥- الحليم العفو يدعوه الله يوم القيامة ليخيّره من الحور العين ما شاء، فعن معاذ بن أنس -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء»(٤).

٦- جعل الله تعالى الحلم من صفات عباده الذين يُجزون الغرفة بما صبروا، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

٧- يُحرِّم الله تعالى النار على كل هين لين سهل، فعن ابن مسعود -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار -أو بمن تحرم عليه النار- تحرم على كل قريب هين لين سهل»(٥).

٨- الحلم من صفات الأنبياء والمرسلين، يقول الله تعالى واصفًا إبراهيم -عليه السلام- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

---

(١) رواه مسلم. ومعنى الأناة التثبت وترك العجلة.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو داود والترمذى.

(٥) رواه الترمذى، وقال حديث حسن.

ويقول واصفًا إسماعيل -عليه السلام.. ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

• نماذج عملية فى الحلم:

الحلم من الآداب التى يجب أن يتحلى بها المسلم فى حياته، اقتداءً برسول الله ﷺ صاحب الأدب والخلق الرفيع ومن هذه النماذج:

١- حلم النبى ﷺ:

حيث ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى الحلم والعفو والصفح الجميل، فعن عائشة -رضى الله عنهما- قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما أنتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط، إلا أن تُنهك حرمة الله فينتقم لله تعالى»(١).

وعن أنس بن مالك -رضى الله عنه- قال: «كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى، فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ -قد أثرت به حاشية البرد من شدة جبذته -ثم قال: يا محمد، مر لى من مال الله الذى عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم أمر له بعطايا»(٢).

هذا مثل رائع فى حلم النبى ﷺ -مع الأعرابى الذى تطاول عليه بيده وبلسانه، وكان رد فعل الرسول ﷺ فى هذا الموقف الذى يطيش فيه عقل أهل الأرض أن يضرب المثل الأعلى فى الحلم، فيبتسم، ويأمر له بعطاء على بعيرين، أحدهما عليه شعير، وعلى الآخر تمرًا.

وقد اتسع حلمه ﷺ حتى شمل الناس جميعًا، فقد روى جابر بن عبد الله -رضى الله عنهما- قال: أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة(٣) منصرفه من

---

(١) متفق عليه.

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى، كتاب الأدب، ١٠/ ٥٠٣.

(٣) الجعرانة: مكان قريب من مكة.

حنين، وفى ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها، يعطى الناس، فقال: يا محمد، اعدل. قال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، فقال عمر -رضى الله عنه-: دعنى يا رسول الله، فأقتل هذا المنافق، فقال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى، إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية»(١).

٢- حلم أبو بكر الصديق -رضى الله عنه:

لقد كان أبو بكر -رضى الله عنه- لين الطبع يؤثر العفو على المؤاخذة، والحلم على الثأر والانتقام، ولكن رغم ذلك فإن موقف مسطح (وكان من أقاربه) من حادث الإفك -حين خاض مسطح مع الخائضين فيه- غضب أبو بكر وأقسم ألا ينفق عليه، فنزل القرآن ليرد أبا بكر إلى صوابه وحلمه وعفوه، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. فرجع أبو بكر مرة أخرى للإنفاق على مسطح.

٣- حلم عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-:

على قدر ما كان عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قويًا فى الحق، لا يخشى فى الله لومة لائم، كان حليمًا عفوًا، فعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحُر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر -رضى الله عنه- وكان القراء أصحاب مجلس عمر -رضى الله عنه- ومشاورته كهولا كانوا أو شبابًا. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير) فأذنْ لى عليه، فاستاذن، فإذن له عمر.

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، ٢/ ٧٤٢

فلما دخل قال: هِيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل فغضب عمر -رضى الله عنه- حتى هَمَّ أن يوقع به. فقال له الحر: يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقّافًا عند كتاب الله تعالى»(١).

٤- حلم الشافعى رحمه الله:

روى أن الشافعى -رحمه الله- خرج ذات يوم من المسجد فقال له رجل: يا شافعى: قال: لبيك. قال: أنت فاسق!

فقال الشافعى: اللهم إنْ كنتُ كما قال فتب علىَّ. وإن لم أكن كما قال فاغفر لى.

وفى اليوم الثانى: حدث كما حدث فى اليوم الأول، وفى اليوم الثالث كذلك.

فقال له الشافعى: يا هذا: إن العالم كالشجرة والعلم كالثمرة. فخذ الثمر ولا شأن لك بالشجرة ، فعاتبه صاحب له: أمَا كان لك أن ترد عليه؟!

فقال الشافعى:

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... وآبى أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة وأزيد حلما ... كعود زاده الإحراق طيبا

❀❀❀

(١) رواه البخارى، هِيْ: كلمة تهديد.

آثار الصدق ونتائجه:

للصدق آثار عظيمة، ونتائج جليلة منها[1]:

١- للصدق رابطة قوية بالإيمان، فالصادق قوى الإيمان، والكاذب لا إيمان له، فقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أيكون المؤمن جبانًا؟ قال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: نعم، قيل له: أيكون المؤمن كذابًا؟ قال: لا[2].

٢- الصدق يجعل صاحبه قليل الكلام، محتاط فى استعماله، حتى لا يقع فى زلات كثيرة، فإذا وجدت الرجل يكثر الكلام، فاعلم أنه على خطر عظيم، قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»[3].

٣- الصدق يدعو صاحبه للجرأة والشجاعة؛ لأنه ثابت لا يتلون، ولأنه واثق لا يتردد، ولذلك جاء فى تعريفات الصدق: «القول بالحق فى مواطن الهلكة»[4].

٤- من آثار الصدق -أيضًا- تفريج الهم، والنجاة من الكرب، كما فى قصة كعب بن مالك -رضى الله عنه- وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك دون عذر، فقد عاقبهم رسول الله ﷺ بنهى المسلمين عن كلامهم خمسين يومًا، وقد شق ذلك عليهم، واستغل أعداء الإسلام هذه الفرصة، فاتصل ملك غسان بكعب، يعرض عليه أن يلجأ إليه، فيواسيه، ويترك الإسلام، فرفض كعب، ولما تاب الله عليهم ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له: «يا رسول الله إن الله إنما أنجانى بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت»[5].

---

(١) الأخلاق الإسلامية، حسن السعيد المرسى، ص ١٦٥-١٦٦.

(٢) موطأ مالك، ٢/ ٩٩٠.

(٣) رواه مسلم وأبو داود، وانظر جامع الأصول حديث رقم: ٨١٨٩.

(٤) تهذيب مدارج السالكين، ص ٣٩٨.

(٥) صحيح مسلم، كتاب التوبة، ٤/ ٢١٢٠.

٥- من آثار الصدق -أيضًا- الهدوء النفسى والطمأنينة القلبية، يقول النبى ﷺ: «دع ما يريبك إلا ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة»(١).

إن الإسلام لا يعلِّم المسلمين فضيلة الكلمة الصادقة وحسب، ولكنه يعلمهم أيضًا كيف يجب أن يكون تلقيهم لها، وكيف يجب أن تكون كفالتهم لها ولأهلها، وكيف يجب أن يكون مسلكهم إزاء الكذب والتضليل.

ولا يدين الإسلام الكذب وحسب، ولكنه يميز بين ضروب من الرذائل، ودرجات من الإثم، كلها تتصل بانتهاك المعرفة الصحيحة(٢).

والمسلم الحق هو الذى لا يستحل الكذب أبدًا، مهما نال بسببه من مكاسب، فما قيمة مكسب دنيوى رخيص يغضب الله عز وجل!!

وعلى الذين يحلفون كذبًا لترويج سلعة ما، أن يتوبوا إلى ربهم، ويعلموا أن هذا حرام وباطل، وأن بركته ضائعة. وعلى أصحاب المهن والصنائع أيضًا، أن يستغفروا ربهم من تلك الذنوب التى يقعون فيها، نتيجة المماطلة وخلف الوعد وتغيير العقود والعهود.

ومثلهم -أيضًا- أصحاب الولايات والمناصب، الذين يصرحون بأنهم سيفعلون كذا وكذا، وتتعلق أفئدة الجمهور بهم، ثم لا يفوا بمعشار ما أعلنوا. وكان بإمكانهم أن يؤجلوا الإعلان بعد العمل، حتى لا تضعف ثقة الجمهور فيهم، ولا يقتدى بهم العامة، فيظهر الفساد فى البر والبحر.

❀❀❀

(١) الترغيب والترهيب، ٣/ ٥٥٨.

(٢) الفضائل الخلقية فى الإسلام، ص ١٣٧-١٣٨.

الفصل الثالث:

العدل

العدل ضد الظلم، يقال: عدل الشيء وعدله أقامه وسواه، وعكسه: الجور، والحيف، والظلم، فالجور: العدول عن الحق، والحيف: الميل فى الحكم والجور فيه، والظلم: مجاوزة الحدّ، ومفارقة الحق، ووضع الشيء فى غير موضعه إما بزيادة، أو بنقصان(١).

والمراد بالعدل: أن يعطى كل ذى حق حقه بلا بخس ولا ظلم ولا إفراط ولا تفريط(٢).

وقد حث القرآن الكريم على العدل، وجعله هدف الرسالات السماوية يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فالرسالات السماوية كلها، على اختلاف أزمانها وأماكنها، إنما جاءت لتقر فى الناس مبادئ الحق والعدل، فهى تضع ميزانًا واحدًا، ومعيارًا واحدًا يقاس به الناس، فلا محاباة لجنس على حساب الآخر، ولا محاباة للون على آخر، وإنما هذا الميزان كفيل بأن يقيم العدل بين الناس؛ لأن منزِّله هو رب الناس جميعًا، الذى لا يحابى أحدًا على حساب أحد، ولا يحابى أمة على حساب أمة أخرى، إنما جعل للناس المنهج الذى يضمن لهم الحياة فى ظل الحق والعدل.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

(١) لسان العرب، مادة عدل، ٤/ ٢٨٣٨، والمعجم الوسيط، ٢/ ٦٠٩.

(٢) أخلاق الإسلام وأخلاق دعاته، ص ٢٠٨.

ويقول -أيضًا-: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقد حثت السنة النبوية الشريفة على إقامة العدل بين الناس، فمن ذلك ما روى عن النبى ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن -وكلتا يديه يمين- الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وُلوا»(١).

وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله منهم: إمام عادل...»(٢).

وقال النبى ﷺ: «يكون فى آخر أمتى مسخ وقذف وخسف، ويبدأ بأهل المظالم»(٣).

وحض النبى ﷺ على ضرورة مقاومة الظلم، وحذر من مغبة التقاعس عن ذلك فقال: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله تعالى بعذاب منه»(٤).

وأبعد من هذا دلالة على وجود العدل أن الله تعالى قد حرم الظلم على نفسه، ففى الصحيح أن النبى ﷺ قال إن الله تعالى قال فى الحديث القدسى: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا»(٥).

---

(١) صحيح مسلم -كتاب الإمارة- باب فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٨.

(٢) متفق عليه.

(٣) الأدب المفرد، باب ٢٢٥.

(٤) رواه أبو داود والترمذى والنسائى، والآداب الشرعية، ١/ ١٩٢-١٩٣.

(٥) رواه مسلم وأحمد.

ويقول ابن تيمية إن الله عز وجل: «ينتصف من العباد، ويقضى بينهم بالعدل، وإن القضاء بينهم بغير العدل ظلم يتنزه الله عنه. وأنه لا يحمل على أحد ذنب غيره»(١).

ودعوة المظلوم مستجابة: يقول ﷺ: «اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(٢).

ويقول الله تعالى: «وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين»(٣).

ولله در القائل:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

هذا التقدير الكامل للعدل والإدانة الشديدة للظلم هما اللذان يفسران لنا عدل عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- الذى بلغ حداً لا يحلم ببلوغه خيال الفلاسفة المتفائلين، ويفسران تخوف كبار فقهاء المسلمين من مناصب القضاء وتهربهم من توليها، حتى بلغ الأمر بالولاة الاضطرار إلى سجن بعض العلماء والفقهاء قسراً على قبول منصب القضاء(٤). والمنصور العباسى حبس الإمام أبا حنيفة -رحمه الله- وضربه بالسياط بسبب إصراره على رفض منصب القضاء(٥)، وقصة المنصور مع أبى حنيفة ليست الوحيدة فى هذا الباب(٦)، والعدل يصون خيرات كثيرة عديدة أساسية وحيوية، كالحياة والمال والعرض، وغيرها.

---

(١) منهاج السنة النبوية فى نقض الشيعة والقدرية، ١/ ٣٣.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) رواه أحمد والترمذى.

(٤) كتاب الكبائر، الذهبى، ص ١٣٠، والإمام الشافعى، عبد الحليم الجندى، ص ٢٢٤.

(٥) أبو حنيفة، الشيخ أبو زهرة، ص ٤٦..

(٦) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، آدم متز، ص ٣٦٠.

صور العدل:

لا شك أن العدل هو «الإرادة الراسخة والدائمة لاحترام كل الحقوق وأداء كل الواجبات»[1]، وللعدل صور كثيرة، نذكر منها:

أولاً: العدل مع النفس:

وذلك بالتوازن بين حق البدن: من الراحة والعناية والطعام والشراب، وحق الروح من الزاد الإيمانى والعبادات المحضة، ومن جانب آخر يوازن المسلم بين حق النفس، وحق الله، وحق الأهل، والأولاد، فلا يجعل حقًا من هذه الحقوق يطغى على حق آخر فإن فى ذلك ظلمًا.

ويقول الرسول ﷺ: **«إن لبدنك عليك حقًا وإن لعينك عليك حقًا وإن لأهلك عليك حقًا وإن لزورك عليك حقًا»**[2].

فعلى المرء أن يعدل مع نفسه أولا، حتى لا يعرضها لعذاب الله بانحرافها عن الحق والعدل، فهو إن فعل ذلك يكون ظالمًا مع نفسه، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

ثانيًا: العدل مع الأهل والأولاد:

فمن صور العدل أن يعدل الزوج مع زوجته فلا يظلمها، وينبغى على الوالدين أن يعدلوا فى معاملاتهم لأولادهم، فلا ينبغى لهم أن يفضلوا أحد الأبناء على الآخرين فيعطونه من الهبة أكثر مما يعطوا الآخرين، أو يخصونه بالعطية دون غيره من إخوته، فإن ذلك يغرس بذور الحقد والكراهية فى قلوب الأولاد فينشىء بينهم العداوة والبغضاء.

وقد روى الإمام مسلم بسنده عن النعمان بن بشير -رضى الله عنهما- قال: «تصدق علىَّ أبى ببعض ماله فقالت أمى عمرة بنت رواحة لا أرضى

(١) الأخلاق النظرية، د. عبد الرحمن بدوى، ص ١٦٥.

(٢) متفق عليه.

حتى تشهد رسول الله ﷺ فانطلق أبى إلى النبى ﷺ ليشهده على صدقته فقال له رسول الله ﷺ: «أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا. قال: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم فرجع أبى فرد تلك الصدقة».

ثالثًا: العدل بين الزوجات:

فقد أباح الله تعدد الزوجات، وجعل له قيدًا لابد منه، وهو العدل فيما يملك الإنسان العدل فيه، يقول تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

أما الميل القلبى إلى إحداهن فهذا مما ليس للإنسان فيه إرادة، ما لم بين على هذا الميل أمرًا ماديًا، يقول تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٢٩].

أما أن يميل الإنسان إلى إحدى زوجاته فيغدق عليها من كل الخيرات ويحرم الأخرى، فإن هذا ظلم حرمه الله، بل ينبغى عليه أن يعدل بينهن فى كل الأمور المادية.

رابعًا: العدل فى الشهادة:

وذلك بأن تؤدى الشهادة على وجهها الصحيح دون تزييف أو تزوير للحقائق، يقول تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨].

ويقول أيضًا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

خامسًا: العدل الاجتماعى:

عمل الإسلام على تقليل الفجوة بين الأغنياء والفقراء فشرّع الوسائل التى من شأنها أن ترفع من شأن الفقراء، ومن هذه الوسائل:

١- فرض الزكاة لتؤخذ من الأغنياء وترد للفقراء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

٢- جعل الله للفقراء نصيبًا من الفىء[1] قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

٣- ولما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل -رضى الله عنه- إلى اليمن قال: «إنك تأتى قومًا أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله -عز وجل- افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة فى أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[2].

٤- حذر الله تعالى من عدم إطعام المسكين وعدم الحض على ذلك، فمن لم يطعم المسكين كان من أهل سقر المعذبين فى النار: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٤] وترك الحض على

(١) الفىء هو ما أخذه المسلمون من الكفار دون قتال.

(٢) رواه الجماعة عن ابن عباس.

إطعام المسكين قرين الكفر بالله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٤] والمجتمع الذى تضيع فيه الفئات الضعيفة مجتمع مذموم ﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧-٢٠].

سادسًا: العدل فى الحكم:

إن العدل فضيلة الأب والابن، والرئيس والمرؤوس، والقاضى والشاهد، والحاكم والمحكوم، والبائع والمشترى، وكل من يأخذ ويعطى، يثيب ويعاقب، بصرف النظر عن مقدار ما يعطى أو يأخذ؟ والأوامر القرآنية بالعدل تتجه إلى كل هؤلاء وليست مقصورة على فئة منهم. يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] فهذا أمر للحكام والقضاة، ولكل من يحكم.

فالحاكم، أو رئيس الدولة، قاضى بين طبقات الأمة وفئاتها، وهو الذى يسن الكثير من القواعد والقوانين -بعد موافقة أولى الأمر- وهو أيضًا يملك السلطة التى تستطيع إنفاذ العدل أو عرقلته ومن العسير رده عن ظلمه، لأنه يمثل قمة السلطة؟ حتى أول الأمر ربما لا يفلحوا فى حمله على العدل.

والقاضى يعدل بين الأفراد والجماعات؛ لكنه لا يسن القواعد والقوانين. إنه مجرد منفذ، ومن الممكن رده وإحالة الأمر إلى قاضٍ آخر. وصعوبة مهمته ترجع أساسًا إلى ما يلجأ إليه المتخاصمون عادة من تزوير وتضليل، وبخاصة فى هذا العصر[1].

(١) الفضائل الخلقية فى الإسلام، د. أحمد عبد الرحمن، ص ١١٦-١١٧.

سابعًا: العدل مع غير المسلمين:

من عظمة الدين الإسلامي أنه لا يفرق بين المسلم وغيره من أصحاب الديانات الأخرى فى العدل؛ لأن الله -عز وجل- وضعه لينعم به كل الناس، بل إن الله استأمن هذه الأمة على إقرار العدالة بين الناس، فهى المسئولة أمام الله -تعالى- عن إقرار قيم العدل والحق فى الأرض، يقول الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فلا يدفع الحب إلى المحاباة، ولا يدفع الكره إلى الظلم والجور. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٨]. ويقف الإنسان مندهشًا أمام ما حدث بين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب -رضى الله عنهما- وقد تحاكم علىٌّ أمام عمر، وكان الخصم يهوديًا، وكان عمر -كعادته- ينادى عليه قائلاً: يا أبا الحسن، فلما ناداه فى هذه المرة وهو يتحاكم أمامه ظهر الغضب على وجه علىّ فظن عمر أن عليًا يتبرم من وقوفه مع اليهودى على قدم المساواة، فقال عمر لعلى: أكرهت أن يكون خصمك يهوديًا؟ فقال على -رضى الله عنه-: إنما غضبت لأنك لم تسو بينى وبين خصمى اليهودى إذ ناديته باسمه وناديتنى بكنيتى!![1].

إلى هذا الحد يريد الإمام على -رضى الله عنه- أن يسوى بينه وبين اليهودى حتى فى أسلوب النداء!!

هلاك الأمم يأتى بالتفريط فى إقامة العدل:

فالله -سبحانه وتعالى- إنما استخلف هذه الأمة لتقيم العدل بين الناس، فإن هى تخلت عن هذه الرسالة، فإنها لم تعد صالحة للاستخلاف، بل

(١) أخلاق الإسلام وأخلاق دعاته، ص ٢١٢.

يؤخرها الله لتكون فى مؤخرة الأمم، ولهذا قالوا: (إن الدولة العادلة تبقى وإن كانت كافرة، وإن الدولة الظالمة تفنى وإن كانت مسلمة).

ويقول أبو بكر الصديق -رضى الله عنه- «القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له». فهو يقرر أن الظالم يكون ضعيفًا فى ظل الحاكم العادل، والضعيف يكون قويًا؛ لأنه صاحب حق يحميه الحاكم العادل.

ويبين الرسول ﷺ أن استثناء بعض الناس من تطبيق الأحكام لاعتبار الفقر أو الغنى، أو الشرف أو الوضاعة، هو نوع من الظلم الذى ينذر الأمة كلها بالهلاك والغناء. فعن عائشة -رضى الله عنها- أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ ثم قالوا من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فكلمة أسامة، فقال رسول الله ﷺ: يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله؟! ثم قام فخطب فقال: «إنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1].

❀❀❀

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى.

الفصل الرابع:

الشجاعة

الشجاعة: هى قوة فى النفس ينشئها الإيمان الصادق، بثبات القلب والثقة بالله، فيخلو القلب من الوهن الذى هو حب الدنيا وكراهية الموت.

وتقوم الشجاعة أساسًا فى ضبط النفس عند مواجهة الخطر، وفى الظروف الأليمة، كما تقوم فى مواجهة الظلم والشر بالقول والفعل، وفى التغلب على الصعوبات والأخطار التى تتجاوز المعتاد، وفى احتمال أشد الآلام بصبر وثبات»[1].

والشجاعة تقترن دائمًا بالخطر على الحياة، وتطلب التضحية بالحياة الفردية فى سبيل إنقاذ الخير الأسمى الذى هو الدين والأمة الإسلامية.

وباستقراء آيات القرآن الكريم التى أمرت المسلمين بالقتال والثبات يوم الزحف ومجابهة الأخطار يبين أنها أنما أمرت بذلك فى سبيل خير أعظم من الحياة، وهو الذين.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ويقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

ويقول: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٨٤].

(١) الأخلاق النظرية، ص ١٧٨.

ويقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥- ١٦].

ولكى نربى المسلم الشجاع الذى لا يعرف الجبن علينا أن نرسخ فى أعماقه الإيمان بالقيمة العليا للدين والأمة، وبالقيمة المتوسطة للحياة الفردية(١).

تلك طبيعة الإيمان إذا تغلغل واستكمن، إنه يضفى على صاحبه قوة تنطبع فى سلوكه كله، فإذا تكلم كان واثقًا من قوله، وإذا اشتغل كان راسخًا فى عمله، وإذا اتجه كان واضحًا فى هدفه، ومادام مطمئنًا إلى الفكرة التى تملأ عقله، وإلى العاطفة التى تعمر قلبه، فقلما يعرف التردد سبيلا إلى نفسه، وقلما تزحزحه العواصف العاتية عن موقفه بل لا عليه أن يقول لمن حوله ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [الزمر: ٣٩- ٤٠].

هذه اللهجة المقرونة بالتحدى، وهذه الروح المستقلة فى العمل، وتلك الثقة فيما يرى أنه الحق.. ذلك كله يجعله فى الحياة رجل مبدأ متميز، فهو يعاشر الناس على بصيرة من أمره، إن رآهم على الصواب تعاون معهم، وإن وجدهم مخطئين، نأى بنفسه، واستوحى ضميره وحده(٢).

قال رسول الله ﷺ: «لا يكن أحدكم إمعة. يقول: أنا مع الناس. إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم»(٣).

إن الإسلام يكره للمسلم أن يكون مترددًا فى أموره، يحار فى اختيار أصوبها وأسلمها.

---

(١) الفضائل الخلقية فى الإسلام، ص ١٥٧.

(٢) خلق المسلم، الشيخ محمد الغزالى، ص ٩٥.

(٣) رواه الترمذى.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان»(١).

ومن أفضل الشجاعة: الصراحة فى الحق، وكتمان السر وحفظه، والإقرار بالخطأ والاعتراف به، والإنصاف من النفس، والانتصار للغير منها، وملكها عند الغضب.

وفى الحديث: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»(٢).

ويقول عبادة بن الصامت -رضى الله عنه-: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحًا، عندكم من الله فيه برهان، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم»(٣).

وليست الشجاعة مقصورة على حمل السلاح ومشاهدة الحروب، بل إن كثيراً من الأعمال اليومية يحتاج إلى شجاعة لا تقل عن شجاعة الجنود؛ فرجال المطافئ، والأطباء، وعمال المناجم، وصيادو الأسماك فى البحار عند اشتداد الرياح وتلاطم الأمواج، والممرضات اللائى يتعرضن للأخطار بتمريض المصابين بالأمراض المعدية وربانو السفن البخارية، كل هؤلاء وأمثالهم شجعات يتحملون الأخطار كما يتحمل الجنود، ويقابلون الشدائد بصبر وثبات.

ومن أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشدائد، فشجاع من إذا عراه خطب لم يذهب برشده، بل يقابله برزانة وثبات ويتصرف فيه بذهن حاضر وعقل غير مشتت(٤).

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة.
(٣) رواه مسلم.
(٤) الأخلاق، أحمد أمين، ص ٢٠٦.

وهناك ما يسمى بالشجاعة الأدبية، ونعنى بها أن يبدى الإنسان رأيه، وما يعتقد أنه الحق مهما ظن الناس به أو تقولوا عليه من غضب عظيم، يقول الحق بأدب وإن تألم منه الناس، ويعترف بالخطأ وإن نالته عقوبة، ويرفض العمل بما لا يراه صوابًا.

• صور من الشجاعة:

١- شجاعة الرسول ﷺ:

كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، لا يبالى بكثرة العدد، ولم يفر من عدو قط، ولم يدبر منهزمًا قط. يقول على بن أبى طالب -رضى الله عنه-: «كنا إذا اشتد البأس، وحميت الحرب التقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدر نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو» -ولقد كانت الصحابة تقول: «إن الشجاع منا للذى يقوم بجانبه يستتر به»، وقيل لأنس -رضى الله عنه-: أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ فقال: لكن رسول الله لم يفر، ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبى ﷺ يقول:

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وجاء فى العقد الفريد أنه ﷺ كان يمتدح الموت قصعًا، أى رمية أو ضربة، ويهجو الموت على الفراش[1].

٢- شجاعة أبو بكر الصديق -رضى الله عنه-:

تظهر شجاعة أبو بكر الصديق -رضى الله عنه- جلية فى حرب المرتدين ومانعى الزكاة، إذ إنه وقف صامدًا صلبًا قويًا واثقًا بمعية الله -عز وجل- حتى قال بعض المسلمين له: يا خليفة رسول الله ﷺ لا طاقة لك بحرب العرب جميعًا.. الزم بيتك، واغلق بابك، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين!!

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه، ١/ ١٠١.

ولكن الرجل البكاء اللين، الرقيق، رحيم القلب، ينقلب فى لحظة إلى أسد ثائر، يصيح فى عمر بن الخطاب: أجبار فى الجاهلية، خوار فى الإسلام؟ لقد تم الوحى واكتمل.. أفينقضى الدين وأنا حى؟ والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه.

٣- شجاعة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-:

حياة عمر -رضى الله عنه- تنم عن شخصية قوية لا تهاب أحدًا، ولا تكتم حقًا، ويظهر هذا منذ بداية إسلامه، حيث قال: يا رسول الله: علام نخفى ديننا ونحن على الحق، وهم على الباطل فقال: رسول الله ﷺ. إنا قليل وقد رأيت ما لقينا.

فقال له عمر: والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بكفر إلا جلست فيه بالإيمان؛ ثم خرج الرسول ﷺ إلى الكعبة فى صفين من المسلمين فى أحدهما حمزة وفى الآخر عمر.

وعندما أراد أن يهاجر أعلن على الملأ من قريش: من شاء أن تثكله أمه، وييتم ولده فليلقنى خلف هذا الوادى، فما استطاع أحد أن يتتبعه.

ونرى هذه الشجاعة واضحة فى تعامله مع المنافقين والمشركين.

٤- مواقف أخرى لصحابة رسول الله ﷺ:

لما دنا المشركون يوم بدر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، فقال عمير بن الحمام الأنصارى يا رسول الله: جنة عرضها السموات والأرض؟! قال: نعم قال: بخ بخ قال رسول الله ﷺ: وما يحملك على قول بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها: قال فإنك من أهلها.. فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه، إنها لحياة طويلة، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم فمازال يقاتل حتى قتل[1].

(١) رواه مسلم، وأحمد.

وعن عبد الرحمن بن عوف -رضى الله عنه- قال: «إنى لفى الصف يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن، فكأنى لم آمن بمكانهما، إذ قال لى أحدهما سرًا من صاحبه: يا عم: أرنى أبا جهل، فقلت: يا ابن أخى ما تصنع به؟ قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه؟ وقال لى آخر سرًا من صاحبه مثله قال: فما سرنى أننى بين رجلين مكانهما.

فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين، فضرباه حتى قتلاه، وهما ابنا عفراء»(١).

٥- نماذج من شجاعة بعض علماء الأمة:

التاريخ مملوء بكثير ممن ضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل قوة الحق ونصرته، وصبروا على الآلام عشقًا للحق وهيامًا به، واستعذبوا الرزايا تنزل بهم؛ لأنهم يحبون الحق أكثر مما يحبون أنفسهم، فقد أوذوا فى الحق، فتحملوا الأذى وباعوا أنفسهم، وأموالهم مرضاة له.

فابن رشد الفيلسوف الشهير المتوفى سنة ٥٩٥هـ اضطهد من أجل اشتغاله بالفلسفة وسجن ونفى فلم يعبأ بذلك كله.

وابن تيمية أحد الفقهاء المشهورين المتوفى سنة ٧٢٨هـ أداه اجتهاده إلى مخالفة فقهاء عصره فى بعض المسائل فوشوا به إلى السلطات فسجنه، فظل يكتب الرسائل فى سجنه يؤيد بها مذهبه ويدحض بها حجج معارضيه.

❀❀❀

(١) متفق عليه.

الفصل الخامس:

الصبر

الصبر: هو حبس النفس عن الجزع، يقال: صبر على الأمر: احتمله ولم يجزع، وحبس نفسه وضبطها[1].

يقول الشيخ محمد عبده -رحمه الله-: «الصبر هو تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه مع الروية فى دفعه، ومقاومة ما يحدثه من الجزع، فهو مركب من أمرين: دفع الجزع ومحاولة طرده، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس»[2].

والصبرقوة فى النفس تمكنها من: «احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم يحملها على ترك الحق أو اجتراح الباطل»[3].

وقال ابن الجوزى: إن الصابر على المصائب سمى صابراً «لأنه حبس نفسه عن الجزع»[4].

والصبر يمكننا من النهوض بأعباء الفضائل الأخرى التى تتطلب احتمال المشاق، فالثبات يوم الزحف يتطلب الصبر على الرباط، وبر الوالدين يحتاج إلى الصبر على احتمال رعايتهما، وكفالة اليتيم تحتاج إلى الصبر على النهوض بمطالبه حتى يلى شئون نفسه، والحج والصيام، والتعليم والعمل، كل ذلك يحتاج إلى الصبر كشرط للنجاح فيه.

وفى حالات الحرمان من المواهب الجسدية أو من الولد والمال، يكون الصبر هو الفضيلة التى يعتصم بها المسلم ضد مزالق السخط، والطريق الذى يصون دينه وهدوءه النفسى.

---

(١) المعجم الوسيط، ١/ ٥٢٥.
(٢) تفسير المنار، ٤/ ٢٧٧.
(٣) المرجع نفسه، ٩/ ٧٧.
(٤) ذم الهوى، ص ٥٨.

وليس معنى هذا أن الصبر يوجب على المسلم الاستسلام.

إن المسلم إذا استطاع أن يعمل شيئًا لدفع البلاء، فالإسلام يوجب عليه ذلك: «كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه لا يؤمر بالصبر عليه.. وإنما يكون الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته[1].

وقد ذكر الله تعالى الصابرين بأوصاف، ذكر الصبر فى القرآن الكريم فى نيف وسبعين موضعًا، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له، فقال عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر!!

وسُئل رسول الله ﷺ -أى الناس أشد بلاءً؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الناس على قدر دينهم فمن ثخن دينه اشتد بلاؤه، ومن ضعف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشى على الأرض ما عليه خطيئة»[2].

وقال ﷺ: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الريح، تصرمها مرة وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله. ومثل الكافر كمثل الأرزة المجذبة على أصلها لا يصيبها شىء حتى يكون انجعافها مرة واحدة»[3].

---

(١) مختصر منهاج القاصدى، ص ٣٠٢.

(٢) رواه ابن حبان.

(٣) رواه مسلم، ومعنى انجعافها: قلعها.

ولا يتحقق أجر وفضل الصبر بمجرد نزول البلاء، ولكن الحد الأدنى من الصبر المقبول هو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن النطق بما لا يرضى الله، وحبس القلب عن الاعتراض على قدر الله، وأعلى درجات الصبر هو الرضا المطلق، والاطمئنان الكامل بقدر الله، أما أن يتلقى العبد البلاء بالجزع والكفر والاعتراض على قضاء الله وقدره، ثم بعد ذلك يقول أنا صابر! فهذا ليس صبراً يثيب الله عليه أهل البلاء.

فعن أنس -رضى الله عنه- قال: مر النبى ﷺ على امرأة تبكى عند قبر فقال: اتقى الله واصبرى» فقالت: إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبى ﷺ فأتت النبى ﷺ فلم تجده عنده بوّابين فقالت: لم أعرفك فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[1].

وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: «ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»[2].

• أقسام الصبر:

الصبر فضيلة صعبة المنال؛ لأن الذين يثبتون على ما يشق على النفس، ويتحملون البأساء والضراء، لا يمكن أن يكونوا أفرادًا عاديين؛ إنهم ذوو قدرات روحية وطاقات خلقية متميزة، وإيمان بالله لا يتزعزع.

ولقد قسم أبو الحسن الماوردى الصبر إلى ستة أقسام[3]:

الأول: الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به، والانتهاء عمّا نهى الله عنه؛ لأنه به تخلص الطاعة، وبها يصح الدين، وتؤدى الفروض ويستحق الثواب،

---

(١) متفق عليه. (٢) رواه البخارى.

(٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٨٧- ٢٩٠.

كما قال فى محكم الكتاب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ولذلك قال النبى ﷺ: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد». وليس لمن قل صبره على طاعة حظٌّ من برّ ولا نصيب من صلاح.

وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف، فإن من خاف الله -عز وجل- صبر على طاعته، ومن جزع عقابه وقف عند أوامره.

الثانى: الصبر على ما تقتضيه أوقاته من رزية قد أجهده الحزن عليها، أو حادثة قد كدّه الهم بها، فإن الصبر عليها يعقبه الراحة، ويكسبه المثوبة عنها. فإن صبر طائعًا وإلا احتمل همًّا لازمًا وصبر كارهًا آثمًا.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى: «من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليختر ربًا سواى». وقال على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- للأشعث بن قيس: إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور.

الثالث: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة مرجوة، وأعوز نيله من مسرّة مأمولة، فإن الصبر عنها يعقب السلوّ منها، والأسف بعد اليأس خرق.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «من أُعطى فشكر، ومُنع فصبر، وظُلم فغفر، وظَلم فاستغفر، فأولئك لهم الأمن وهم مهتدون».

وقال بعض الحكماء: اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لا يخطر ببالك فلم تقله.

الرابع: الصبر فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها فلا يتعجل همّ ما لم يأت، فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من الهم مدفوع.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**بالصبر يتوّقع الفرج، ومن يدمن قرع باب يلج**».

وقال الحسن البصرى: لا تحملنى على يومك همّ غدك، فحسب كل يوم همه.

الخامس: الصبر فيما يتوقعه من رغبة يرجوها، وينتظر من نعمة يأملها، فإنه إن أدهشه التوقّع لها، وأذهله التطلع إليها انسدّت عليه سبل المطالب واستفزّه تسويل المطامع، فكان أبعد لرجائه وأعظم لبلائه.

وإذا كان مع الرغبة وقوراً، وعند الطلب صبوراً تجلت عنه عماية الدهش، وانجابت عنه حيرة الوله، فأبصر رشده وعرف قصده.

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**الصبر ضياء**»، يعنى أنه يكشف ظلم الحيرة ويوضح حقائق الأمور.

السادس: الصبر على ما نزل من مكروه، أو حلّ من أمر مخوف. فبالصبر فى هذا تنفتح وجوه الآراء، وتستدفع مكائد الأعداء، فإن من قلّ صبره عزب رأيه، واشتد جزعه، فصار صريع همومه، وفريسة غمومه.

وقد قال الله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ [لقمان: ١٧].

وروى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن استطعت أن تعمل لله بالرضى فى اليقين فافعل، وإن لم تستطع فاصبر، فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**».

واعلم أن النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، واليسر مع العسر.

والمرء محتاج إلى الصبر فى كل الأحوال: فهو يحتاج إليه فى السراء، كما يحتاج إليه فى الضراء. بل هو إليه فى السراء أحوج، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية[1].

(١) الأخلاق عند الغزالى، زكى مبارك، ص ١٧٧.

• **نماذج من صبره ﷺ:**

لقد بلغ رسول الله ﷺ مبلغًا عظيمًا فى الصبر، وعلّم أصحابه كيف يصبرون من ذلك:

١- صبره ﷺ على المشركين بمجرد إخبارهم ببعثته، رموه بالكذب، والكهانة، والسحر، والجنون، فصبر على كل ذلك.

٢- صبره ﷺ على أذى بعض أصحابه، كما هو الحال من حادثة الإفك، وغيرها من المواقف، حتى أنه كان يسمع أذى بعضهم فيشق عليه ويتغير وجهه ولكن كان يقول: أوذى موسى بأكثر من ذلك فصبر[١].

٣- صبره ﷺ على المرض وآلامه: وفى ذلك تقول عائشة -رضى الله عنها- «ما رأيت رجلاً أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ»[٢].

٤- صبره ﷺ على موت أحبابه وأصحابه: فقد صبر على وفاة زوجه خديجة، وعمه أبى طالب، وأبنائه الذكور[٣].

وإذا كان النبى ﷺ قد بلغ الشأن فى الصبر فقد علَّم أصحابه كيف يصبرون فى مختلف الأمور وضروبها، فقد علمهم الصبر من أجل هذا الدين، والتضحية فى سبيله.

فعن أسيد بن حضير أن رجلا من الأنصار خلا برسول الله ﷺ فقال: ألا تستعملنى كما استعملت فلانًا؟ فقال: «إنكم ستلقون بعدى أثرة، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض»[٤].

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى - كتاب الأدب: ١٠/ ٥١٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، ٤/ ١٩٩٠.

(٣) الأخلاق الإسلامية، حس السعيد المرسى، ص ١٩٧.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، ٣/ ١٤٧٤.

وقد علمهم النبى ﷺ الصبر على جميع أنواع المحن والبلاء والمصائب، فعن صهيب -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ : «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»(١).

• جزاء الصابرين فى الدنيا:

قد يُعجّلُ الله للصابرين بعض الجزاء فى الدنيا فضلا عما يدخره لهم فى الآخرة. فعن أم سلمة -رضى الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون» اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها إلا أخلفه الله خيرًا منها، فلما مات أبو سلمة قلتُ: أى المسلمين خير من أبى سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ -ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسول الله ﷺ»(٢).

وعن أنس -رضى الله عنه- قال: «كان ابنٌ لأبى طلحة -رضى الله عنه- يشتكى، فخرج أبو طلحة فقُبض الصبى، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابنى؟ قالت أم سليم -وهى أم الصبى-: هو أسكن ما كان فقرّبتْ له العشاء ثم أصاب منها فلما فرغ قالت: واروا الصبى فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله ﷺ -فأخبره. فقال: «أعرستم الليلة؟ قال: نعم، قال: اللهم بارك لهما فولدت غلامًا، فقال لى أبو طلحة: احمله حتى تأتى به النبى ﷺ وبعث معه تمرات. فقال «أمعه شىء؟» قال: نعم، تمرات، فأخذها النبى ﷺ فمضغها ثم أخذها من فيه فجعلها فى فم الصبى ثم حنكه وسماه عبد الله».

وفى رواية للبخارى: قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن -يعنى من أولاد عبد الله المولود»(٣).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٩٥.

(٢) رواه مسلم، ومالك فى الموطأ، وأبو داود، وابن ماجة.

(٣) متفق عليه.

وفى كتاب الله الكريم، ما يفيد أن الصبر فاضل، وأن من يتحلى به، هو الجدير بالسعادة والهناء، وأن من يتخلى عنه حقيق بأن يكون فى خسران وبوار وضلال، يقول تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١، ٣].

والصبر وسيلة طيبة يستعان بها على الخير ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

❀❀❀

الفصل السادس:

الحِلم والصفح

الحِلم: خلق من أخلاق الإسلام العظيمة، والذى يتمثل فى تريث الإنسان وتثبته فى الأمر، ويعنى الأناة وضبط النفس(١).

وهو ضبط إرادى للانفعال فى مواجهة إساءات الآخرين، ابتغاء وجه الله.

وهذا الضبط الإرادى يعطى الحليم الفرصة للتفكير الهادئ والتقدير السديد لتلك الإساءات، فيقرر بطريقة سليمة خلقيًا ودينيًا أن يقابلها بمثلها، أو يعفو عنها.

وهكذا يكفل الحلم لصاحبه البقاء ضمن إطار القانون والفضيلة ويجنبه تجاوزهما. أما الخير الذى يجنيه الغير من حلم الحليم فهو الأمن من الظلم أو انتهاك الفضيلة والقانون بالاعتداء أو بالعقاب المخالف لهما، وكذلك يتيح الحلم للغير الفرصة لنيل العفو والصفح عن إساءته(٢).

وعندما نتأمل آيات القرآن الكريم التى تعالج الحلم نجد أنها تذكره كصفة لله -عز وجل- ثم لأنبيائه -صلوات الله وسلامه عليهم. وأنها تقرنه -غالبًا- بالمغفرة.

يقول تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

---

(١) المعجم الوسيط، ١/ ٢٠١.

(٢) تفسير المنار، ٤/ ٤٢٧.

وقوله -عز وجل- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

ويلاحظ أن الصيغة اللغوية التى ذكر بها الحلم فى القرآن هى الصفة؛ ولكنها مع ذلك تشير إلى حث القرآن على الحلم بطريقة غير مباشرة، فهى صفة رفيعة وصف الله بها ذاته تعالى، ثم وصف بها أنبياءه عليهم الصلاة والسلام(١).

وفى كتاب الله فضلا عن هذا ثناء كبير على ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وتقدير مرموق للمؤمنين الذين ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

وقد ورد فى السنة النبوية العديد من الأحاديث التى تحث على فضيلة الحلم وتغرى المسلمين على الالتزام بها.

يقول النبى ﷺ: «ما من جرعة أعظم أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله»(٢).

ويقول ﷺ: «ألا أدلكم على أشدكم؟ أملككم لنفسه عند الغضب»(٣).

ويقول -أيضًا-: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»(٤).

ففى هذه الأحاديث -فضلا عن الحث الصريح والندب الواضح إلى فضيلة الحلم -بيان لعدة حقائق تتعلق بهذه الفضيلة.

أول هذه الحقائق: كون الغيظ أو الغضب العنيف مسلمة أولية للحلم، وإذا لم يوجد غضب لأي سبب، لم يعد للحلم مكان.

والثانية: أن الحلم فضيلة صعبة المنال؛ لأنها تتطلب شخصية خلقية قوية، وأرادة خلقية ماضية لضبط الانفعال العنيف.

---

(١) الفضائل الخلقية فى الإسلام، ص ٢٤١.
(٢) رواه ابن ماجة.
(٣) منتخب كنز العمال، ص ١٦٦.
(٤) الموطأ، ص ٤٧، حديث (١٢).

والثالثة: أن الحلم فضيلة عالية القيمة.

والرابعة: أن القيمة الخلقية للحلم ترتهن بنية الفوز برضا الله أو قصد وجه الله.

ولقد حذر الرسول ﷺ من الغضب الذى يخرج صاحبه عن حد الاعتدال. فعن أبى هريرة -رضى الله عنه- «أن رجلا قال للنبى ﷺ أوصنى قال: «لا تغضب» فردد مرارًا قال «لا تغضب»[1].

• فضل الحلم والصفح:

بالتأمل فى صفة الحلم نجد أنها تعود على صاحبها بالخير والسعادة فى الدنيا والآخرة، تجمل منها:

١- جعل الله -عز وجل- الحلم والعفو من صفات المتقين الذين يسارعون إلى مغفرة الله وإلى الجنة، فقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٤].

٢- الحلم يحيل العداوة مودة، يقول الله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤- ٣٥].

٣- جعل الله تعالى الصفح، والعفو والحلم من علامات القوة، وليس من علامات الضعف والعجز، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

---

(١) رواه البخارى.

٤- الحلم يحبه الله تعالى، فعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»(١).

وعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب الرفق ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف، وما لا يعطى على ما سواه»(٢).

وعنها -أيضًا- قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ولا ينزع من شىء إلا شانه»(٣).

٥- الحليم العفو يدعوه الله يوم القيامة ليخيّره من الحور العين ما شاء، فعن معاذ بن أنس -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء»(٤).

٦- جعل الله تعالى الحلم من صفات عباده الذين يُجزون الغرفة بما صبروا، فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

٧- يُحرِّم الله تعالى النار على كل هين لين سهل، فعن ابن مسعود -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحرم على النار -أو بمن تحرم عليه النار- تحرم على كل قريب هين لين سهل»(٥).

٨- الحلم من صفات الأنبياء والمرسلين، يقول الله تعالى واصفًا إبراهيم -عليه السلام- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

---

(١) رواه مسلم. ومعنى الأناة التثبت وترك العجلة.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أبو داود والترمذى.

(٥) رواه الترمذى، وقال حديث حسن.

ويقول واصفًا إسماعيل -عليه السلام.. ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١].

• نماذج عملية فى الحلم:

الحلم من الآداب التى يجب أن يتحلى بها المسلم فى حياته، اقتداءً برسول الله ﷺ صاحب الأدب والخلق الرفيع ومن هذه النماذج:

١- حلم النبى ﷺ:

حيث ضرب رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى الحلم والعفو والصفح الجميل، فعن عائشة -رضى الله عنهما- قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما أنتقم رسول الله ﷺ لنفسه فى شىء قط، إلا أن تُنهك حرمة الله فينتقم لله تعالى»(١).

وعن أنس بن مالك -رضى الله عنه- قال: «كنت أمشى مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية، فأدركه أعرابى، فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ -قد أثرت به حاشية البرد من شدة جبذته -ثم قال: يا محمد، مر لى من مال الله الذى عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم أمر له بعطايا»(٢).

هذا مثل رائع فى حلم النبى ﷺ -مع الأعرابى الذى تطاول عليه بيده وبلسانه، وكان رد فعل الرسول ﷺ فى هذا الموقف الذى يطيش فيه عقل أهل الأرض أن يضرب المثل الأعلى فى الحلم، فيبتسم، ويأمر له بعطاء على بعيرين، أحدهما عليه شعير، وعلى الآخر تمرًا.

وقد اتسع حلمه ﷺ حتى شمل الناس جميعًا، فقد روى جابر بن عبد الله -رضى الله عنهما- قال: أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة(٣) منصرفه من

---

(١) متفق عليه.

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى، كتاب الأدب، ١٠/ ٥٠٣.

(٣) الجعرانة: مكان قريب من مكة.

حنين، وفى ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها، يعطى الناس، فقال: يا محمد، اعدل. قال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، فقال عمر -رضى الله عنه-: دعنى يا رسول الله، فأقتل هذا المنافق، فقال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى، إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية»(١).

٢- حلم أبو بكر الصديق -رضى الله عنه:

لقد كان أبو بكر -رضى الله عنه- لين الطبع يؤثر العفو على المؤاخذة، والحلم على الثأر والانتقام، ولكن رغم ذلك فإن موقف مسطح (وكان من أقاربه) من حادث الإفك -حين خاض مسطح مع الخائضين فيه- غضب أبو بكر وأقسم ألا ينفق عليه، فنزل القرآن ليرد أبا بكر إلى صوابه وحلمه وعفوه، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. فرجع أبو بكر مرة أخرى للإنفاق على مسطح.

٣- حلم عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-:

على قدر ما كان عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- قويًا فى الحق، لا يخشى فى الله لومة لائم، كان حليمًا عفوًا، فعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحُر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر -رضى الله عنه- وكان القراء أصحاب مجلس عمر -رضى الله عنه- ومشاورته كهولا كانوا أو شبابًا. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير) فأذنْ لى عليه، فاستاذن، فإذن له عمر.

(١) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، ٢/ ٧٤٢

فلما دخل قال: هِيْ يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل فغضب عمر -رضى الله عنه- حتى هَمَّ أن يوقع به. فقال له الحر: يا أمير المؤمنين: إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقّافًا عند كتاب الله تعالى»(١).

٤- حلم الشافعى رحمه الله:

روى أن الشافعى -رحمه الله- خرج ذات يوم من المسجد فقال له رجل: يا شافعى: قال: لبيك. قال: أنت فاسق!

فقال الشافعى: اللهم إنْ كنتُ كما قال فتب علىَّ. وإن لم أكن كما قال فاغفر لى.

وفى اليوم الثانى: حدث كما حدث فى اليوم الأول، وفى اليوم الثالث كذلك.

فقال له الشافعى: يا هذا: إن العالم كالشجرة والعلم كالثمرة. فخذ الثمر ولا شأن لك بالشجرة ، فعاتبه صاحب له: أمَا كان لك أن ترد عليه؟!

فقال الشافعى:

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... وآبى أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة وأزيد حلما ... كعود زاده الإحراق طيبا

❀❀❀

(١) رواه البخارى، هِيْ: كلمة تهديد.

ويمكن أن نعدد أنواع البر بالوالدين فى النقاط التالية:

أ- عدم التضجر منهما ولو بكلمة «أف» بل يجب الخضوع لأمرهما وخفض الجناح لهما، ومعاملتهما باللطف، وعدم الترفع عليهما.

ب- الشكر لهما، وهذا الشكر الذى جاء مقرونًا بشكر الله والدعاء لهما: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: ٢٤].

جـ-الإحسان إليهما فى القول والعمل، والأخذ والعطاء، وتفضيلهما على النفس والزوجة، ومجاهدة النفس برضاهما حتى وإن كانا غير مسلمين ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

د- رعايتهما ولاسيما عند الكبر، وإدخال السرور عليهما وحفظهما من كل سوء.

هـ- الإنفاق عليهما عند الحاجة ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: ٢١٥].

و- استئذانهما قبل السفر، وأخذ موافقتهما إلا فى حج فرض.

ز- اختصاص الأم بمزيد البر لحاجتها وعظم شأنها وتعبها، والبر يكون بمعنى حسن الصحبة، والعشرة، وبمعنى الطاعة والصلة.

ح- الدعاء لهما بعد موتهما، وإنفاذ عهدهما، وبر صديقهما[1].

٢- الرحمة بالأولاد:

ويكون ذلك بحسن تربيتهم، انطلاقًا من مسئوليته عنهم أمام الله تعالى، يقول عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ

(١) أصول المنهج الإسلامى، ٤٢١-٤٢٢.

وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

كما تكون الرحمة بهم بإشباعهم من العطف والحب والحنان. فعن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: «قبَّل رسول الله ﷺ الحسن أو الحسين بن على وعنده الأقرع بن حابس التميمى، فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا قط: فنظر إليه رسول الله ﷺ وقال: «من لا يرحم لا يُرحم»[1].

وعن عقبة بن عامر -رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان له ثلاث بنات، وصبر عليهن، وكساهن من جدته، كُنّ له حجابًا من النار»[2].

ولتحقيق الرحمة بالأولاد يمكن ابتاع ما يلى:

أ- الحرص على تعليم ما ينفع الولد، وعدم تركه سدى، فليس من الرحمة إهمالهم بما يترتب على ذلك فسادهم.

ب- البعد عن مجالس اللهو والباطل وسماع الفحش والبدع، فليس من الرحمة تعليمهم هذه الموبقات.

جـ- تجنيب الولد الكذب والخيانة.

د- تجنيبه الكسل والبطالة والدعة والراحة.

هـ- تجنيبه مظان الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج[3].

٣- صلة الرحم:

الرحم مشتقة من الرحمة فى مبناها، فيجب أن تستقيم معها فى معناها، ويطلق الرحم على الأقارب من جهة الأبوة أو الأمومة .

---

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد، ١/ ١٥٩.

(٣) أصول المنهج الإسلامى، ص ٤٢٩.

وقد حث القرآن الكريم على صلة الرحم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

وقال -عز وجل- ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥].

وقد حثت السنة النبوية على صلة الرحم، فعن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ قال: «إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه، قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يارب، قال: فهو لك»، قال رسول الله ﷺ فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[1] [محمد: ٢٢].

وعنه -رضى الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سرّه أن يبسط له فى رزقه، وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه»[2].

وعن النبى ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[3].

هذه الوجيهات الإسلامية تحث المسلم على صلة الرحم، وتدفعه إلى أن يؤدى حقوق أقاربه، وأن يقوى بالمودة الدائمة صلات الدم القائمة.

---

(١) صحيح البخارى، كتاب الأدب، حديث رقم (٥٩٨٧).
(٢) صحيح البخارى، كتاب الأدب، حديث رقم (٥٩٨٦).
(٣) صحيح البخارى، كتاب الأدب، حديث رقم (٦١٣٨).

٤- الرحمة باليتامى:

وممن تجب الرحمة بهم اليتامى فإن الإحسان إليهم، والبر بهم، وكفالة عيشهم، وصيانة مستقبلهم من أزكى القربات، بل إن العواطف المنحرفة تعتدل فى هذا المسلك وتلزم الجادة.

فعن أبى هريرة أن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه فقال: «امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين»(١).

وفى رواية: أن رجلاً جاءه يشكو قسوة قلبه فقال له: «أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك»(٢).

وذلك أن القلب يتبلد فى المجتمعات التى تضج بالمرح الدائم، والتى تصبح وتمسى وهى لا ترى من الحياة غير آفاقها الزاهرة، ونعمها الباهرة، والمترفون إنما يتنكرون لآلام الجماهير؛ لأن الملذات التى تيسر لهم تغلف أفئدتهم، وتطمس بصائرهم، فلا تجعلهم يشعرون بحاجة المحتاج، وألم المتألم، وحزن المحزون، والناس إنما يرزقون الأفئدة النبيلة، والمشاعر المرهفة، عندما يتقلبون فى أحوال الحياة المختلفة، ويبلون من السراء والضراء.. عندئذ يُحسُّون بالوحشة مع اليتيم، وبالفقدان مع الثكلى، وبالتبعية مع البائس الفقير(٣).

٥- الرحمة بالحيوان:

فالرحمة فى الإسلام لا تقتصر على البشر فحسب، بل تتعداها لتشمل جميع خلق الله حتى الحيوان، وقد شرعت السنة المشرفة، ودعتْ إلى الرحمة بالحيوان، فأمر الرسول ﷺ بالإحسان فى القتل والذبح، فقال ﷺ: «إن الله

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه الطبرانى.

(٣) خلق المسلم، الشيخ الغزالى، ص ٢٠٩-٢١٠.

كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم، فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»[1].

ونهى الرسول ﷺ عن ركوبها لغير غرض ومنفعة، وقد دخل رسول الله ﷺ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق، فرب مركبة خير من راكبها، وأكثر ذكرا لله منه»[2].

بل جعلت السنة المشرفة إيذاء الحيوان سببًا فى دخول النار، فقال ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هى تركها تأكل من خشاش[3] الأرض»[4].

هذه بعض صور الرحمة التى جاء بها ديننا الحنيف، وتميز عن سائر الأديان والملل التى قلَّت فيها الرحمة، وضعفت فيها الشفقة، وكثرت القسوة، وتعددت فيها صور العنف.

❀❀❀

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد وأبو داود.

(٣) خشاش الأرض: هوام الأرض وحشراتها.

(٤) صحيحة مسلم، كتاب السلام، حديث رقم (٢٢٤٢).

الفصل الحادى عشر:

الإحسان

الإحسان هو أن ينشد الإنسان الكمال فى كل شىء، فالمسلم مطالب أن يُحسن إسلامه ليتضاعف أجره، وحسن إسلامه يكون بإتقانه للعمل، وتحسينه لأدائه، بحيث يشمل مظاهر حياته كلها.

ولذلك عرف الإمام الغزالى الإحسان بقوله: «إتقان للعمل، وتحسين فى الأداء، وحسن فى العطاء، وعدم الإساءة»(١). والإسلام يدعو إلى الإحسان، ويحرص عليه، ويحث أتباعه على ذلك. يقول تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العنكبوت: ٦٩].

ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

ويقول: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ويقول: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤].

فهذه الآيات وغيرها تبين منزلة الإحسان عند الله، وما أنعم عليهم من محبته ورعايته وهدايته.

وقد حث النبى ﷺ أتباعه على الإحسان فى كل شىء، فقد روى عنه ﷺ أنه قال: «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها»(٢).

(١) إحياء علوم الدين، ٣/ ٤٨، وأصول المنهج الإسلامى، ص ٢٩٩.
(٢) صحيح البخارى، كتاب الإيمان، حديث رقم (٤٢).

وعن أبى ذر الغفارى -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(١).

وعنه ﷺ قال: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك»(٢).

فهذه الأحاديث تبين ما للإحسان من مزايا، فعلى المسلم أن يكون محسنًا مع الله، ومع نفسه، ومع غيره من الناس، ولا يكون غليظ القلب، سيىء الطباع.

والإحسان يبدو فى الأعمال والأفعال، فإذا أتقن الإنسان عمله، وما كلف بأدائه من حقوق وواجبات، وإذا قام بأفعال البر، وأحسن إلى الغير، أو عمل عملاً خيرًا، فإنه ينسب إليه هذا الفعل وذلك العمل، ويلقى من الله -عز وجل- أفضل الجزاء لأنه إحسان، وهذا يتأكد بالآية الكريمة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

والإحسان فوق العدل؛ لأن العدل إنصاف وقسمة وقسط، والإحسان إيثار وتضحية، عطاء وبذل للغير عن طواعية ورضاء؛ لأن المحسن لا يطالب بثواب يستحقه فى الدنيا، وإنما يتركه اختيارًا لله تعالى الذى عنده الجزاء الأوفى على إحسانه، وفى هذا يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

وبالإحسان يشعر المؤمن شعورًا ملازمًا، أن الذى يعطى هو الله تعالى وحده، وأن المال والصحة والجاه، وكل ما فى الدنيا إنما هو منه، وإليه فلا يحس المؤمن فى الإحسان بذاته إلا كوسيلة اختارها الله تعالى لفعل الخير، وعمل المعروف(٣).

---

(١) أخرجه الترمذى، وانظر الترغيب والترهيب، ٣/ ٣٦١.

(٢) رواه البخارى، وذكره السيوطى فى الجامع الصغير.

(٣) الأخلاق الإسلامية، د. حسن الشرقاوى، ص ٢١٩-٢٢٠.

فالإحسان بهذا المعنى إمداد واستمداد من الله إلى عبده، وليس وقفًا من العبد على غيره؛ لأن فى الوقف اعتراض ومشاركة للربوبية، وهو نوع من الشرك الخفى، فالله تعالى هو مصدر الخير والمحبة والجود والسخاء، وأى إحسان بخلاف ذلك يخل بمعنى الإحسان على الإطلاق.

من صور الإحسان:

١- الإحسان فى المعاملات والعلاقات الشخصية:

ففى المعاملات والعلاقات الشخصية لا يكتفى بالعدل بل يتعداه إلى الفضل وهو الإحسان.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠].

يقول ابن كثير -رحمه الله-: «يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ [المائدة: ٤٥].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شريعة العدل، والندب إلى الفضل»(١).

ويقول صاحب الظلال: «وإلى جوار العدل.. الإحسان.. يلطف من حدة العدل الصارم الجازم، ويدع الباب مفتوحًا لمن يريد أن يتسامح فى بعض حقه إيثارًا لود القلوب، وشفاء لغل الصدور، ولمن يريد أن ينهض بما فوق العدل الواجب عليه ليداوى جرحًا أو يكسب فضلا، والإحسان أوسع

(١) تفسير ابن كثير، ٢/ ٥٨٢.

مدلالاً، فكل عمل طيب إحسان، والأمر بالإحسان يمثل كل عمل وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها فى علاقات العبد بربه، وعلاقاته بأسرته، وعلاقاته بالجماعة وعلاقاته بالبشرية جميعًا»(١).

٢- الإحسان فى الأموال:

ويكون الإحسان بحسن التصرف فى المال، وذلك بإخراج حق الله فيه ثم تعدى ذلك إلى الإنفاق فى سبيل الله، فى الجهاد وغيره، ثم إحسان الظن بالله أنه سيخلف عليه خيرًا مما أنفقه، فيكون ذلك قد أحسن إلى نفسه فلم يعرضها للتهلكة الناتجة عن ترك الإنفاق والجهاد فى سبيل الله. يقول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. والإنفاق فى السراء والضراء -مع كظم الغيظ والعفو عن الناس- من الإحسان الذى يحبه الله.

يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

٣- الإحسان فى العمل:

ويكون الإحسان فى العمل بإتقانه فى أحسن صورة، بأن يعمل الإنسان العمل لغيره كما يحب أن يعمله غيره له، فإعطاء العمل حقه، بلا غش ولا تدليس، وأداء العمل بلا خمول ولا استهتار، لهو الإحسان الذى يحبه الله.

يقول الرسول ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته ليدح ذبيحته»(٢).

---

(١) فى ظلال القرآن، ٢/ ٨٨٩.

(٢) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجة.

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: مر رسول الله ﷺ على رجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يحد شفرته، وهى تلحظ إليه ببصرها، قال: «أفلا قبل هذا؟ أو: تريد أن تميتها موتات؟!»[1]. فإذا كان هذا التعامل مع الحيوانات!! فكيف يكون التعامل مع بنى البشر؟!

يقول الشيخ محمد الغزالى: «إن الدين إذا لم يكن ارتفاعًا بمستوى الإنسان فما يكون؟ وفى هذه الأيام العجاف أرى جماهير من المسلمين، أبعد أهل الأرض عن حقيقة الإحسان! بيوتهم رديئة، وطرقهم رديئة، وسيرهم ردىء، وإذا صنعوا سلعة خرجت من بين أيديهم دون غيرها مما يصنع الناس، وإذا أداروا عملاً استغرق الكثير من الأوقات والجهود، ولم يبلغوا به درجة الاكتمال التى يحققها من بذل جهدًا أضعف ووقتًا أقل!! كأنهم من طينة غير طينة البشر خلقوا! هؤلاء الناس فى انتمائهم الدينى ريب كبير، ولكى يعودوا إلى الإسلام يجب أن يعاد تشكيلهم العقلى والخلقى حتى إذا باشروا عملاً ما أقبلوا عليه بقواهم المادية والأدبية كلها، فخرج سليمًا كريمًا.. لاسيما ونحن فى حضارة صناعية تقاس فيها الأبعاد «بالملمتر» أو بما دونه، ولا تقبل فيها المجازفات والمساهلات والمصادفات العمياء»[2].

٤- الإحسان فى تمثيل الإسلام:

والإحسان فى تمثيل الإسلام يكون بتجسيد الإسلام تجسيدًا عمليًا فى صورة المعاملات والأخلاقيات، بأن يكون الذين يمثلون الإسلام فى صورة أفضل وأنبل فى جميع المجالات، بحيث يكونوا أسوة لغيرهم من الناس فى شتى مناحى الحياة.

ولكى ينال المسلم أعلى درجات الإحسان ينبغى له أن يربط بين حسن الباطن بالطبع والمعتمد على النية، وحسن الظاهر بالتطبع والمرتبط بأعمال

(١) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط.

(٢) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ص ١٩٦.

الجوارح ليصوغ من ذلك منهجًا تربويًا فى إصلاح النفس وترويضها نحو الأحسن[1].

يقول الشيخ محمد متولى الشعراوى: «لو أن التمثيل السياسى للأمم الإسلامية فى البلاد غير الإسلامية المتحضرة قد أخذ بمبادئ الإسلام لكان أسوة حسنة، وانظر إلى عاصمة واحدة من عواصم الدول الغربية تجد فيها أكثر من ثلاث وستين سفارة إسلامية وكل سفارة يعمل فيها جهاز يزيد على العشرين، هب أن هؤلاء كانوا أسوة إسلامية فى السلوك والمعاملات فى عاصمة غير إسلامية، حينئذ يجد أهل ذلك البلد جالية إسلامية ملتزمة ولم تفتنها زخارف المدينة: لا يشربون الخمر، ولا يراقصون، ولا يترددون على الأماكن سيئة السمعة، ولا تتبرج نساؤهم، بالله ألا يلفت النظر سلوك هؤلاء؟!

ثم يقول «إذن الإحسان من المسلمين أكبر دعاية ودعوة إلى دين الإسلام»[2].

• مكافأة الإسلام للمحسن:

المحسن لا ينتظر بإحسانه جزاءً أو شكرًا ممن أحسن إليه. ومن وُجه إليه الإحسان عليه أن يستشعر فضل المحسن إليه، ولا يكون لئيمًا كنودًا بحيث يقابل الإحسان بالإساءة والإكرام بالجحود[3]، ولكن يكون شاكرًا حتى يكون معترفًا بالفضل. ولذلك قال النبى ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[4].

---

(١) إحياء علوم الدين، ٣/ ٤٧.

(٢) تفسير الشعراوى، المجلد الثانى، وانظر أخلاق الإسلام وأخلاق دعاته، ص ١٠٨-١٠٩.

(٣) أصول المنهج الإسلامى، ص ٣٠٠.

(٤) سنن أبى داود، حديث رقم (٤٠٢٦).

إن أقل ما يقدمه المرء مكافأة لمن أحسن إليه ووفاء لمن وقف بجانبه الشكر باللسان، لكيلا يتعلم المسلمون الكفران والجحود، ونكران المعروف، وحتى لا تموت المروءة فى الناس[1].

ولذلك يقول ﷺ: **«من أتى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»**[2].

ومن صور مكافأة المحسن -أيضًا- المقابلة بالمثل، أو الدعاء له، أو الثناء على فعله. يقول النبى ﷺ: **«ومن لم يجد فليثن، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر»**[3]، وحين ظن المهاجرون أن الأنصار ذهبوا بالخير كله لما جاءت به أنفسهم من الإنفاق على المهاجرين، وضح لهم رسول الله ﷺ بابًا من الخير يقربهم من أجر الأنصار.

فعن أنس -رضى الله عنه- أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب الأنصار بالأجر كله، قال: **«لا، ما دعوتم الله لهم، وأثنيتم عليهم»**[4]، فعلمهم ﷺ أن يكافئوا إحسان المحسن بالدعاء له، أو الثناء عليه.

ولا يجوز أن تكون مكافأة من أحسن إليك الإساءة إليه، فهذا عمل مبغوض حتى مع البهائم، يروى أنه لما فرت امرأة من المسلمين من العدو على ناقة مسلوبة كانت لرسول الله ﷺ نذرت إن وصلت المدينة ناجية أن تنحرها، فلما ذكر ذلك -لرسول الله- ﷺ قال: **«بئسًا جزيتيها»**[5] وضعت من نحرها[6].

والمحسن الذى يلقى الإساءة ممن أحسن إليه بدل الإحسان عزاؤه فى أن الله ناصره، فقد روى أن رجلا جاء يشكو لرسول الله ﷺ قائلاً: **«إن لى ذوى**

(١) أصول المنهج الإسلامى، ص ٣٠٠.
(٢) مسند أحمد، ٢/ ٦٧.
(٣) سن أبى داود، حديث رقم (٤٠٢٨).
(٤) سنن أبى داود، حديث رقم (٤٠٢٧).
(٥) مسند أحمد، ٤/ ٣٢٣.
(٦) الأخلاق الإسلامية، حسن السعيد المرسى، ص ١٢٤.

أرحام أصل ويقطعون، وأعفو ويظلمون، وأحسن ويسيئون، أفأكفئهم -أي بمثل إساءتهم- قال: لا، إذًا تتركون جميعًا، ولكن خذ بالفضل، وصلهم، فإنه لا يزال معك من الله ظهير ما كنت على ذلك»[1].

وهكذا نجد أن الإحسان يعبر عن معنى الإخلاص، وهو العلامة المميزة لصدق العبد مع ربه، ورجوعه لله شريعة وحقيقة، إذ الشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والمخلص لا يقدر عليه الشيطان، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

❁❁❁

(١) مسند أحمد، ٣/ ٤٧٢، والترمذي، حديث رقم: (٢٠٠٧).

الفصل الثانى عشر:

العفة وضبط النفس

العفة: هى اعتدال الميل إلى اللذة، وخضوعها لحكم العقل[1]، وكف النفس عما لا يحل، وضبطها عند الشهوات، فهى حالة متوسطة بين الفجور الذى هو إفراط فى الشهوة، والجمود الذى هو تفريط فيها[2].

والعفة: شرط فى كل فضيلة، فلولاها لصارت الفطنة مكرًا ودهاء، والشجاعة تجاوزًا للهدف، والعدالة نوعًا من الظلم، إنها تنظم الشهوات وتخضعها لحكم العقل[3].

وهذا الخلق يدفع الإنسان لأن يكون سيد نفسه، لا عبدًا لشهوات تسيره كم تشاء.

والقرآن الكريم يدفع المؤمنين إلى امتثال خلق العفة، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣٠-٣١].

وقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يحث أتباعه على تجنب الزنا والفاحشة،

(١) الأخلاق، أحمد أمين، ص ٢١٢.

(٢) أخلاقنا، ربيع جوهرى، ص ١٤١..

(٣) الأخلاق النظرية، عبد الرحمن بدوى، ص ١٨١.

وحفظ الفرج، وغض البصر عن النظرة الحرام، ويحرم كل اتصال جنسى بين الرجل والرجل، والمرأة والمرأة بأى طريق كان، فالإسلام يحرم المثلية تحريمًا مطلقًا. وحفظ الفرج يشمل -أيضًا- تجنب إتيان الزوجة فى الدبر، وفى أثناء الحيض، وحفظ الفرج يقتضى سد الذرائع، أى تجنب السبل التى تفضى إليه، ولهذا أمر القرآن المسلمين والمسلمات بغض الأبصار وعدم إبداء الزينة، فذلك أزكى لهن وأطهر.

وحرم الإسلام الزواج من فئات معينة من الأقارب، قال -عز وجل- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ [النساء: ٢٣].

فيما عدا هذه القيود والنظم أباح الإسلام الإشباع الجنسى عن طريق الزواج الشرعى، ولم يقيده بأية قيود أخرى، يقول الله -عز وجل- ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣].

ويصف المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

ويقول النبى ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض البصر وأحصن الفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[١].

والعفة الإسلامية ليست مشروطة بالامتناع عن اللذات كما هى العفة الأرسطية[٢]، ولكنها مشروطة بالامتناع عن اللذات الجنسية المحرمة فقط.

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) نسبة إلى أرسطو فيلسوف يونانى قبل الميلاد.

ولكى يُمكن الإسلام من الممارسة الفعلية للعفة لم يجعل الزواج أبدًا كالمسيحية مثلاً[1] فأباح الطلاق إذا وقع النفور بين الزوجين، وعند عجز الزوج أو مرضه أو إعساره أو غيبته؛ وأباح للزوج الطلاق، والتزوج بأكثر من واحدة على أن يعدل بينهن، «وبهذا فتحت الشريعة للمحصن كل أبواب الحلال، وأغلقت دونه باب الحرام»[2].

وفضلاً عن ذلك فإن المجتمع الإسلامى الحقيقى يخالف المجتمعات القائمة جذريًا لصالح العفة، فنظمه وقوانينه تعاون الرجال والنساء على التعفف.

• عقوبة مقترف الزنا:

بعد كل هذه الكفالات للعفة يصبح من المنطقى إيقاع عقوبة رادعة بالزناة، وخاصة المحصنين منهم؛ وهذا هو بالتدقيق ما تفعله الشريعة الإسلامية بهم[3]، فالمحصن يرجم حتى الموت، وغير المحصن يجلد مائة جلدة. يقول الله -عز وجل- ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

فالزنا اعتداء فاحش على الآخرين، وليس مجرد رذيلة، ولهذا شدد الإسلام -أيضًا- على القذف، أو الاتهام الباطل بالزنا، فجعل عقوبة القذف ثمانين جلدة[4]. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

فالزنا يلحق أضرارًا عديدة وخطيرة بالآخرين، فالزوج حين يزنى ينكث عهدًا، يتضمنه عقد الزواج، وهو عهد خطير؛ لأن موضوعه العرض لا المال، أو أى عرض آخر محدود القيمة.

والزنا طعنة فى الظهر تُقترف خفية، وتسفر عن انتقال الملك بغير حق، مثل السرقة والخيانة[5] لأن ابن السِّفاح يرث غير أبيه.

(١) إنجيل لوقا -إصحاح ١٦-١٨.

(٢) التشريع الجنائى الإسلامى مقارنًا بالقانون الوضعى، عبد القادر عودة، ١/ ٦٤٢..

(٣) الطريق إلى مكة، محمد أسد، ص ٣٠١.

(٤) الفضائل الخلقية فى الإسلام، ص ٢٢٩.

(٦) إحياء علوم الدين، ٥/ ٢٥.

وزنا أحد الزوجين انتقاص كبير من مكانة الزوج الآخر، وإساءة كبيرة إلى أهل الزانى، إنه عار اجتماعى يصعب محوه، زنا أحد الزوجين هو فى الحقيقة نتاج الهبوط الخلقى لديه، لكنه غالبًا ما يتخذ دليلا على أن الزوج الآخر غير كفء جسديًا أو اجتماعيًا أو عاطفيًا.

ولذلك نجد أن الإسلام أَوْلى خلق العفة أهمية كبيرة، وحث عليها يقول الرسول ﷺ: «عجب ربنا من شاب له صبوة». قال النبى ﷺ هذه الكلمات لتقدير جهد الأعفاء فى عصر لم يكن فيه الإغراء على الزنا ملموسًا، ولم تكن النظرة الاجتماعية إلى الفاحشة متساهلة متهاونة كما هى اليوم فى الأخلاق غير الإسلامية، وفى واقع المجتمعات الإسلامية.

• أنواع ضبط النفس:

لا يقتضى ضبط النفس القضاء على الرغبات والشهوات، وإنما يقتضى تهذيبها واعتدالها وجعلها خاضعة لحكم العقل، ففى القضاء على الشهوات القضاء على الشخص وعلى النوع، وفى اعتدالها سعادتهما جميعًا.

ومن أهم أنواع ضبط النفس:

١- ضبط النفس عن الغضب، فمذموم أن يكون الإنسان سريع الغضب، يخرج عن عقله للكلمة الصغيرة والسبب الحقير.

ولذلك قال النبى ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب**»(١).

وليس الغضب بالخطأ دائمًا، فهناك حالات يمدح فيها. فلو رأيت شابًا يعذب صغيرًا لم يجنى جناية، أو ضعيفًا لا يستحق عذابًا، أو حيوانًا لا حول له ولا حيلة فحق أن تغضب، كذلك طبيعى أن يغضب الإنسان إذا عومل معاملة لا تتفق مع شرفه أو نحو ذلك، كذلك إذا رأى الإنسان انتهاكًا لحرمات الله، فلا بد له أن يغضب.

(١) رواه البخارى.

٢- ضبط النفس عن الاسترسال فى الانقباض والسخط؛ لأن ذلك يكدر صفو الحياة، وفى الناس كثير من هؤلاء المتشائمين الساخطين، الذين يرون أن لا أسوأ من هذا العالم وأن لذائذه لا تكاد تذكر بجانب آلامه.

وأغلب هذا المنظر يكون عند من ضعفت صحتهم، أو ساءت أعصابهم، أو توالت عليهم المصائب من موت أو فقر أو نحو ذلك.

ويظهر أن هؤلاء قد قصرت مشاعرهم عن إدراك ما فى العالم من ملذات، فمثلهم كمثل أعمى الألوان الذى يدرك بعضها دون بعض، وإن الدنيا مملوءة بالمسرات والمؤلمات جميعًا.

إن السعادة أو المسرة تعتمد على أنفسنا أكثر مما تعتمد على الظروف الخارجية، ويجب أن يتعلم الإنسان فى المعيشة، وكيف يكون راضيًا ولو لم يكن كل شىء حوله وفق ما يتمنى.

٣- ضبط النفس عن الاسترسال فى الشهوات الجسمية، فهى شر ما يقع فيه الإنسان ويفسد عليه حياته، ويضعف روحانيته، ويقلل من حريته ويسوقه إلى أسوأ حياة، وطريق الاحتياط لذلك عدم التعرض للمغريات، فلا يجالس المستهترين الذين لا يتحرجون من قول الهجر والحض عليه، ولا يغشى أماكن اللهو، ويجب أن يصحب من قويت شخصيتهم، ونظف لسانهم، وطهرت روحهم.

٤- ضبط الفكر فلا يتركه يهيم فى كل واد، ويتجول فى كل مجال، فالفكر إذا حام حول الشرور يوشك أن يقع فيها.

وعلى الجملة فضابط نفسه كراكب الفرس الذلول يقصد حيث أراد فيوجهها كما يشاء، ومن لم يضبط نفسه كراكب الصعبة، لا يسيرها كما يهوى، ولا يصل إلى غرضه بالسير كما تهوى.

فى ضبط النفس حفظ الصحة، وطمأنينة العقل، والسعادية والحرية، وسلطان كسلطان القائد على جنده أو الربان الماهر على سفينته[1].

(١) الأخلاق، أحمد أمين، ص ٢١٦-٢١٩ بتصرف.

خاتمة

بعد هذا الطرح الذى قدمته، آمل أن أكون قد وفيته حقه، دون إطناب أو تقصير.

ونعود فى النهاية لنؤكد أن هذه الحدود وضعت لتمنع جرائم أخلاقية تتنافى مع الفطرة السوية، وهى من أشد العقوبات فى الشريعة الإسلامية؛ نظرًا لأن التساهل فيها يجر على المجتمع الفساد والتفكك.

فإذا وقعت هذه الجرائم، فلابد من عقاب الجانى ليرتدع غيره؛ لأن هذه جرائم ضد الإنسانية والمجتمع بالدرجة الأولى.

فالزنا يعمل على تفكك البناء الاجتماعى المحكم، وما يجره ذلك من اختلاط الأنساب، وضياع الميراث، وقد يفرز على المدى البعيد زواج المحارم، ومن يدرى؟!

والقذف يمس شخص الفرد وسلوكه، فقذفه يجعله بعيدًا عن المجتمع، فاقد الثقة فيمن حوله، ويكره الناس، صاحب شخصية عدوانية، ولا شك أن القذف يتسبب فى ضياع السمعة، وتفكك الأسرة.

وشرب الخمر أم الخبائث ورأس الموبقات، فإذا شرب المرء فإنه يقتل ويزنى ويسرق ويفعل كل المحرمات، فكان سد الباب هو أكثر العقوبات ملائمة، حتى لا ينكسر، ولن يقدر أحد على مواجهة نتائجه.

والسرقة تلك الجريمة التى تمس الملكية الشخصية للفرد، وتنشر ثقافة الخيانة وغياب الثقة، بما يجر ذلك الشح والبطالة.

والحرابة من الجرائم التى تمس كيان المجتمع وبنائه، فالخروج على الناس وترويعهم، يبعث على فقد الثقة بين الناس، وانتشار الرعب، وتطرد الأمن الذى هو من أهم مقومات العيش.

والبغى لا يقل خطرًا عن الحرابة، بل إن له أكبر الأثر فى وقوع الشقاق بين الناس، وتفرق الناس شيعًا، يقتل بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، ومأواهم النار.

أما الردة فهى أم النكبات، فهى -إن لم تقاوم- تجعل الدين أرجوحة، من شاء دخل ومن شاء خرج، وتتنافى مع الحكمة من الدين وهى الالتزام بسلوكيات معينة، من خلالها يحاسب المرء على أفعاله.

والقتل إيذان بالنهاية، وتفانى الناس، ويتنافى مع الحكمة من خلق الإنسان، فاشتغال الناس بالقتل، يخرب المجتمع، ويعطل المصالح، لذا وحتى لا تقع الجرائم أصلاً شرعت تلك الحدود؛ لترهب من يفكر فى ممارسة الإرهاب، بإرهاب أشد وطأة، وأقوم نهجًا.

هذه هى المنظومة الأخلاقية الإسلامية، وضعها الله -تعالى- لنسير عليها وضمن لنا النجاح والفوز فى الدنيا والآخرة، ولكن تأبى طبائع الناس، ونفوسهم المعوجة إلا الحرابة، واستخدام العقل فيما يجب وفيما لا يجب.

نتضرع إلى الله بالمساجد، نبغى رحمته، ونخشى عذابه، نطلب الصفح و ة، فإذا خرجنا قلبنا -لا لله- بل على أنفسنا ظهر المجن، وقلنا إن هذا القانون إلهى لا يتماشى وظروف ومتطلبات العصر.

نخرج لنعيش جميعًا فى خفة الطير، وأحلام السباع، ودهاء الأفاعى، نخرج لنعيش بمنطق الأسد، ولا عزاء لضعيف.

أسأل الله العلى العظيم أن يتقبل منى هذه الكلمات، ويجعلها فى موازين الحسنات، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

والله من وراء القصد

المراجع

١- الآداب الشرعية: ابن مفلح- تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخر- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الثانية ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

٢- الاتجاه الأخلاقى فى الإسلام: د/ مقداد يالجن- مكتبة الخانجى- القاهرة- الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ = ١٩٧٣م.

٣- إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالى- دار الغد العربى- القاهرة- الطبعة الثانية ١٩٨٧.

٤- الأخلاق: أحمد أمين- دار الكتاب العربى- بيروت ١٩٧٤م.

٥- أخلاق الإسلام وأخلاق دعاته: ربيع إبراهيم محمد الشيخ- مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.

٦- الأخلاق الإسلامية: حسن سعيد المرسى- مكتبة المتنبى- الدمام- الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

٧- الأخلاق الإسلامية: د/ حسن الشرقاوى- مؤسسة مختار للنشر والتوزيع- القاهرة- الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

٨- الأخلاق الإسلامية: د/ عبد اللطيف محمد العبد- مكتبة دار العلوم- الطبعة الأولى- القاهرة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م.

٩- الأخلاق بين العقل والنقل: د/ أبو اليزيد أبو زيد- دار الثقافة العربية- القاهرة- الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م.

١٠- الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع: د/ محمد السيد البدوى- دار المعارف- القاهرة ١٩٦٧م.

١١- الأخلاق عند الغزالى: زكى مبارك- مطبعة الشعب ١٩٧٠م.

١٢- أخلاقنا: د/ محمد ربيع جوهرى- دار الفجر الإسلامية- المدينة.

١٣- أخلاقنا الاجتماعية: مصطفى السباعى- دار الوراق- بيروت- الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

١٤- الأخلاق النظرية: د. عبد الرحمن بدوى- وكالة المطبوعات- الكويت- الطبعة الثانية ١٩٧٦م.

١٥- أدب الدنيا والدين: أبو الحسن على البصرى الماوردى- تحقيق: د/ محمد صباح- منشورات مكتبة الحياة- بيروت ١٩٨٦م.

١٦- الأدب المفرد: الإمام البخارى- خرج أحاديثه محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

١٧- الإسلام عقيدة وشريعة: محمود شلتوت- دار الشروق- القاهرة- الطبعة السابعة عشرة ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

١٨- الإسلام فى حياة المسلم: د/ محمد البهى- مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة الخامسة ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

١٩- الإسلام وأصول الحكم: د/ إبراهيم هلال.

٢٠- الإسلام والعقل: د/ عبد الحليم محمود- دار المعارف- القاهرة- الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

٢١- الإيمان والمعرفة الإنسانية: محمد حسين هيكل- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة ١٩٦٤م.

٢٢- أصول المنهج الإسلامى: عبد الكريم العبيد- الطبعة الثانية ١٩٨٩م.

٢٣- إنجيل لوقا: ضمن كتاب العهد الجديد- ليسوع المسيح.

٢٤- التربية الأخلاقية: إميل دور كايم- ترجمة: د. السيد محمد البدوى- مكتبة مصر- القاهرة- بدون تاريخ.

٢٥- التربية الأخلاقية الإسلامية: د. مقداد يالجن- مكتبة الخانجى- القاهرة- الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

٢٦- التربية الخلقية: د/ على عبد الحليم محمود- ترجمة: د. السيد محمد البدوى- مكتبة مصر- القاهرة- بدون تاريخ.

٢٧- تربية الأولاد فى الإسلام: عبد الله ناصح علوان- دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة- الطبعة التاسعة ١٤٠٦هـ = ١٩٨٥م.

٢٨- الترغيب والترهيب: عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٢٩- التشريع الجنائى الإسلامى مقارنًا بالقانون الوضعى: عبد القادر عودة- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الثالثة عشر ١٩٩٤م.

٣٠- التعريفات: الجرجانى- تحقيق: محمد إبراهيم الإبيارى- دار الكتاب العربى- بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٣١- تفسير الشعراوى: الشيخ محمد متولى الشعراوى- نهضة مصر- القاهرة.

٣٢- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير- دار المعرفة- بيروت ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م.

٣٣- تفسير القرطبى: تحقيق: أحمد عبد العظيم البردونى- دار الشعب- القاهرة- الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ.

٣٤-تفسير المنار: محمد رشيد رضا- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- الطبعة الثانية.

٣٥- التفكير الفلسفى فى الإسلام: د. عبد الحليم محمود- دار المعارف- القاهرة- الطبعة الثانية ١٩٨٩م.

٣٦- تهذيب مدارج السالكين: لابن القيم- عبد المنعم صالح العلى.

٣٧- الجامع الصغير: السيوطى- الناشر عبد الحميد أحمد حنفى- الطبعة الأولى.

٣٨- جمال الدين الأفغانى حياته وفلسفته: د/ محمود قاسم- مكتبة الأنجلو المصرية- بدون تاريخ.

٣٩- الحسبة فى الإسلام: الإمام ابن تيمية- مطبعة المؤيد- الرياض ١٣١٨هـ.

٤٠- الحضارة الإسلامية فى القرآن الرابع الهجرى: آدم متز- تعريب: د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ١٩٤٠م.

٤١- أبو حنيفة حياته وعصره: آراؤه وفقهه- الشيخ محمد أبو زهرة- دار الفكر العربى- القاهرة ١٩٧٤م.

٤٢- الخصائص العامة للإسلام: د. يوسف القرضاوى- مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة الثانية ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

٤٣- خلق المسلم: الشيخ محمد الغزالى- دار الكتب الإسلامية- القاهرة- الطبعة التاسعة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

٤٤- دراسات فى علم الأخلاق: د/ عبد الحميد عبد المنعم مدكور- مكتبة الشهاب- القاهرة ١٩٩٠م.

٤٥- دراسات فى فلسفة الأخلاق: محمد عبد الستار نصار - دار القلم الكويت، الطبعة الأولى - ١٩٨٢.

٤٦- دستور الأخلاق فى القرآن: محمد عبد الله دراز- تعريب وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الثامنة ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.

٤٧- الرسالة القشيرية: الإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى- تحقيق: د/ عبد الحليم محمود وآخر- دار الكتب الحديثة- القاهرة ١٩٧٤م.

٤٨- رسالة المسترشدين: الحارث المحاسبى- تحقيق: د. عبد الفتاح أبو غدة- مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب.

٤٩- روح المعانى: الألوسى- دار إحياء التراث العربى- بيروت.

٥٠- رياض الصالحين: الإمام النووى- دار الكتاب العربى- بيروت.

٥١- الزهد: أحمد بن حنبل- دار الريان للتراث- القاهرة- الطبعة الثانية ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

٥٢- الزهد: عبد الله المبارك- دار ابن خلدون- الإسكندرية- بدون تاريخ.

٥٣- سنن الترمذى: أبو عيسى محمد بن عيسى- تحقيق أحمد محمد شاكر- دار الكتب العلمية- بيروت- بدون تاريخ.

٥٤- سنن أبى داود: سليمان بن الأشعث السجستانى- دار الحديث- القاهرة- ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

٥٥- سنن ابن ماجة: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى- دار الريان للتراث- القاهرة- بدون تاريخ.

٥٦- سنن النسائى: أبو عبد الرحمن النسائى- دار الحديث- القاهرة- ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٥٧- سيرة النبى ﷺ: ابن هشام- تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد- دار الفكر- بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

٥٨- شعب الإيمان: البيهقى- تحقيق: محمد السعيد بسيونى زغلول- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٥٩- صحيح البخارى: محمد بن إسماعيل البخارى- تحقيق: د. مصطفى ديب البغا- دار ابن كثير- بيروت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٦٠- صحيح مسلم: أبو الحسن مسلم بن الحجاج- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى- دار الحديث- القاهرة- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.

٦١- الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية: ابن قيم الجوزية- تحقيق: محمد حامد الفقى- دار الكتب العلمية- بيروت- بدون تاريخ.

٦٢- الطريق إلى مكة: محمد أسد- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الثالثة ١٩٥١م.

٦٣- العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسى- تحقيق: د/ عبد المجيد الترحينى- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٦٤- فتح البارى لشرح صحيح البخارى: شهاب الدين أبو الفضل أحمد ابن حجر العسقلانى- دار المعرفة- بيروت.

٦٥- فتح القدير: الإمام محمد بن على بن محمد الشوكانى- علق عليه: سعيد محمد اللحام- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

٦٦- الفضائل الخلقية فى الإسلام: د. أحمد عبد الرحمن إبراهيم- دار الوفاء للطباعة والنشر- المنصورة- الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.

٦٧- فلسفة الأخلاق فى الإسلام: د/ محمد جواد غنيمة- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الأولى ١٩٧٧م.

٦٨- الفلسفة الخلقية نشأتها وتطورها: د. توفيق الطويل- منشأة المعارف- الإسكندرية- الطبعة الأولى ١٩٦٠م.

٦٩- فى ظلال القرآن: سيد قطب- دار الشروق- القاهرة- الطبعة الثالثة عشر ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٧٠- قضايا العصر ومشكلات الفكر تحت ضوء الإسلام: أنور الجندى- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

٧١- قوت القلوب فى معاملة المحبوب: أبو طالب المكى- مطبعة مصطفى البابى الحلبى- القاهرة- الطبعة الأولى ١٣٨١هـ = ١٩٦١م.

٧٢- الكبائر: الإمام الذهبى- مكتبة الجندى- القاهرة- بدون تاريخ.

٧٣- كشف الخفاء: إسماعيل بن محمد العجلونى- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ.

٧٤- لسان العرب: ابن منظور- دار المعارف- القاهرة- بدون تاريخ.

٧٥- المحاور الخمسة للقرآن الكريم: الشيخ محمد الغزالى- دار الصحوة- القاهرة- الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

٧٦- مختصر منهاج القاصدين: ابن قدامة المقدسى- دار الدعوة للطباعة والنشر- الإسكندرية ١٩٨٣م.

٧٧- مدخل لمعرفة الإسلام: د/ يوسف القرضاوى- مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة الأولى ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

٧٨- المسئولية والجزاء: د. على عبد الواحد وافى- مكتبة نهضة مصر- القاهرة- الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م.

٧٩- مسند أحمد: أحمد بن حنبل- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- بدون تاريخ.

٨٠- مسند البزار: تحقيق: د/ محفوظ عبد الرحمن زين الله- مؤسسة علوم القرآن- بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٨١- مشكلة الانتحار: مكرم سمعان- دار المعارف- القاهرة ١٩٦٤م.

٨٢- المشكلة الخلقية: د/ زكريا إبراهيم- مكتبة مصر- القاهرة- الطبعة الأولى ١٩٦٩م.

٨٣- المعجم الفلسفى: جميل صليبا- الشركة العالمية للكتاب- بيروت ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

٨٤- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية- القاهرة.

٨٥- مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازى- دار الغد العربى- القاهرة- الطبعة الأولى ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

٨٦- مقدمة فى الفلسفة العامة: د/ يحيى هويدى- دار النهضة العربية- القاهرة ١٩٦٨م.

٨٧- مكارم الأخلاق: ابن أبى الدنيا- تحقيق: مجدى السيد إبراهيم- مكتبة القرآن- القاهرة ١٩٩٠م.

٨٨- من الآداب والأخلاق الإسلامية: عبد الله عبد الرحيم العبادى- مطبعة السعادة- القاهرة- الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ = ١٩٧٩م.

٨٩- منبعا الأخلاق والدين: هنرى برجسون- ترجمة: سامى الدروبى- مكتبة نهضة مصر- القاهرة ١٩٤٥م.

٩٠- منهاج السنة النبوية فى نقض الشيعة والقدرية: ابن تيمية- تحقيق: محمد رشاد سالم- مكتبة ابن تيمية- القاهرة- الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.

٩١- منهاج المسلم: أبو بكر جابر الجزائرى - دار السلام - الطبعة الرابعة - ٢٠٠٤.

٩٢- منهج القرآن فى بناء المجتمع: محمود شلتوت- إصدار وزارة الأوقاف الرسالة الخامسة ١٣٧٩هـ.

٩٣- منهج القرآن فى تربية المجتمع: د/ عبد الفتاح عاشور- مكتبة الخانجى- القاهرة- الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

٩٤- الموطأ: الإمام مالك بن أنس- صححه: محمد فؤاد عبد الباقى- المكتبة الثقافية- بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٩٥- نظام الحياة فى الإسلام: أبو الأعلى المودودى- ترجمة: محمد عاصم- دار الفكر- بيروت.

❀❀❀

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
تمهيد	٥
الباب الأول	
مكانة الأخلاق فى الإسلام	
الفصل الأول: الأخلاق الإسلامية	١١
المبحث الأول: أهمية الأخلاق فى منظومة الإسلام	١٢
المبحث الثانى: علاقة الخلق بالسلوك	٢٠
الفصل الثانى: الوسائل التى تساعد فى بناء الأخلاق	٢٢
المبحث الأول: الوعظ النصيحة	٢٥
المبحث الثانى: التخلى والتحلى	٢٨
المبحث الثالث: الصداقة	٣١
المبحث الرابع: القدوة المثل الأعلى	٣٢
المبحث الخامس: الثواب والعقاب	٣٥
المبحث السادس: التمثيل القصصى القرآنى	٣٨
الفصل الثالث: اهتمام الإسلام بالأخلاق	٤١
المبحث الأول: العقائد الإسلامية والأخلاق	٤٦
المبحث الثانى: العبادات الإسلامية والأخلاق	٤٨
المبحث الثالث: المعاملات الإسلامية والأخلاق	٥١
المبحث الرابع: الأخلاق والاقتصاد	٥٣
المبحث الخامس: الأخلاق والسياسة	٥٥
الفصل الرابع: خصائص الأخلاق الإسلامية	٥٨

المبحث الأول: ربانية المصدر ٥٨
المبحث الثانى: واقعية ممكنة التطبيق ٦٠
المبحث الثالث: تتسم بالشمول والعموم ٦٣
المبحث الرابع: الاهتمام بالنية ٦٦
المبحث الخامس: الجمع بين الإلزام كضابط والإلتزام كحرية ... ٦٨
المبحث السادس: الإيجابية ٧٠
المبحث السابع: تتسم بالتوازن. ٧٢
الفصل الخامس: الجوانب الأخلاقية التى عالجها الإسلام ٧٦
المبحث الأول: جانب الالزام ٧٦
المبحث الثانى: جانب المسؤلية ٧٩
المبحث الثالث: جانب الجزاء ١٠٠

الباب الثانى

فلسفة الإسلام فى تشريع العقوبات

مقدمة ١١٥
تمهيد: تشريع العقوبات للمصلحة العامة ١١٧
الفصل الأول: فلسفة الإسلام فى تشريع العقوبات ١١٩
المبحث الأول: سريان النصوص الجنائية على الزمان ١٢٠
المبحث الثانى: سريان النصوص الجنائية على المكان ١٢١
المبحث الثالث: سريان النصوص الجنائية على الأشخاص ... ١٢٣
المبحث الرابع: المسئولية الجنائية ١٢٥
المطلب الأول: سبب المسئولية وشروطها ١٢٦
المطلب الثانى: محل المسئولية ١٢٧
المطلب الثالث: شخصية المسئولية ١٢٨
المطلب الرابع: أثر الجهل والنسيان والخطأ على المسئولية ... ١٢٩

المطلب الخامس: رفع المسئولية ١٣١
المبحث الخامس: العقوبة ١٣٢
المطلب الأول: شروط العقوبة..... ١٣٢
المطلب الثانى: استيفاء العقوبة ١٣٣
المطلب الثالث: صلاحية العقوبة ١٣٤
المطلب الرابع: رفع العقوبة ١٣٦
المطلب الخامس: سقوط العقوبة ١٣٨
الفصل الثانى: الحدود..... ١٤٠
مقدمة..... ١٤٠
المبحث الأول: الزنا ١٤٢
المبحث الثانى: القذف ١٤٤
المبحث الثالث: شرب الخمر ١٤٧
المبحث الرابع: السرقة ١٥٠
المبحث الخامس: الحرابة ١٥٧
المبحث السادس: البغى ١٦٠
المبحث السابع: الردة ١٦٣
الفصل الثالث: القصاص ١٦٦
المبحث الأول: شروط وجوب القصاص وحكمه ١٦٧
المبحث الثانى: القتل العمد ١٧١
المبحث الثالث: الجناية على ما دون النفس عمداً ١٧٤
المبحث الرابع: قضايا فى القصاص ١٧٥
المطلب الأول: استيفاء القصاص ١٧٥
المطلب الثانى: امتناع القصاص ١٧٦
المطلب الثالث: سقوط القصاص ١٧٧

الباب الثالث

بعض النماذج التطبيقية للأخلاق الإسلامية

الفصل الأول: الأمانة ١٨١

الفصل الثانى: الصدق ١٨٩

الفصل الثالث: العدل ١٩٥

الفصل الرابع: الشجاعة ٢٠٤

الفصل الخامس: الصبر ٢١٠

الفصل السادس: الحلم ٢١٨

الفصل السابع: الوفاء ٢٢٥

الفصل الثامن: التواضع ٢٣٢

الفصل التاسع: الحياء ٢٤١

الفصل العاشر: الرحمة ٢٤٩

الفصل الحادى عشر: الإحسان ٢٦٢

الفصل الثانى عشر: العفة وضبط النفس ٢٧٠

خاتمة ٢٧٥

المراجع ٢٧٧

الفهرس ٢٨٥